الشفاعة

بحوث في حقيقتها وأقسامها ومعطياتها

المرجع الديني
السيد كمال الحيدري

مؤسسة الهدى

للطباعة والنشر

لبنان ـ بيروت ـ الغبيري ـ مقابل سنتر الإنماء

١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م

يطلب من

• مؤسسة الإمام الجواد عليه السلام للفكر والثقافة

٠٠٩٦٤-٧٧٠٧٩٠٠٨٤٢

٠٠٩٦٤-٧٨٠٠٢٣٠٠٢٩

• مؤسسة الثقلين للثقافة والإعلام

العراق ـ كربلاء ـ شارع باب القبلة مقابل قاعة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله

٠٠٩٦٤-٧٨٠٠٣٢٢٣٠٨

• مكتبة الإمام الباقر عليه السلام

العراق ـ النجف ـ سوق الحويش ـ مقابل جامع الهندي

٠٠٩٦٤-٧٨٠١٢٦٣٥٧٩

• مكتبة القائم

العراق ـ بغداد ـ الكاظمية المقدّسة ـ باب المراد

٠٠٩٦٤-٧٩٠١٩٩٢٧٢٠

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

لا شكّ أن الشفاعة حقيقة إسلامية ناصعة لا يسعُ مسلماً إنكارها، فقد نطقت بها نصوص القرآن الكريم، وتواترت في السُنّة النبوية المطهّرة، وروايات أئمة أهل البيت عليهم السلام، واتّفقت كلمة علماء المسلمين على أنها من الأصول الأساسية في العقيدة الإسلامية، وإن اختلفوا في تفاصيلها.

قال النووي في «شرح صحيح مسلم»: «قال القاضي عياض: مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلاً ووجوبها سمعاً بصريح الآيات وبخبر الصادق وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة»[1].

وقال الرازي: «أجمعت الأمّة على أن لمحمد صلى الله عليه [وآله] وسلم شفاعة في الآخرة»[2].

وقال محمد جواد البلاغي: «لكن لو أعطي القرآن حقّه من التدبّر وسلمت النفوس من وباء الأهواء والتحزّب... لما ثار الهياج من بعض الناس على استشفاع المسلمين بالرسول والأئمة والأولياء، لأنهم عباد مكرمون، وأولى عباد الله بأن نعتقد إذنه جلّت آلاؤه لهم بالشفاعة إكراماً لهم لأجل الحكمة التي ذكرناها. وقد اكتفينا هاهنا بدلالة الكتاب المجيد عن الإشارة إلى ما تواتر معناه من أحاديث المسلمين في هذه الشؤون، وفي

---

(١)شرح صحيح مسلم: ج ٢ ص ٥٨.

(٢) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ج ٣ ص ٥٢.

كتبهم في الحديث من ذلك شيء كثير والأمر فيه جليّ»[1].

ومع ذلك لم تسلم هذه الحقيقة الناصعة من محاولة إثارة الغبار حولها، والتشكيك فيها ككثير من مسائل العقيدة التي ظهر فيها الخلاف بعد حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله بسبب عدم الرجوع في فهم الإسلام إلى أهل البيت عليهم السلام، الثقل الثاني الذي أمرنا النبي صلى الله عليه وآله بالتمسك بهم بعد القرآن الكريم، وخالف من خالف حتى بلغ الحال ببعضهم إلى تكفير القائلين بالشفاعة والمؤمنين بالاستشفاع حتى بخير الشفعاء وصاحب المقام المحمود، الذي تضافرت الروايات وأجمعت أن المراد به هو مقام الشفاعة الكبرى.

وأثيرت حول الشفاعة إشكالات كثيرة، مثل: إن الشفاعة تستلزم الظلم من الله سبحانه، أو إنها تدعو العبد إلى التجرّي وارتكاب ما نهى عنه تعالى، وتتنافى مع الدعوة للسعي والعمل، وقال بعضهم إن آيات الشفاعة من المتشابهات، أو إنه ليس في القرآن نصّ قطعي في وقوع الشفاعة، إلى غير ذلك من الشبهات.

ونظراً لأهمية هذه العقيدة الحقة، وما تحظى به من دور إيجابي في بناء عقيدة المسلم وترشيد سلوكه، وبغية بيان الحقيقة وإزالة ما حصل من التباسات في فهم هذه المسألة، والإجابة على ما أثير حولها من إشكالات وشبهات، تناولنا في هذه الدراسة مفهوم الشفاعة والأمور المتعلقة بها، مستندين في كل ذلك إلى آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة المرويّة عن النبي صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام، إضافة إلى ما

---

(١) **آلاء الرحمن في تفسير القرآن**: الإمام المجاهد الشيخ محمد جواد البلاغي: ج ١ ص ١٣٦.

ورد عن علماء المسلمين من رواة الحديث والمفسّرين من الفريقين.

لقد بحثنا الشفاعة في جوانبها المختلفة ووزّعنا البحث على ستة فصول، تناولنا في الفصل الأول مفهوم الشفاعة لغة واصطلاحاً سواء في الاستعمال العرفي والعقلائي، أو الاستعمال الذي ورد في القرآن الكريم، مع بيان أقسام الشفاعة، ومنها الشفاعة التكوينية والتشريعية، واستعرضنا الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تؤيّدهما، كما أوضحنا الكلام في الآيات النافية للشفاعة، وبيّنا الحدود الفاصلة بين الإسلام والوثنية في مسألة الاستشفاع، وختمنا الفصل ببحث في بيان حقيقة فعل الشفيع .

ثم عرضنا في الفصل الثاني اتجاهات العلماء من الفريقين السُنّة والشيعة، في بيان طبيعة الأثر المترتّب على الشفاعة التشريعية.

وانتقلنا في الفصل الثالث لمناقشة الإشكالات المثارة حول الشفاعة، وضمّنّا هذا الفصل نكات وفوائد وعظات أخلاقية نافعة في المقام.

أما الفصل الرابع فتحدّثنا فيه عن الشروط التي ينبغي توفّرها في المشمولين بالشفاعة، كلّ ذلك معضوداً بالآيات القرآنية كنهجنا في كلّ فصول الكتاب.

أما في الفصل الخامس فبعد أن أوردنا مقدّمة عن الآثار الفردية والاجتماعية للذنوب في الدنيا والآخرة، ناقشنا مسألة الشفعاء، فتحدثنا عن الشفاعة في الدنيا ومنها التوبة، والشفاعة في الآخرة، لاسيما شفاعة القرآن الكريم وشفاعة نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

وأخيراً تناولنا في الفصل الأخير (السادس) المسألة المختلف فيها بيننا - أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام - وبين الاتجاه السلفي،

وهي: مسألة جواز طلب الشفاعة من الشفعاء، فذكرنا الوجوه التي يستدلّون بها على عدم الجواز وأجبنا عليها بأسلوبٍ واضحٍ يلتزم أُصول البحث العلمي، ويراعي المنهج السليم في العرض والتحليل، لنخلص إلى أن الاستشفاع ليس شركاً بل مما ندب إليه الشرع وحثّ عليه، وأنه لا يدعو إلى التواكل والعصيان بل هو كالتوبة في زرع الأمل في نفوس المذنبين ليعودوا إلى أرحم الراحمين.

ومن الله نستمد العون والتسديد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كمال الحيدري

٢٥ ربيع الثاني ١٤٢٥ هـ

الفصل الأوّل

الشفاعة لغة واصطلاحاً

و

بيان أقسامها

الشفاعة لغة

قال الراغب في المفردات: «الشفْع: ضمّ الشيء إلى مثله، ويقال للمشفوع شفْعٌ، والشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى»(١).

وقال ابن منظور في لسان العرب: «الشفْع خلاف الوتر وهو الزوج، تقول: كان وتْراً فشفعْتُه شفْعاً أي صيّرته زوجاً، والشفيع: الشافع، والجمع: شفعاء، والشفيع من الأعداد: ما كان زوجاً، تقول: كان وتراً فشفعته بآخر»(٢).

وقال الفارسي: «استشفعه: طلب منه الشفاعة، أي قال له: كن لي شفيعاً، وشفع إليه في معنى طلب إليه، والشافع والشفيع: الطالب لغيره يتشفّع به إلى المطلوب، والمشفِّع: الذي يقبل الشفاعة، والمشفَّع: الذي تُقبل شفاعته، والشَفْعة والشُفْعة في الدار والأرض: القضاء لصاحبها»(٣).

---

(١) **المفردات في غريب القرآن**، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، مادة «شفع»، ص ٢٦٣، دار المعرفة، بيروت.

(٢) **لسان العرب**، للإمام العلاّمة ابن منظور، ج٧ ص١٥٠، مادة «شفع»، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) **لسان العرب**: ج ٧ ص ١٥١.

من هنا عرّفها الطباطبائي في «الميزان» فقال: «الشفاعة: هي من الشفع مقابل الوتر، كأن الشفيع ينضمّ إلى الوسيلة الناقصة التي مع المستشفَع فيصير به زوجاً بعد ما كان فرداً فيقوى على نيل ما يريده لما لم يكن يناله وحده لنقص وسيلته وضعفها وقصورها»(١).

الشفاعة اصطلاحاً

المعنى الاصطلاحي لأيّ مفردة لا يأتي بعيداً عن المعنى اللغوي لها، من هنا تأتي أهمّية المعاني اللغوية للمفردات لأنها تعدّ البذرة التي تبلور المعنى الاصطلاحي؛ مما يسهّل بناء النظرية على نحو منسجم لا تتعارض فيه المعاني اللغوية والاصطلاحية.

بناءً على ذلك نجد أن المعنى اللغوي للشفاعة بقي محفوظاً في الاستعمال الاصطلاحي أيضاً، لذا نحاول الوقوف على بعض استعمالات الشفاعة عند العرف العام والعرف الخاصّ.

الأول: هو المتعارف والمستخدم في المجتمعات العقلائية.

الثاني: هو الذي ورد في القرآن الكريم وروايات النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام.

هذان الاستعمالان وإن اشتركا في المعنى اللغوي، إلا أن المصداق لكلّ منهما لا علاقة له بالآخر، ومن خلال التمييز بينهما يمكن الإجابة على العديد من الإشكالات التي تثار على الشفاعة بصورة عامة.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، للعلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي، ج١ ص١٥٧، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣م.

١. الشفاعة العقلائية

تختصّ الشفاعة العقلائية بالأمور التشريعية ولا علاقة لها بالأمور التكوينية.

بيان ذلك: إن الإنسان إذا مرض لا يذهب إلى من يشفع له ليشفى من مرضه بل يذهب إلى الطبيب المختصّ ليعالج مرضه، وإذا عطش لا يذهب إلى من يتوسّل إليه لكي يرفع عطشه بل يشرب الماء ليرتوي به، وهكذا في جميع القضايا التي تتعلّق بحاجات الإنسان وشؤونه الوجودية. وبعبارة جامعة: إن جلّ الموارد التي تستعمل فيها الشفاعة العقلائية إما هي لجلب المنفعة والخير أو لدفع المضرّة والشرّ، لكن لا كلّ نفع وضرر ولو كان في الأمور التكوينية، وإنما تلك المنافع والمضارّ التي تستتبعها التشريعات والقوانين المشتملة على الأوامر والنواهي الشرعية أو الوضعية، لأن المقنّن - سواء كان هو الله تعالى أو غيره - جعل قوانين أخرى جزائية تهدّد وتعاقب المتخلّفين المتعدّين على حقوق غيرهم، وتُخوّفهم بالسيّئة قبال السيّئة، وبأخرى تشوّقهم وترغّبهم في عمل الخيرات.

في ضوء هذه الحقيقة يأتي دور الشفاعة المتعارفة لدى العقلاء، حيث يحاول المطيع أو المذنب أن يجد قريباً أو صديقاً أو وجيهاً ليشفّعه وليوسّطه فيما بينه وبين الحاكم أو من بيده الجزاء لكي يثيبه ويجازيه مثلاً فوق استحقاقه أو يعمل على أن لا تترتّب عليه تبعة ارتكابه للنواهي أو مخالفته للأوامر السائدة في مجتمعه. وبعبارة واضحة إذا أراد الإنسان أن ينال كمالاً وخيراً مادّياً أو معنويّاً وليس

عنده ما يستوجب ذلك بحسب القوانين والتشريعات الاجتماعية، أو أراد أن يدفع عن نفسه شرّاً متوجّهاً إليه من عقاب المخالفة وليس عنده ما يدفعه، أي أراد نيل ثواب من غير تهيئة أسبابه أو التخلّصَ من عقاب من غير إتيان التكليف المتوجّه إليه، فذلك هو مورد الشفاعة العقلائية.

والحاصل أن الشفاعة لدى العرف والعقلاء تمتاز بخصوصيتين هما:

• إنها تختصّ في الأمور التشريعية ولا تَعمّ الشؤون الوجودية والتكوينية.

• إنها لا تخضع لضابطة محدّدة بلحاظ ضوابط عالمَي التشريع والتكوين، بل هي قائمة على أساس الوجاهة أو الرابطة الخاصّة من قربى أو بذل مال أو غير ذلك من الأمور التي تؤثّر على الحاكم أو من بيده تحديد القرار، فيعفو عن المذنب الذي لا يستحقّ العفو ويعطي غير المستحقّ ما لا يستحقّه.

٢. الشفاعة في اصطلاح القرآن

استعمل القرآن الشفاعة في موردين: فتارة تُطلق الشفاعة ويراد بها: الشفاعة في نظام التكوين، وهذه هي: **الشفاعة التكوينية**.

وأخرى تطلق ويراد بها الشفاعة في نظام التشريع أي عالم الأوامر والنواهي والتبعات المترتّبة على الامتثال وعدمه، وهذه هي: **الشفاعة التشريعية**.

(١)
الشفاعة في نظام التكوين

من الحقائق التي أثبتها القرآن أنه ما من حياة وموت ورزق وعطاء ومنع وحوادث أخرى علوية سماوية أو سفلية أرضية إلاّ ولها أسباب طبيعية. وهذا ما تثبته ضرورة العقل الفلسفي أن النظام الكوني قائم على أساس سلسلة الأسباب والمسبّبات وارتباط كلّ ظاهرة من الظواهر الكونية بعلّة وسبب، كما تعتمد عليه الأبحاث العلمية في استدلالاتها، حيث تعلّل الحوادث والأمور المربوطة بها بما تجده من أمور أخرى صالحة للتعليل. وهذا ما فُطر الإنسان عليه حيث يعتقد أن لكلّ حادث مادّي علّة توجبه، من غير تردّد وارتياب.

ولا نعني بالسبب والعلّة إلاّ أن يكون هناك أمر واحد أو مجموع أمور إذا تحقّقت في الطبيعة مثلاً تحقّق عندها أمر آخر نسمّيه المعلول والمسبَّب. وهذا ما يثبته الاستقراء ومنطق الاحتمال أيضاً، حيث نرى أنه كلّما تحقّق احتراق مثلاً لزم أن يتحقّق هناك علّة موجبة له من نار أو حركة أو اصطكاك أو نحو ذلك؛ من هنا كانت الكلّية وعدم التخلّف من أحكام قانون العليّة والمعلولية ولوازمهما.

ولكن جميع ذلك إنما هو بإذن الله تعالى. والمقصود من الإذن

الإلهي هو أن عمل الأسباب وتأثيرها إنما هو بإقدار الله لها حدوثاً وبقاءً؛ قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لعباية بن ربعي الأسدي عندما سأله عن الاستطاعة «**إنك سألت عن الاستطاعة، فهل تملكها من دون الله أو مع الله**؟ فسكت عباية، فقال له الإمام عليه السلام: **قل يا عباية**، فقال عباية: فما أقول يا أمير المؤمنين؟

لقد صار عباية في موقف حرج لأنه إن قال إنه يملكها مع الله فهو الشرك وإن قال يملكها من دون الله فهو الاستقلال، عندئذ علّمه أمير المؤمنين؛ قال: **تقول: إنك تملكها بالله الذي يملكها من دونك، فإن ملّكك إيّاها كان ذلك من عطائه، وإن سلبكها كان ذلك من بلائه، فهو المالك لما ملّكك والقادر على ما عليه أقدرك**»[1].

إذن فنظام السببية قائم فاعل في الوجود، والرابطة ضرورية بين العلّة والمعلول والسبب والمسبّب، لكن هذه القوانين والعلائق الضرورية لا تعمل على نحو الاستقلال كما تعمل الأربعة بالنسبة إلى الزوجية، بل بما أفاده الله عليها من الضرورة، وبذلك لا يمكن أن تكون هذه القوانين معزولة عن الله، بل هي بحاجة إليه حدوثاً وبقاءً، كما لا يمكن أن تكون أيضاً حاكمة عليه، كيف وهو سبحانه الموجد والمُبقي لها الغالب عليها المالك على الإطلاق.

عن هذه الحقيقة يكتب الطباطبائي في تفسيره: «وقد بيّن القرآن الشريف على ما يُفهَم من ظواهره قوانين عامّة كثيرة في المبدأ والمعاد

---

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، تأليف: العلامة الحجّة الشيخ محمد باقر المجلسي: ج١ ص٣٩، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان.

وما رتّبه الله تعالى من أمر السعادة والشقاوة ثم خاطب النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩).

لكنّها جميعاً قوانين كلية ضرورية، إلا أنها ضرورية لا في أنفسها وباقتضاء من ذواتها، بل بما أفاده الله سبحانه عليها من الضرورة واللزوم، وإذا كانت هذه الحكومة العقلية القطعية من جهته تعالى وبأمره وإرادته، فمن البيّن أن فعله تعالى لا يجبره تعالى على مؤدّى نفسه، ولا يغلبه في ذاته، فهو سبحانه القاهر الغالب، فكيف يغلبه ما ينتهي إليه تعالى من كلّ جهة ويفتقر إليه في عينه وأثره (ذاته وفعله).

فمن المحال أن يكون العقل الذي يحكم بما يحكم بإفاضة الله ذلك عليه أو تكون الحقائق التي إنما وجدت أحكامها وآثارها به تعالى، حاكمة عليه تعالى مقتضية منه بالحكم والاقتضاء اللذين هو المُبقي لهما القاهر عليهما. وبعبارة أخرى: ما في الأشياء من اقتضاء وحكم إنما هو أثر التمليك الذي ملّكه الله إياها، ولا معنى لأن يملك شيءٌ بالملك الذي ملّكه الله بعينه منه تعالى شيئاً، فهو تعالى مالك على الإطلاق غير مملوك بوجه من الوجوه أصلاً»[1].

ولأجل ذلك اتّفقت كلمة الفلاسفة والمتكلّمين إلا من شذّ من المعتزلة على أنه لا مؤثّر مستقلّ في الوجود إلا الله تعالى، وأنّ غيره مفتقر في الوجود والتأثير إليه سبحانه، ضرورة أنها لو كانت هذه الأسباب والفواعل الطبيعية مستقلّة في التأثير، للزم أن تكون مستقلّة في الوجود أيضاً؛ لبداهة أن الاستقلال في العلّية فرع الاستقلال في

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٦ ص ٢٥٤.

الوجود، ولو سلّمنا الاستقلال في التأثير فلا محالة قد سلّمنا قبله الاستقلال في الذات، وهو يساوق كون الشيء واجباً غنياً عن العلّة، وقد فرض أنه ليس كذلك، هذا خلف.

وهذه هي نظرية الإمكان والفقر الوجودي للفيلسوف الإسلامي الكبير صدر الدين الشيرازي، حيث أثبت من خلال تحليل مبدأ العلّية أن حقيقة الأشياء الخارجية هي عين التعلّق والارتباط، لا أنها متّصفة بالفقر والحاجة(١).

ولعلّ جملة من الآيات القرآنية تثبت هذه الحقيقة؛ قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥) حيث قصرت الآية الفقر فيهم وقصرت الغنى فيه سبحانه، فكلّ الفقر فيهم وكلّ الغنى فيه سبحانه، وإذا كان الغنى والفقر وهما الوجدان والفقدان متقابلين لا يرتفعان عن موضوعهما، كان لازم القصر السابق قصر آخر وهو قصرهم في الفقر وقصره تعالى في الغنى، فليس لهم إلا الفقر وليس له تعالى إلا الغنى. فالله سبحانه غنيّ بالذات له أن يذهبهم ويستغني عنهم، وهم فقراء بالذات ليس لهم أن يستغنوا عنه بغيره»(٢).

وهذه هي نظرية مدرسة أهل البيت عليهم السلام في الفواعل

---

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**، لمؤلّفه: الحكيم الإلهي والفيلسوف الربّاني صدر الدين الشيرازي: ج ٣ ص ٢٥٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١٧ ص٣٣.

الطبيعية، حيث آمنت أن هناك طولية في الفاعلية، ولعلّ هذا ما يقتضيه الجمع بين الآيات، فالله سبحانه أوجد بعض الأفعال مباشرة وبلا واسطة، وبعضاً أوجدها مع الواسطة، بالمعنى الذي يفيد أن لهذه الواسطة أثراً في إيجاد الفعل لكن بإقدار الله، وهذا الإقدار لا يستقلّ بالأثر بل هو محتاج إليه سبحانه حدوثاً وبقاءً. فالله جلّ جلاله لا يمنح القدرة للسبب الطبيعي ثم ينعزل، بل تتّسم العلاقة بالدوام، لأن ذلك السبب قائم به حدوثاً وبقاءً ككلّ شيء في نظام عالم الوجود الإمكاني، وهذا معنى أنه تعالى «حيّ قيّوم».

في ضوء هذه الحقيقة استعمل القرآن الشفاعة في مورد التكوين، وأراد بها توسّط العلل والأسباب بينه تعالى وبين مسبّباتها في تدبير أمرها وتنظيم وجودها وبقائها. فكلّ سبب من الأسباب يشفع عند الله لمسبّبه بالتمسّك بصفات فضله وجوده لإيصال نعمة الوجود إلى مسبّبه، فنظام السببية بعينه ينطبق على نظام الشفاعة.

الآيات الدالّة على الشفاعة التكوينية

الآية الأولى: اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ مَنْ ذا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإذنِهِ...﴾ (البقرة: ٢٥٥).

ولكي تتّضح دلالة الآية؛ هل الشفاعة الواردة فيها هي التكوينية فقط أم الأعمّ من التكوينية والتشريعية، لابدّ من الوقوف على بعض المقاطع التي سبقت قوله تعالى: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإذنِهِ﴾.

«القيّوم» فيعول من (قام، يقوم) وهو وزن مبالغة، وأصله قيْوُوم، فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً وأُدغمتا، وهو وصف يدلّ على المبالغة، والقيام حفظ الشيء وفعله وتدبيره وتربيته والمراقبة عليه والقدرة عليه، كلّ ذلك مأخوذ من القيام بمعنى الانتصاب؛ للملازمة العادية بين الانتصاب وبين كلّ منها، وقد أثبت الله تعالى أصل القيام بأمور خلقه لنفسه في كلامه حيث قال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْس بِما كَسَبَتْ﴾ (الرعد: ٣٣). وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إلهَ إلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨) فأفاد أنه قائم على الموجودات بالعدل فلا يعطي ولا يمنع شيئاً في الوجود – وليس الوجود إلا الإعطاء والمنع – إلا بالعدل، بإعطاء كلّ شيء ما يستحقّه، ثم بيّن أن هذا القيام بالعدل مقتضى اسميه الكريمين: العزيز الحكيم، فبعزّته يقوم على كلّ شيء، وبحكمته يعدل فيه.

والحاصل: لمّا كان تعالى هو المبدأ الذي يبتدئ منه وجود كلّ شيء وأوصافه وآثاره، ولا مبدأ سواه إلا وهو ينتهي إليه، فهو القائم على كلّ شيء من كلّ جهة بحقيقة القيام الذي لا يشوبه فتور وخلل، وليس ذلك لغيره قطّ إلاّ بإذنه بوجه، فليس له تعالى إلا القيام من غير ضعف وفتور، وليس لغيره إلا أن يقوم به.

﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ مقرِّرة لمضمون جملة ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ولرفع احتمال المبالغة فيها. فالجملة منزّلة منزلة البيان لمعنى ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ولذلك فُصلت عن التي قبلها. والسنة (فعْلة) من الوسن وهو

أوّل النوم، والنوم هو الركود الذي يأخذ حواسّ الحيوان؛ لعوامل طبيعية تحدث في بدنه. ونفي استيلاء السنة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال الحياة ودوام التدبير، وإثبات لكمال العلم، فإن السنة والنوم يشبهان الموت، فحياة النائم في حالهما حياة ضعيفة وهما يعوقان عن التدبير وعن العلم بما يحصل في وقت استيلائهما على الإحساس.

وتقديم السِنة على النوم – مع أنه خلاف الترتيب الذي تقتضيه البلاغة لأن المقام مقام الترقيّ، والترقّي في الإثبات إنما هو من الأضعف إلى الأقوى كقولنا: فلان يقدر على حمل عشرة أمنان بل عشرين منّاً، وفي النفي بالعكس كما نقول: لا يقدر فلان على حمل عشرين بل ولا عشرة، فكان ينبغي أن يقال: لا تأخذه نوم ولا سنة – فهو لبيان هذه النكتة وهي: لما كان أخذ النوم أقوى تأثيراً وأضرّ على القيّومية من السِنة، كان مقتضى ذلك أن ينفى تأثير السنة وأخْذها أوّلاً، ثم يترقّى إلى نفي تأثير ما هو أقوى منها تأثيراً، ويعود معنى ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ إلى مثل قولنا: لا يؤثّر فيه هذا العامل الضعيف بالفتور في أمره ولا ما هو أقوى منه.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ تقرير لانفراده بالإلهية، إذ جميع الموجودات مخلوقاته، وتعليل لاتّصافه بالقيّوميّة، لأن من كانت جميع الموجودات مِلكاً له تعالى فهو حقيق بأن يكون قيّومها وألاّ يهملها، ولذلك فُصلت الجملة عن التي قبلها.

واللام للمِلك، والمراد من السموات والأرض استغراق أمكنة

الموجودات، فقد دلّت الجملة على عموم الموجودات بالموصول وصلته، وإذا ثبت ملكه للعموم ثبت أنه لا يشذّ عن مِلكه موجود، فحصل معنى الحصر.

إذن فقد تمّ بقوله: ﴿الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأرْضِ﴾ أن السلطان المطلق في الوجود لله سبحانه، لا تصرّف إلا وهو له ومنه. إذا كان الأمر على ذلك - وهو كذلك - فما هو إذن دور هذه الأسباب والعلل الموجودة في العالم وما شأنها؟ وكيف يتصوّر فيها ومنها التأثير ولا تأثير إلا لله سبحانه؟

فأجيب بقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإذْنِهِ﴾ أي إن تصرّف هذه العلل والأسباب في هذه الموجودات المعلولَة توسّط في التصرّف، وبعبارة أخرى: شفاعة في موارد المسبّبات بإذن الله سبحانه، فإنما هي شفعاء، والشفاعة - وهي بنحو توسّطٌ في إيصال الخير أو دفع الشرّ وتصرّفٌ ما من الشفيع في أمرٍ المستشفع - إنما تنافي السلطان الإلهي والتصرّف الربوبيّ المطلق إذا لم ينته إلى إذن الله ولم يعتمد على مشيئة الله تعالى، بل كانت مستقلّة غير مرتبطة. وما من سبب من الأسباب ولا علّة من العلل إلاّ وتأثيره بالله ونحو تصرّفه بإذن الله، فتأثيره وتصرّفه نحو من تأثيره وتصرّفه تعالى، فلا سلطان في الوجود إلا سلطانه ولا قيّوميّة إلا قيّوميّته المطلقة عزّ سلطانه.

وبهذا يتّضح أن الشفاعة في الآية أعمّ من الشفاعة التكوينية وهي توسّط الأسباب في التكوين، والشفاعة التشريعية التي سيأتي الكلام عنها لاحقاً، وذلك أن هذا المقطع من الآية مسبوق بحديث القيّوميّة

والمِلك المطلق الشاملين للتكوين والتشريع معاً، بل إن الحديث عن القيّومية والملك المطلق أكثر انسجاماً مع الشفاعة التكوينية. وعليه فلا موجب لتقييد القيّومية والسلطنة المستفادة من الملكية المطلقة بالأمور التشريعية، حتى يستقيم تذييل الكلام بالشفاعة التشريعية المخصوصة بيوم القيامة، وهي التوسّط في مرحلة المجازاة التي يثبتها الكتاب والسنّة في يوم القيامة.

الآية الثانية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إلاَّ مِن بَعْدِ إذنهِ ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٣) ومثله قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (السجدة: ٤).

ذكرت الآية في صدرها خلق السموات والأرض وحدّدت مدة الخلق والإيجاد بستّة أيام، ثم نصّت على سعة قدرة الله تعالى على جميع ما خلق وإحاطته بهم، وأنه بعدما خلق السماوات والأرض استوى على عرش القدرة وأخذ بتدبير العالم.

ثم عقّبت الآية بقوله تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إذنهِ﴾. والآية لمّا كانت في مقام وصف الربوبيّة والتدبير التكويني، فلابد أن يكون المراد من الشفاعة الشفاعة في أمر التكوين، وهي السببية التي توجد في الأسباب التكوينية التي هي وسائط بين الحوادث والكائنات وبينه تعالى كالنار المتخلّلة بينه وبين الحرارة التي يخلقها، فنفي

الشفاعة والسببية عن كلّ شيء إلاّ من بعد إذنه هو لإفادة التوحيد في الخالقية والتوحيد في التدبير والربوبيّة، فلا خالق إلاّ هو ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْء﴾ (الرعد: ١٦) كما لا مدبّر إلاّ هو ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحمد: ٢)، ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٥)، فما يتراءى في صفحة الوجود من الخلق والتدبير فليس على ظاهرهما، وإنما تقوم سائر العلل بالخلقة والتدبير مستمدّاً من حوله وقوّته، فيرجع معنى الآية إلى أنه لا مؤثّر في الكون إلاّ من بعد إذنه.

إذا اتّضح ما قلناه فلا يناسب حمل الشفاعة في الآية على الشفاعة التشريعية التي تدور حول التكاليف والتشريعات وعصيان العباد ومخالفتهم لها، ثم توسيط الشفعاء لغفران ذنوبهم وحطّ سيّئاتهم.

فهذه الآيات ونظائرها تثبت وجود شفاعة في نظام التكوين ووجود شفعاء مأذون لهم من قبل الله تبارك وتعالى أن يتوسّطوا بينه وبين غيره لنشر رحمته التي لا تنفد ونعمته التي لا تحصى إلى خلقه وصنعه.

المدبّرات أمراً

ولعلّ من أهمّ هذه الوسائط هم الملائكة الذين عبّر عنهم القرآن الكريم بقوله ﴿فَالمُدَبِّرات أَمْراً﴾ (النازعات: ٥) حيث جعلهم رسلاً أولي أجنحة ﴿الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ (فاطر: ١) الظاهر بإطلاقه في أنهم

خلقوا وشأنهم أن يتوسّطوا بينه تعالى وبين خلقه، ويرسَلوا لإنفاذ أمره، الذي يستفاد من قوله تعالى في صفتهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦- ٢٧) وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: ٥٠)، ولعلّ جعل الجناح لهم إشارة إلى ذلك.

«ولا ينافي هذا الذي ذُكر في توسّطهم بينه تعالى وبين الحوادث - أعني كونهم أسباباً تستند إليها الحوادث - استناد الحوادث إلى أسبابها القريبة المادّية، فإن السببية طولية لا عَرْضية، أي أن السبب القريب سبب للحادث، والسبب البعيد سبب للسبب، كما لا ينافي توسّطهم واستناد الحوادث إليهم استناد الحوادث إليه تعالى وكونه هو السبب الوحيد لها جميعاً، على ما يقتضيه توحيد الربوبيّة، فإن السببية طولية كما سمعت لا عَرْضية.

فمثل الأشياء في استنادها إلى أسبابها المترتّبة القريبة والبعيدة وانتهائها إلى الله سبحانه بوجه بعيد، كمثل الكتابة يكتبها الإنسان بيده وبالقلم، فللكتابة استناد إلى القلم ثم إلى اليد التي توسّلت إلى الكتابة بالقلم، وإلى الإنسان الذي توسل إليها باليد وبالقلم، والسبب بحقيقة معناه هو الإنسان المستقلّ بالسببية، من غير أن ينافي سببيّته استناد الكتابة بوجه إلى اليد وإلى القلم»[1].

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٢٠ ص ١٨٣.

كلام في الآيات النافية للشفاعة

دلّت جملة من الآيات على نفي الشفاعة، غير أن أكثرها إنما جاء في سياق نفي الشفاعة في نظام التكوين من دون الله، وهي الشفاعة التي حاول الوثنيّون والمشركون أن يثبتوها لشفعائهم.

فمنها: قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (يونس: ١٨).

ومنها: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِ الله لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِير * وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ...﴾ (سبأ: ٢٢ - ٢٣).

وليس المراد من الشفاعة في الآيتين شفاعة يوم القيامة (الشفاعة التشريعية) التي يثبتها القرآن الكريم كما سيتّضح، فإن عبدة الأصنام ما كانوا يقولون بالمعاد والدار الآخرة ﴿وَقَالُوا إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (الأنعام: ٢٩) بل الشفاعة في الدنيا ولأمورهم الدنيوية من جلب المنافع ودفع المضارّ والمخاوف عنهم؛ لذا فإنهم اعتقدوا بأن أربابهم شفعاء لهم من دون الله لا في رفع العقاب وإيصال الثواب في الآخرة، بل في إيصال الخير ودفع السوء والضرر، فإن مرضوا طلبوا من أصنامهم الشفاء، وإذا أرادوا خيراً قدّموا لأصنامهم أنواع القرابين لكي يجلبوا لهم -بزعمهم- الخير والنفع.

وقد استدلّ عبدة الأصنام لما هم عليه من عبادة الأصنام للتقرّب بعبادتها إلى أربابها وبأربابها إلى ربّ الأرباب وهو الله سبحانه بقولهم: «إننا على ما بنا من ألوان البشرية المادّية وقذارات الذنوب والآثام لا سبيل لنا إلى ربّ الأرباب؛ لطهارة ساحته وقدسها ولا شبه بيننا وبينه؛ فمن الواجب أن نتقرّب إليه بأحبّ خلائقه إليه وهم أرباب الأصنام الذين فوّض الله إليهم أمر تدبير خلقه (نظرية التفويض المعتزلي) ونتقرّب إليهم بأصنامهم وتماثيلهم، وإنما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند الله لتجلب إلينا الخير وتدفع عنّا الشرّ، فتقع العبادة للأصنام حقيقة والشفاعة لأربابها وربما نسبت إليها»[1].

غير أن خواصّ الوثنيّة قصروا العبادة على الأرباب من الملائكة وغيرهم واتّخذوا الأصنام قبلة وذريعة إلى التوجّه إلى أربابها، لكن لمّا طال الزمن تصوّر عامّتهم أن المعبود هو نفس هذه الأصنام لا الموجودات اللامحسوسة التي تشير إليها، فعبدوها وقدّموا لها القرابين وطلبوا الشفاعة منها لقضاء حوائجهم وجلب النفع ودفع الضرر.

وقد أصرّت الدعوات الإلهية من الأنبياء جميعاً أن تقف أمام الوثنيّة بكلّ أشكالها وصورها، وتقاومها وتدعو إلى التوحيد، كما ذكره الله في كتابه فيما قصّه من دعوة الأنبياء والرسل كنوح وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى عليهم السلام، وأشير إلى ذلك في قصص عيسى ولوط ويونس عليهم السلام.

وقد أُجمل القول في ذلك في قوله تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج١٠ ص ٣٠.

مِنْ رَسُول إلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إلـهَ إلاَّ أَنَـا فَاعْبُـدُونِ﴾ (الأنبيـاء: ٢٥). وهذا ما نجده واضحاً في دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين، حيث أجمل الله تعالى سيرته صلى الله عليه وآله التى أمره باتّخاذها والسير بها فـي المجتمع البشري في قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَـاب تَعَـالَوْا إلَـى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِـهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْـضاً أَرْبَابًـا مِـن دُونِ الله فَـإن تَوَلَّـوْا فَقُولُـوَاْ اشْـهَدُوا بِـأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

الإسلام والوثنيّة

والإسلام شديد العناية بحسم مادّة الوثنيّـة وتخليـة القلـوب عـن الخواطر الداعية إليها، وصـرف النفـوس حتـى عـن الحومـان حولهـا والإشراف عليها، وذلك مشهود مما ندب إليه مـن المعـارف الأصـلية والأخلاق الكريمة والأحكام الشرعية، فتراه يعدّ الاعتقاد الحـقّ أنـه لا إله إلاّ الله له الأسماء الحسنى، يملك كلّ شـيء، لـه الوجـود الأصـيل الذي يستقلّ بذاته وهو الغنيّ عن العـالمين، وكـلّ مـا هـو غيـره منـه يبتدئ وإليه يعود وإليه يفتقر في جميع شؤون ذاته حدوثاً وبقاءً، فمن أسند إلى شيء شيئاً من الاستقلال بالقياس إليـه تعـالى - لا بالقيـاس إلى غيره - في شيء من ذاته أو صفاته أو أعماله فهو مشرك بحسبه.

وتراه يأمر بالتوكّل على الله تعالى والثقة بالله والدخول تحت ولاية الله والحبّ في الله والبغض في الله وإخلاص العمـل لله، وينهـى عـن الاعتماد على غير الله والركون إلـى غيـره والاطمئنـان إلـى الأسـباب

الظاهرة ورجاء من دونه والعجب والكبر إلى غير ذلك مما يوجب إعطاء الاستقلال لغيره والشرك به، وتراه ينهى عن السجدة لغيره تعالى، وينهى عن اتّخاذ التماثيل ذوات الأظلال وعن تصوير ذوي الأرواح، وينهى عن طاعة غير الله والإصغاء إليه فيما يأمر وينهى إلاّ ما رجع إلى طاعة الله كطاعة الأنبياء وأئمة الدين، وينهى عن البدعة واتّباعها وعن اتّباع خطوات الشيطان.

من هنا ركّز القرآن على نفي الاستقلال في الذات والصفات عن كلّ شيء إلا الله سبحانه، فهو تعالى القيّوم على كلّ شيء، وركّز الأفهام في معرفة الألوهية بين التشبيه والتنزيه، فوصفه تعالى بأن له حياة لكن لا كحياتنا، وعلماً لا كعلمنا، وقدرة لا كقدرتنا، وسمعاً لا كسمعنا، وبصراً لا كبصرنا، وبالجملة ليس كمثله شيء وإنه أكبر من أن يوصف، وأمر الناس مع ذلك أن لا يقولوا في ذلك قولاً إلاّ عن علم ولا يركنوا إلى اعتقاد إلا عن حجية عقلية تهضمها عقولهم وأفهامهم.

وقد عرض القرآن هذه المعارف التوحيدية العالية في قالب البيان التمثيلي الذي يصلح لهضم الأفهام الساذجة والعقول العادّية فصارت تلامسها من وراء حجاب وتتناولها ملفوفة محفوفة، وهذا هو الذي يصلح به حال العامّة، وأما الخاصّة فإنهم ينالونها مسفرة مكشوفة في جمالها الرائع وحسنها البديع آمنين مطمئنين، وهم في زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وتطبيقاً لهذا المنهج نجد أن القرآن استدلّ على التوحيد في

الربوبيّة وإبطال دعوى الوثنيّة بقوله: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٢٩). وهو مَثَلٌ ضربه الله للمشرك الذي يعبد أرباباً وآلهة مختلفين فيشتركون فيه وهم متنازعون فيأمره هذا بما ينهاه عنه الآخر، وكلّ يريد أن يتفرّد فيه ويخصّه بخدمة نفسه، وللموحّد الذي خالص لمخدوم واحد لا يشاركه فيه غيره فيخدمه فيما يريد منه من غير تنازع يؤدي إلى الحيرة. فالمشرك هو الرجل الذي ﴿فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ﴾، والموحّد هو الرجل الذي هو سلم لرجل، لا يستويان، بل الذي هو سلم لرجل أحسن حالاً من صاحبه. وهذا بيان تمثيلي ممكن الفهم لعامّة الناس.

لكن القرآن لم يكتفِ بهذا البيان لنفي تعدّد الآلهة والأرباب من دون الله، وإنما بيّن هذه الحقيقة بياناً برهانياً في قوله تعالى: ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢)، حيث استدلّ على بطلان هذه الدعوى بأنه لو فرض للعالم آلهة وأرباب متعدّدون كربّ السماء وربّ الأرض وربّ الإنسان وهكذا وهم آلهة، والله سبحانه إله الآلهة وخالق الكلّ، لكانوا مختلفين ذاتاً متباينين حقيقة، وتباين حقائقهم يقضي بتباين تدبيرهم فتتفاسد هذه التدبيرات وتفسد السماء والأرض، لكن التالي باطل، لأن النظام الجاري نظام واحد متلائم الأجزاء في غاياتها، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ

إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (الملك: ٣ - ٤)، أي أن النظام الجاري في الكون نظام واحد متّصل الأجزاء مرتبط الأبعاض، إذن فليس للعالم آلهة وأرباب فوق الواحد، وهو المطلوب.

ويمكن تقرير هذه الحجة البرهانية ببيان فلسفي حاصله: «أنه لو فرض كثرة الأرباب المدبّرين لأمر العالم كما يقول به الوثنيّة، أدّى ذلك إلى المحال وهو فساد النظام. بيان ذلك: إن الكثرة لا تتحقّق إلا بالآحاد، ولا آحاد إلا مع تميّز البعض من البعض، ولا يتمّ تميّز إلا باشتمال كلّ واحد من آحاد الكثرة على جهة ذاتية يفقدها الواحد الآخر، فيغاير بذلك الآخر ويتمايزان، كلّ ذلك بالضرورة، والسنخية بين الفاعل وفعله تقضي بظهور المغايرة بين الفعلين حسب ما بين الفاعلين، فلو كان هناك أرباب متفرّقون، سواء اجتمعوا على فعل واحد أو كان لكلّ جهةٍ من جهات النظام العالمي العام ربّ مستقلّ في ربوبيّته كرب السماء والأرض وغيرهما، أدّى ذلك إلى فساد النظام والتدافع بين أجزائه، ووحدةُ النظام والتلازم المستمرّ بين أجزائه يدفعه»[1].

فإن قلت: يكفي في تحقّق الفساد ما نشاهده من تزاحم الأسباب والعلل في تأثيرها في المواد، فلا يرى فيه إلاّ نار يخمدها ماء، وماء تفنيه نار، وأرض يأكلها نبات، ونبات يأكله حيوان، ثم الحيوان يأكل بعضه بعضاً، ثم الأرض تأكل الجميع وهكذا.

---

(١) **نهاية الحكمة**، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي: ص ٢٨١ الفصل السادس من المرحلة الثانية عشرة.

قلنا: تفاسد العلّتين تحت تدبيرين، غير تفاسدهما تحت تدبير واحد؛ ليحدّد بعضه أثر بعض وينتج الحاصل من ذلك، وما يوجد من تزاحم العلل والأسباب الطبيعية في النظام المشهود هو من هذا القبيل، فإن هذه العلل الراسمة لهذا النظام العام على اختلافها وتمانعها وتزاحمها لا يبطل بعضها فعّالية وتأثير بعض، بمعنى أن ينتقض بعض القوانين الكلّية الحاكمة في النظام ببعض فيتخلّف عن مورده مع اجتماع الشرائط وارتفاع الموانع، فهذا هو المراد من إفساد مدبّر عمل مدبّر آخر، بل هذه الأشياء على ما بينها من الافتراس والانتهاش تتعاون في تحصيل الأغراض الإلهية، ويتسبب بعضها مع بعض للوصول إلى مقاصدها وغاياتها النوعيّة، فمثلها مثل القدّوم والخشب فإنهما مع تنازعهما يتعاونان في خدمة النجّار في صنعة الباب مثلاً، ومثل كفتي الميزان فإنهما في تعارضهما وتصارعهما يطيعان من بيده لسان الميزان لتقدير الوزن.

كذلك أبطل القرآن دعوى الوثنيّين من خلال تسليمهم أن خالق هذا العالم هو الله، فإن النزاع بينهم وبين الموحّدين لم يكن في أن واجب الوجود الموجود بذاته والموجد لغيره واحد لا شريك له، ولم يكن في أن الخالق هو الله وحده لا شريك له، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ (الزخرف: ٨٧) ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الزخرف: ٩) وإنما النزاع في الإله بمعنى الربّ والمعبود، فإنهم كانوا يدّعون أن الله أجلّ وأرفع ذاتاً من أن يحيط به عقولنا أو يناله أفهامنا، فلا يمكننا التوجّه إليه بعبادته ولا يسعنا التقرّب منه بعبوديته والخضوع له، والذي يسعنا هو

أن نتقرّب بالعبادة إلى بعض مخلوقاته الشريفة التي هي مؤثّرة في تدبير النظام العالمي حتى يقرّبونا منه ويشفعوا لنا عنده ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلَى اللهِ زُلْفى﴾ (الزمر: ٣).

وحدة الربوبية والتدبير في وحدة الخالقية

ويمكن تقريب الدليل الذي انطلق منه القرآن لإثبات وحدة الربوبيّة والتدبير من خلال توحيد الخالقية الذي يؤمن به الخصم من خلال وجهين:

الوجه الأول: الربوبية والتدبير مرجعهما إلى الخالقية

يتمثّل أساس الاستدلال في الوجه الأوّل: أن الربوبيّة والتدبير هما حقيقة مرجعهما إلى الخالقية، وأن الخالقية لها شؤون ومن شؤونها الربوبيّة والتدبير.

توضيحه: إن ربوبيّة العالم وتدبيره يعنيان نظم العالم نظماً متقناً يؤدي إلى إيصاله لكماله المطلوب وتحقّق الغرض المنشود والغاية المترتّبة من وجوده، والسؤال: هل توجد روابط بين أجزاء الكون وأشياء الوجود أم لا؟ الارتباط واضح جليّ يلمسه الإنسان بالوجدان، فالإنسان العادي يدرك أنه لولا الماء لما استطاع أن يعيش ولولا الغذاء لما دامت له الحياة، ولولا الجاذبية لما استطاع أن يستقرّ، وهكذا إلى ملايين الروابط الجلّية والخفيّة.

ومعنى التدبير هو إيجاد هذه العلائق والارتباطات بين أشياء الوجود ومكوّناته على نحو خاصّ لبلوغ غاية معيّنة. وحين يكون هذا

هو معنى التدبير، فكأنك قلت إن الله خلق الأشياء وروابطها بعضها مع بعض، وإنما التحليل العقلي هو الذي يقود إلى التجزئة لأغراض تمليها المعرفة. معنى ذلك أننا في الحقيقة - وخارج نطاق التجزئة العقلية لأسباب معرفية ودراسية - لسنا بإزاء وجودين؛ الأشياء وروابطها، بل الأشياءُ وروابطها شيء واحد.

ويمكن الاستعانة بمثال لتوضيح هذه الحقيقة: حين نقول عليٌّ أبيض، فنحن هنا إزاء شيئين هما عليٌّ والبياض، فالبياض قد يوجد وقد لا يوجد. ولكن حين نتحدّث عن عليّ الموجود الممكن، فلا نتحدّث عن عليّ وعن إمكان عارض عليه بحيث يكون عليٌّ شيئاً وإمكانه شيئاً آخر وعَرَضاً زائداً عليه كالبياض، بل هو نفسه، هكذا الحال بالنسبة لوجود هذه الأشياء التي يحفل بها عالم الإمكان وارتباطاتها، فهما شيء واحد.

لو أخذنا الإنسان مثالاً، فهو مخلوق على نحو مضطرّ فيه إلى هذه العلائق بينه وبين الأشياء كما هو عليه الحال في علاقته مع الهواء والماء والغذاء والضياء، بحيث لو فصلناه عن هذه الارتباطات لانتهى وجوده، وبذلك فإن هذه الارتباطات أُخذت في نحو وجود هذا الموجود، لا أن هذا الموجود شيء والارتباطات شيء آخر وراء وجوده، تماماً كالسمك الذي خلق بنحو له ارتباط مع الماء، فليس للسمك وجود ولارتباطه بالماء وجود آخر، بل هذا الوجود هو نحو وجود لا يمكنه أن يعيش إلاّ في الماء.

حين تكون هذه المقدّمات واضحة، ستكون المعادلة كما يلي:

الربوبيّة أو التدبير هو إيجاد الارتباط بين الأشياء، والارتباط مرجعه إلى نحو الوجود، وهذا أوجده الخالق، وحيث إن الخالق واحد لا شريك له، فالربّ والمدبّر أيضاً واحد لا شريك له، وهو المطلوب. ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الأرْض رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجاثية: ٣٦ - ٣٧).

ومن الواضح أن هذا البيان يثبت أن الربوبيّة ليست شيئاً وراء الخالقية، بل هي عينها، وهما شيء واحد أو هي شأن من شؤونها، وإن كنّا نفصل بينهما لأغراض الدراسة والبحث.

الوجه الثاني: الربوبية تستلزم الخالقية

ينطلق الوجه الثاني من أن مدبّر الأشياء لابدّ أن يكون واقفاً على أسرار وجودها، لكي يستطيع أن يوصلها من خلال تدبيره لها إلى كمالها اللائق وغايتها المنشودة، ومن دون علمه الكامل بها لا يستطيع المدبِّر أن يمارس دوره في التدبير وأن يسوق كلَّ شيء إلى كماله. ومن المعلوم جداً أن الأولى بالقيام بهذه المهمّة والنهوض بها على أتمّ وجه هو خالق الأشياء لا غيره، بل إن الغير لا يستطيع أن ينهض بهذا الدور بكفاءة الخالق لها. فالخالق يعرف الأشياء وخصائصها وكنهها وجميع ما تنطوي عليه، ومن ثم فهو المقدَّم على غيره في النهوض بأمر التدبير والربوبيّة، وما دام الخالق واحداً فالمدبّر والربّ واحد أيضاً.

والفارق بين الوجهين في تقرير الدليل هو: أن الوجه الثاني تمّ فيه التعامل مع الربوبيّة كشيء والخالقية كشيء آخر، لكن بالنحو الذي

تستلزم فيه الربوبيّة أن يكون الربّ خالقاً، بخلافه في الوجه الأول فقد كان يفيد بأن الربوبيّة مرجعها إلى الخالقية باعتبارها شأناً من شؤونها، بعكس الوجه الثاني الذي استلزمت فيه الربوبيّة الخالقية، بمعنى أن الذي يريد أن يكون ربّاً لابدّ أن يكون خالقاً.

شواهد قرآنية

وقد أشارت عدد من الآيات القرآنية إلى هذه الحقيقة، حيث جعلت التوحيد في الخالقية - بحسب اللغة المنطقية - حدّاً أوسط لإثبات التوحيد في الربوبيّة والتدبير:

• منها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله إنْ أَرَادَنِيَ الله بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ الله عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (الزمر: ٣٨).

أي: قل يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ وأنشأها وأوجدها؟ ﴿لَيَقُولُنَّ الله﴾ الفاعل والموجد لها، لأنهم لو أحالوا على غيره لبان كذبهم وافتراؤهم، فإذا كان الأمر كذلك فقل مفرّعاً على هذه المقدّمة المسلّمة عندهم (أن الله خالق كلّ شيء): أخبروني عمّا تدعون من دون الله. والتعبير عن آلهتهم بلفظه «ما» دون «مَن» ونحوه يفيد تعميم البيان للأصنام وأربابها جميعاً.

توضيح الاستدلال: لمّا كان ادعاء الوثنيّين أن النفع والضرر بيد هذه الأرباب المتفرقة التي عبدوها من دون الله لتجلب لهم النفع وتدفع عنهم السوء والضرر، أرادت الآية إبطال هذه الدعوى ببيان أن

النفع والضرر إنما هما بإرادته سبحانه، لذا قالت: قل لهم: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ والضرّ كالمرض والشدّة ونحوهما، وظاهر مقابلته الرحمة عمومه لكلّ مصيبة، وإضافة الضرّ والرحمة إليه تعالى في ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ و﴿مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ لحفظ النسبة، لأن المانع من كشف الضر وإمساك الرحمة هو نسبتهما إليه تعالى. وقوله ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللهُ﴾ أمر بالتوكّل عليه تعالى كما يدلّ عليه قوله بعده: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وهو موضوع موضع نتيجة الحجة كأنه قيل: قل لهم إني اتّخذت الله وكيلاً، لأن أمر تدبيري إليه كما أن أمر خلقي إليه، فهو في معنى قولنا: فقد دلّت الحجة على ربوبيّته وصدّقتُ ذلك عملاً باتّخاذه وكيلاً في أموري.

• ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (العنكبوت: ٦١و ٦٢). تذكر هذه الآيات وما بعدها مناقضات في آراء المشركين، فإنهم يعترفون أن خالق السماوات والأرض ومدبّر الشمس والقمر – وعليهما مدار الأرزاق – هو الله ثم يدعون غيره ليرزقهم.

• ومنها قوله ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان: ٢٥) إشارة إلى أنهم مفطورون على التوحيد معترفون به من حيث لا يشعرون، فإنهم إن سُئلوا عمّن خلق السماوات والأرض اعترفوا بأنه الله عزّ اسمه، وإذا

كان الخالق هو هو فالمدبّر لها هو هو، لأن التدبير لا ينفكّ عن الخلق، وإذا كان مدبّر الأمر والمنعم الذي يبسط ويقبض ويُرجى ويُخاف هو، فالمعبود هو هو وحده لا شريك له، فقد اعترفوا بالوحدة من حيث لا يعلمون.

ولذلك أمر الله تعالى نبيّه (صلى الله عليه وآله) أن يحمد الله على اعترافهم من حيث لا يشعرون فقال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ للهِ﴾ ثم أشار إلى أن أكثرهم لا يعلمون معنى اعترافهم أن الله هو الخالق وما يستلزمه فقال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾. نعم قليل منهم يعلمون ذلك ولكنهم لا يطاوعون الحقّ بل يجحدونه وقد أيقنوا به كما قال سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ﴾ (النمل: ١٤).

تمثيل قرآني

من الخصائص القرآنية أنه صبّ كثيراً من المعارف والحقائق في قالب الأمثال؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٢٧) والمثل هو الوصف الذي يمثّل الشيء في حاله، سواء كان وصفاً محقّقاً واقعاً أو مقدّراً متخيّلاً، وضرب المثل نصبُه ليتفكّر فيه كضرب الخيمة ليسكن فيها.

إلاّ أن هذه الأمثال المضروبة وإن كانت عامّة تقرع أسماع الجميع، لكن الإشراف على حقيقة معانيها والوقوف على لبّ مقاصدها خاصّةٌ لأهل العلم ممن يعقل حقائق الأمور ولا يجمد على ظواهرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إلاَّ الْعالِمُونَ﴾

(العنكبوت: ٤٣). وعلى هذا يختلف الناس في تلقّيهم لهذه الأمثال على حسب اختلاف أفهامهم، فمن سامع لا حظّ له منها إلا تلقّي ألفاظها وتصوّر مفاهيمها الساذجة من غير تعمّق فيها وسبر لأغوارها، ومن سامع يتلقّى بسمعه ما سمعه هؤلاء ثم يغور في مقاصدها العميقة ويعقل حقائقها.

في ضوء هذه الحقيقة نحاول الوقوف على مثلين ضربهما القرآن للشرك في الربوبيّة والتدبير:

• **المثل الأول:** قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج ٧٣ - ٧٤).

«يعلن في الآفاق على الناس جميعاً إعلاناً مدوّياً عامّاً، يعلن عن ضعف الآلهة المدّعاة، الآلهة التي يتّخذها الناس من دون الله. إنه النداء العام والنفير البعيد الصدى ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. فإذا تجمّع الناس على النداء أعلنوا أنهم أمام مثل عام يضرب لا حالة خاصّة ولا مناسبة حاضرة؛ ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا له﴾. هذا المثل يضع قاعدة ويقرّر حقيقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ﴾. كلّ من تدعون من دون الله من آلهة مدّعاة، من أصنام وأوثان ومن أشخاص وقيم وأوضاع، تستنصرون بها من دون الله وتستعينون بقوّتها وتطلبون النصر والجاه.. كلّهم ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ﴾. والذباب صغير حقير، لكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون

- ولو اجتمعوا وتساندوا - على خلق هذا الذباب الصغير الحقير!

وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل، لأن الذباب يحتوي على ذلك السرّ المعجز؛ سرّ الحياة، فيستوي في استحالة خلقه الجمل والفيل، ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظلّ الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل دون أن يخلّ هذا بالحقيقة في التعبير، وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب!

ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري؛ ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾: والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه، سواء كانت أصناماً أو أوثاناً أو أشخاصاً! ولو قال (وإن تسلبهم السباع شيئاً لا يستنقذوه منها) لأوحى ذلك بالقوّة بدل الضعف، والسباع لا تسلب شيئاً أعظم مما يسلبه الذباب، ولكنه الأسلوب القرآني العجيب!»[1].

ويختم ذلك المثل بهذا التعقيب ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ ومقتضى المقام أن يكون المراد بالطالب الآلهة وهي الأصنام المدعوّة، فإن المفروض أنهم يطلبون خلق الذباب فلا يقدرون، واستنقاذ ما سلبه إياهم فلا يقدرون، والمطلوب هو الذباب حيث يطلب ليخلق ويطلب ليستنقذ منه، وفي هذا المقطع بيان غاية ضعفهم، فإنهم أضعف من أضعف ما يستضعفه الناس من الحيوانات التي فيها شيء من الشعور والقدرة.

---

(١) **في ظلال القرآن**، سيد قطب: ج ٥ ص ٦٢٨ دار إحياء التراث العربي.

وفي أنسب الظروف والمشاعرُ تفيض بالزراية والاحتقار لـضعف الآلهة المدعاة يندّد بسوء تقديرهم لله، ويعرض قدرة وقـوّة الله الحـقّ الحقيق بأنه إله: ﴿ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .

«وقدره تعالى حقَّ القدر أن يُلتزم بما يقتضيه صفاته العليا ويعامَل كما يستحقّه بأن يُتّخذ ربّاً لا ربّ غيره ويُعبد وحـده لا معبـود سـواه، لكن المشركين ما قدروه حقّ قدره، إذ لم يتّخذوه ربّاً ولم يعبدوه بـل اتّخذوا الأصنام أرباباً وشفعاء من دونه وعبدوها دونه، وهم يرون أنها لا تقدر على خلق ذباب، ويمكن أن يستذلّها ذباب، فهي من الضعف والذلّة في نهايتهما، والله سبحانه هو القويّ العزيـز الـذي ينتهـي إليـه الخلق والأمر وهو القائم بالإيجاد والتدبير.

فقوله ﴿ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إشارة إلى عدم التزامهم بربوبيّتـه تعالى وإعراضهم عن عبادته ثـم اتّخـاذهم الأصـنام أربابـاً مـن دونـه يعبدونها خوفاً وطمعاً دونه تعالى. وقوله ﴿إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تعليـل للنفي السابق، وقد أطلق القوّة والعزّة فأفاد أنه قويّ لا يعرضه ضـعف وعزيز لا تعتريه ذلّة، كما قال ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعاً﴾ (البقرة: ١٦٥) وقال: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعـاً﴾ (النـساء: ١٣٩) وإنمـا خـصّ الاسـمين بالـذكر لمقابلتهما ما في المثل المضروب من صفة آلهتهم وهو الـضعف والذلّـة، فهؤلاء استهانوا أمر ربّهم إذ عدلوا بينه تعالى – وهو القويّ الذي يخلق ما يشاء والعزيز الذي لا يغلبه شـيء ولا يـستذلّه مـن سـواه – وبـين الأصنام والآلهة الذين يضعفون من خلق ذباب ويستذلّهم ذباب، ثم لم يرضوا بذلك حتى قدّموهم عليه تعـالى فاتّخـذوهم أربابـاً يعبـدونهم

دونه تعالى»[(١)].

• **المثل الثاني:** قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُون الله أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١).

توضيح الاستدلال: إن اتّخاذهم من دون الله أولياء وهم آلهتهم الذين يتولّونهم ويركنون إليهم، كاتّخاذ العنكبوت بيتاً هو أوهن البيوت، إذ ليس له من آثار البيت إلا اسمه لا يدفع حرّاً ولا برداً ولا يكنّ شخصاً ولا يقي من مكروه، كذلك ليس لولاية أوليائهم إلا الاسم فقط، لا ينفعون ولا يضرّون ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً﴾ (الفرقان: ٣).

ومورد المثل هو اتّخاذ المشركين آلهة من دون الله، فتبديل الآلهة من الأولياء لكون السبب الداعي لهم إلى اتّخاذ الآلهة زعمهم أن لهم ولاية لأمرهم وتدبيراً لشأنهم من جلب الخير إليهم ودفع الشرّ عنهم والشفاعة في حقّهم.

والآية مضافاً إلى إيفائها النكتة التي قدّمنا، تشير إلى حقيقة عامّة يغفل الناس عنها عادة «فيسوء تقديرهم لجميع القيم ويفسد تصوّرهم لجميع الارتباطات وتختلّ في أيديهم جميع الموازين، ولا يعرفون إلى أين يتوجّهون، ماذا يأخذون وماذا يدَعون؟ وعندئذ تخدعهم قوّة

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج١٤ ص ٤٠٩.

الحكم والسلطان يحسبونها القوّة القادرة التي تعمل في هذه الأرض، فيتوجّهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم ويخشونها ويفزعون منها ويترضونها ليكفّوا عن أنفسهم أذاها أو يضمنوا لأنفسهم رضاها وحماها! وتخدعهم قوّة المال، يحسبونها القوّة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة، ويتقدّمون إليها في رغب وفي رهب، ويسعون للحصول عليها ليستطيلوا بها ويتسلّطوا على الرقاب كما يحسبون! وتخدعهم قوّة العلم يحسبونها أصل القوّة وأصل المال وأصل سائر القوى التي يصول بها من يملكها ويجول، ويتقدّمون إليها خاشعين كأنّهم عبّاد في المحاريب! وتخدعهم هذه القوى الظاهرة، تخدعهم في أيدي الأفراد وفي أيدي الجماعات وفي أيدي الدول، فيدورون حولها ويتهافتون عليها، كما يدور الفراش في المصباح وكما يتهافت الفراش على النار! وينسون القوّة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة وتملكها وتمنحها وتوجّهها وتسخّرها كما تريد حيثما تريد، وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت في أيدي الأفراد أو الجماعات أو الدول، كالتجاء العنكبوت إلى بيت العنكبوت... حشرة ضعيفة رخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها الرخو ولا وقاية لها من بيتها الواهن. وليس هنالك إلا حماية الله وإلا حماه وإلا ركنه القوي الركين.

هذه الحقيقة الضخمة هي التي عنى القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها، وداست بها كبرياء الجبابرة في الأرض ودكّت بها المعاقل والحصون.

لقد استقرّت هذه الحقيقة الضخمة في كلّ نفس وعمرت كلّ قلب واختلطت بالدم وجرت معه في العروق، ولم تعد كلمةً تقال باللسان ولا قضية تحتاج إلى جدل، بل بديهة مستقرّة في النفس لا يجول غيرها في حسّ ولا خيال.

قوّة الله وحدها هي القوّة، وولاية الله وحدها هي الولاية، وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل، مهما علا واستطال ومهما تجبّر وطغى ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل. إنها العنكبوت، وما تملك من القوى ليست سوى خيوط العنكبوت ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .[1]

تلخيص

اتّضح مما تقدّم أن كثيراً من الآيات التي استدلّ بها بعض المفسّرين لنفي الشفاعة من خلالها إنما هي ناظرة إلى نفي الشفاعة في نظام التكوين التي كان يدّعيها الوثنيّون والمشركون على اختلاف مشاربهم، ولا علاقة لها بالشفاعة التشريعية التي أثبتها القرآن الكريم، فهي جميعاً على حدّ مضمون قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ الله قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (يونس: ١٨).

---

(١) في ظلال القرآن: ج٦ ص ٤١٠.

معالجة شبهة

قد يُظنّ أن ما ورد في الأدعية من الاستشفاع بالنبيّ وآله المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، ومسألته تعالى بحقّهم وزيارة قبورهم وتقبيلها والتبرّك بتربتهم وتعظيم آثارهم، من الشرك المنهي عنه وهو الشرك الوثنيّ، محتجّاً بأنّ في هذا النوع من التوجّه العبادي إعطاء تأثير ربوبيّ لغيره تعالى وهو شرك، وأصحاب الأوثان إنما أشركوا لقولهم في أوثانهم إن هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وقولهم إنما نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زلفى، ولا فرق في عبادة غير الله سبحانه بين أن يكون ذلك الغير نبيّاً أو وليّاً أو جبّاراً من الجبابرة أو غيرهم، فالجميع من الشرك المنهيّ عنه.

جوابها:

أولاً: إن ثبوت التأثير – سواء كان مادّياً أو غير مادّي – في غيره تعالى ضروريّ لا سبيل إلى إنكاره، وقد أسند تعالى في كلامه التأثير بجميع أنواعه إلى غيره. ومن أوضح مصاديق ذلك نسبة تدبير شؤون العالم الإمكاني للملائكة؛ قال تعالى: ﴿وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطاتِ نَشْطاً * وَالسَّابِحاتِ سَبْحاً * فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً * فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾ (النازعات: ١ ـ ٥). قال الرازي في ذيل قوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾: «إن كلّ حال من أحوال العالم السفلي مفوّض إلى تدبير واحد من الملائكة الذين هم العالم العلوي وسكّان بقاع السموات»[1].

---

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، للإمام فخر الدين الرازي الشافعي: ج ٣١

وقال الطباطبائي: «إن أظهر الصفات المذكورة في هذه الآيات الخمس في الانطباق على الملائكة قوله: ﴿فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً﴾ وقد أطلق التدبير ولم يقيّد بشيء دون شيء، فالمراد به التدبير العالمي بإطلاقه، فيكون مطلق التدبير شأن مطلق الملائكة... حيث جعلتهم وسائط بينه تعالى وبين الأشياء بدءاً وعوداً على ما يعطيه القرآن الكريم، بمعنى أنهم أسباب للحوادث فوق الأسباب المادّية في العالم المشهود قبل حلول الموت والانتقال إلى نشأة الآخرة وبعده.

أما في العود أعني حال ظهور آيات الموت وقبض الروح وإجراء السؤال وثواب القبر وعذابه وإماتة الكلّ بنفخ الصور وإحيائهم بذلك والحشر وإعطاء الكتاب ووضع الموازين والحساب والسوْق إلى الجنة والنار، فوساطتهم فيها غنيّ عن البيان، والآيات الدالّة على ذلك كثيرة لا حاجة إلى إيرادها، والأخبار المأثورة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام فوق حدّ الإحصاء، وكذا وساطتهم في مرحلة التشريع من النزول بالوحي ودفع الشياطين عن المداخلة فيه وتسديد النبيّ وتأييد المؤمنين وتطهيرهم بالاستغفار.

أما وساطتهم في تدبير الأمور في هذه النشأة فيدلّ عليها ما في مفتتح هذه السورة وما هو شبيهها كما في مفتتح سورة الصافات: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفّاً * فَالزَّاجِراتِ زَجْراً * فَالتَّالِياتِ ذِكْراً﴾ (الصافّات: ١ ـ ٣) وكذلك آيات مفتتح سورة المرسلات: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً *

ص ٢٨ منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً * وَالنَّاشِراتِ نَشْراً * فَالْفارِقاتِ فَرْقاً * فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً * عُذراً أَوْ نُذراً﴾ (المرسلات: ١ ـ ٦).

نعم المنفيّ من التأثير عن غيره تعالى هو الاستقلال في التأثير، ولا كلام لأحد فيه. وأما نفي مطلق التأثير، ففيه إنكار بديهة العقل والخروج عن الفطرة الإنسانية، لأنه يستلزم إبطال قانون العلّية والمعلولية العام الذي هو الركن في جميع أدلّة التوحيد.

وعلى هذا فالاستشفاع بأهل الشفاعة الذين ذكرهم الله في مثل قوله ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦) أو السؤال من الله تعالى بجاههم والقسم عليه بحقّهم الذي جعله لهم عليه بمثل قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧١ - ١٧٣). أو تعظيمهم وإظهار حبهم بزيارة قبورهم وتقبيلها والتبرّك بتربتهم بما أنهم آيات الله وشعائره تمسّكاً بمثل قوله تعالى: ﴿ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ الله فَإنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوب﴾ (الحج: ٣٢) وقوله: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ (الشورى: ٢٣) وغير ذلك من كتاب وسنّة، فإنه في جميع ذلك نبتغي بهم الوسيلة إلى الله، وقد قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥) بجعلهم – بما شرّع من حبّهم وتعزيرهم وتعظيمهم – وسائل إليه، ولا معنى لإيجاب حبّ شيء وتعظيمه وتحريم آثار ذلك، فلا مانع من التقرّب إلى الله بحبّهم وتعظيم أمرهم وما لذلك من الآثار إذا كان على وجه التوسّل والاستشفاع، من غير أن

يعطوا استقلال التأثير والعبادة قط.

قال الآلوسي في تفسيره: «وبعد هذا كلّه أنا لا أرى بأساً في التوسّل إلى الله تعالى بجاه النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم عند الله تعالى حيّاً وميّتاً، ويُراد من الجاه معنىً يرجع إلى صفة من صفاته مثل أن يراد به المحبّة التامّة المستدعية عدم ردّه وقبول شفاعته، فيكون معنى قول القائل: إلهي أتوسّل بجاه نبيّك صلى الله عليه [وآله] وسلم أن تقضي لي حاجتي: إلهي اجعل محبّتك له وسيلة في قضاء حاجتي، ولا فرق بين هذا وقولك: إلهي أتوسّل برحمتك أن تفعل كذا، إذ معناه أيضاً: اجعل رحمتك وسيلة في فعل كذا، بل لا أرى بأساً أيضاً بالإقسام على الله تعالى بجاهه صلى الله عليه [وآله] وسلم.

ثم إن التوسّل بجاه غير النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم لا بأس به أيضاً إن كان المتوسّل بجاهه مما علم أن له جاهاً عند الله كالمقطوع بصلاحه وولايته، وأما من لا قطع في حقّه بذلك فلا يتوسّل بجاهه؛ لما فيه من الحكم الضمنيّ على الله تعالى بما لا يعلم تحقّقه منه عزّ شأنه»(1).

ويمكن تأييد ذلك بالرواية التي رواها الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح عن عثمان بن حنيف رضى الله تعالى عنه: أن رجلاً

(1) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، للعلامة شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي: ج٦ ص ١٨٧ المجلد الرابع، بإشراف هيئة البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، قرأه وصحّحه: محمد حسين العرب.

ضرير البصر أتى النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم فقال: ادعُ الله تعالى أن يعافيني، فقال: «**إن شئتَ دعوت وإن شئتَ صبرت فهو خيرٌ لك**» قال: فادعُه، فأمره أن يتوضّأ فيحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء: «**اللهم إني أسألك وأتوجّه بنبيك صلى الله عليه وسلم نبيّ الرحمة، يا رسول الله إني توجّهت بك إلى ربّي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفّعه فيّ**» ونقل عن أحمد مثل ذلك.[1]

ثانياً: هناك فرق بين أن يعبد غير الله رجاء أن يشفع عند الله أو يقرّب إلى الله، وبين أن يعبد الله وحده مع الاستشفاع والتقرّب بهم إليه، ففي الصورة الأولى إعطاء الاستقلال وإخلاص العبادة لغيره تعالى وهو الشرك في العبودية، وفي الصورة الثانية يتمحّض الاستقلال لله تعالى وتختصّ العبادة به وحده لا شريك له. وإنما ذمّ الله تعالى المشركين؛ لقولهم: ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلَى اللهِ زُلْفَى﴾ حيث أعطوهم الاستقلال وقصدوهم بالعبادة دون الله سبحانه، ولو قالوا: إنما نعبد الله وحده ونرجو مع ذلك أن يشفع لنا ملائكته أو رسله وأولياؤه بإذنه، أو نتوسّل إلى الله بتعظيم شعائره وحبّ أوليائه لما كفروا بذلك، بل عادت شركاؤهم كمثل الكعبة في الإسلام هي وجهة وليست بمعبودة وإنما يعبد الله بالتوجّه إليها.

وليت شعري ماذا يقول هؤلاء في الحجر الأسود وما شرع في الإسلام من استلامه وتقبيله وكذا في الكعبة، فهل ذلك كلّه من الشرك

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: المجلد ٤، ج ٦ ص ١٨٤.

المستثنى من حكم الحرمة؟ فالحكم حكم ضروريّ عقليّ لا يقبل تخصّصاً ولا استثناءً، أم ذلك من عبادة الله محضاً وللحجر حكم الطريق والجهة، وحينئذ فما الفرق بينه وبين غيره إذا لم يكن تعظيمه على وجه إعطاء الاستقلال وتمحيض العبادة، ومطلقات تعظيم شعائر الله وتعزير النبيّ صلى الله عليه وآله، وحبّه ومودّته وحبّ أهل بيته ومودّتهم وغير ذلك في محلّها.

إلى هنا اتّضح أن إعطاء الاستقلال لأي شيء في قبال الله واعتقاد أنه يملك لنفسه أو غيره نفعاً أو ضراً أو موتاً أو حياة أو نشوراً إخراج له عن كونه آية وإدخال له في حظيرة الألوهية، وهو شرك بالله العظيم.

(٢)
الشفاعة في مجال التشريع

أنزل الله سبحانه على الإنسان بلطفه وفضله الشرائع ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً﴾ (المائدة: ٤٨)، ﴿ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ١٨) وأرسل إليه الأنبياء والرسل ليبيّنوا أوامر الله ونواهيه؛ قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٦٥) وقال: ﴿وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأنعام: ٤٨) حتى إذا ائتمر بتلك الأوامر وانتهى عن تلك النواهي وصل إلى كماله اللائق به الذي خلقه الله لأجله ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر: ٩٩) فإذا تحقّق بالعبودية واتّبع النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وصل إلى الغاية المنشودة له. ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١).

غير أن الإنسان لكي يصل إلى رضوان الله تعالى ينبغي أن يسلك الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصديقين

والشهداء والصالحين، ولا يتحقّق ذلك إلا من خلال طرق ثلاثة وهي الخوف والرجاء والحبّ؛ قال تعالى: ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد: ٢٠). دلّت الآيةَ أنَ حقيقة الدنيا هي متاع الغرور كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، فعليه أن لا يجعلها غاية لأعماله في الحياة، وأن يعلم أن له وراءها داراً وهي الدار الآخرة فيها ينال غاية أعماله، وهي عذاب شديد للسيّئات يجب أن يخافه ويخاف الله فيه، ومغفرة من الله قبال أعماله الصالحة يجب أن يرجوها ويرجو الله فيها، ورضوان من الله يجب أن يقدّمه على رضا نفسه.

وطباع الناس مختلفة في إيثار هذه الطرق الثلاثة واختيارها:

• فبعضهم – وهو الغالب – يغلب على نفسه الخوف، وكلّما فكّر فيما أوعد الله الظالمين والذين ارتكبوا المعاصي والذنوب من أنواع العذاب الذي أُعدّ لهم زاد في نفسه خوفاً ولفرائصه ارتعاداً، ويساق بذلك إلى عبادته تعالى خوفاً من عذابه.

• وبعضهم يغلب على نفسه الرجاء، وكلّما فكّر فيما عدّه الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعمة والكرامة وحسن العاقبة، زاد رجاءً وبالغ في التقوى والتزام الأعمال الصالحات طمعاً في المغفرة والجنّة.

وإليهما الإشارة في قوله تعالى: ﴿تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (السجدة: ١٦).

• وطائفة ثالثة وهم العلماء بالله لا يعبدون الله خوفاً من عقابه ولا

طمعاً في ثوابه وإنما يعبدونه لأنه أهل للعبادة؛ ذلك لأنهم عرفوه بما يليق به من الأسماء الحسنى والصفات العليا، فعلموا أنه ربّهم الذي يملكهم وإرادتهم ورضاهم وكلّ شيء غيرهم، يدبّر الأمر وحده وليسوا إلاّ عباد الله فحسب، وليس للعبد إلاّ أن يعبد ربّه، ويقدّم مرضاته وإرادته على مرضاته وإرادته، فهم يعبدون الله ولا يريدون في شيء من أعمالهم - فعلاً أو تركاً - إلا وجهه، ولا يلتفتون فيها إلى عقاب يخوّفهم ولا إلى ثواب يرجّيهم، وإن خافوا عذابه ورجوا رحمته.

وقد أشارت عدة من الروايات إلى هذه الطرق الثلاثة:

منها: عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «**العبّاد ثلاثة، قوم عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله حبّاً فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة**»[1].

ومنها: ما عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال: «**إن الناس يعبدون الله عزّ وجلّ على ثلاثة أوجه، فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه فَرَقاً من النار فتلك عبادة العبيد وهي رهبة، ولكنّي أعبده حبّاً له عزّ وجلّ فتلك عبادة الكرام وهو الأمن؛ لقوله عزّ وجلّ:** ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ (النمل: ٨٩) **ولقوله عزّ وجلّ:** ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

---

(١) **الأصول من الكافي**، محمد بن يعقوب الكليني، ج ٢ ص ٨٤ كتاب الإيمان والكفر، باب العبادة.

ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١) **فمن أحبّ الله عزّ وجلّ أحبّه الله، ومن أحبّه الله كان من الآمنين»**[١].

ومنها: ما عن الإمام عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام قال: **«إني أكره أن أعبد الله ولا غرض لي إلاّ ثوابه، فأكون كالعبد الطمع المطمع، إنْ طمع عمل وإلاّ لم يعمل، وأكره أن لا أعبده إلاّ لخوف عقابه، فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل،** قيل: فلِمَ تعبده؟ قال: **لما هو أهله بأياديه عليّ وإنعامه»**[٢].

ومنها: ما عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام، حيث عبّرت الرواية بالقول «شكراً» بدل «حبّاً»؛ قال: **«إن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار»**[٣].

فتلخّص مما تقدّم أن الإنسان بعد أن خلقه الله تفضّل عليه بإنزال الشرائع التي فيها هدايته التي تقوده نحو الكمال اللائق به؛ ﴿الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ (طه: ٥٠)، وأن الإنسان يسلك طريق تكامله وفق إحدى الطرق الثلاثة المتقدّمة.

غير أن مسألة اتّباع الشريعة الإلهية أو عدمه لم تتركها الشريعة من دون أن تجعل ثواباً لمن اتّبع الشريعة وأطاع أوامرها، وعقاباً لمن

---

(١) **تسنيم**، تفسير القرآن الكريم، المفسّر الحكيم آية الله جوادي آملي: ج١ ص ٤٥١ (بالفارسية).

(٢) **تسنيم**: ج١ ص ٤٥١.

(٣) **نهج البلاغة**، **الحكمة**، رقم: ٢٣٧.

تنكّب طريقتها وارتكب نواهيها، وقد بُيّن هذا كلّه في الكتب السماوية وعلى لسان رسله حتى انتهى الأمر إلى القرآن الكريم وسنّة النبيّ وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام.

عن أبي حمزة الثمالي عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: «خطب رسول الله صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع فقال: «**يا أيها الناس والله ما من شيء يقرّبكم من الجنّة ويباعدكم من النار إلاّ وقد أمرتكم به، وما من شيء يقرّبكم من النار ويباعدكم من الجنّة إلاّ وقد نهيتكم عنه**»[1].

وما نعنيه بالشفاعة في مجال التشريع (الشفاعة التشريعية) هو أنه بعد أن اتّضحت الأوامر والنواهي وبيّن الثواب والعقاب، فهل هناك مجال لأن يرفع تبعات العقاب الذي يستحقّه من ارتكب ما نُهي عنه أو امتنع عمّا أمر به، أو أن تزاد درجات الثواب لمن أدّى ما عليه وأطاع ما أُمر به أم لا؟

• فهل يوجد ما يدلّ على وجود مثل هذه الشفاعة أصلاً؟

• ثمّ ما هي حقيقة فعل الشفيع الذي يرفع به ذنب المذنب أو يزيد به درجة المحسن؟ فهنا بحثان:

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص ٧٤، كتاب الإيمان والكفر، باب الطاعة والتقوى.

المبحث الأول: إثبات الشفاعة التشريعية

دلّت طائفة من الآيات على ثبوت هذا النحو من الشفاعة:

منها قوله تعالى: ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (الشعراء: ١٠٠- ١٠١).

هذا الكلام تحسُّرٌ منهم على حرمانهم من شفاعة الشافعين وإغاثة الأصدقاء، وفي التعبير بقوله: ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ﴾ إشارة إلى وجود شافعين هناك يشفعون لبعض المذنبين، ولولا ذلك لكان من حقّ الكلام أن يقال: فما لنا من شافع إذ لا نكتة تقتضي الجمع، وقد روي أنهم يقولون ذلك لما يرون الملائكة والأنبياء والمؤمنين يشفعون.

ومنها قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٣).

عندما يشاهد أصحاب النار أنهم صفر الأيدي من الخير، هالكون بفساد أعمالهم، يسألون أحد أمرين يصلح به ما فسد من أمرهم، إما شفعاء ينجونهم من الهلاك الذي أطلّ عليهم، أو أن يردّوا إلى الدنيا فيعملوا صالحاً غير الذي كانوا يعملونه من السيّئات. وفي قوله: ﴿فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا﴾ دلالة على أن هناك شفعاء يشفعون للناس

إذ قال: ﴿من شفعاء﴾ ولم يقل: من شفيع فيشفع لنا. وقوله: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في موقع التعليل لما حكي عنهم من سؤال أحد أمرين: إما الشفعاء وإما الردّ إلى الدنيا. كأنه قيل: لماذا يسألون هذا الذي يسألون؟ فقيل: ﴿قد خسروا أنفسهم﴾ فيما بدّلوا من دينهم لهواً ولعباً، واختاروا الجحود على التسليم، وقد زالت عنهم الافتراءات المضلّة التي كانت تحجبهم عن ذلك في الدنيا، فبان لهم أنهم في حاجة إلى من يصلح لهم أعمالهم إما أنفسهم أو غيرهم ممن يشفع لهم.

ومنها قوله: ﴿كُلُّ نَفْس بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إلاَّ أَصْحابَ الْيَمِين * فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ *قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ * فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر: ٣٨ ـ ٤٨).

يمكن تقريب الاستدلال بقوله ﴿ فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ من وجهين:

الأول: أنها تنفي الانتفاع عن طائفة خاصّة من المجرمين لا عن جميعهم؛ قال الرازي في تفسيره: «احتجّ أصحابنا على ثبوت الشفاعة للفسّاق بمفهوم هذه الآية، وقالوا: إن تخصيص هؤلاء بأنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين يدلّ على أن غيرهم تنفعهم شفاعة الشفاعين»[1].

الثاني: إن الشفاعة في الآية مضافة لا مجرّدة مقطوعة عن الإضافة،

---

(١) **التفسير الكبير:** ج ٣ ص ١٨٦.

ومن الواضح أن هناك فرقاً «بين أن يقول القائل: فلا تنفعهم الشفاعة وبين أن يقول: فلا تنفعهم شفاعة الشافعين، فإن المصدر المضاف يُشعر بوقوع الفعل في الخارج بخلاف المقطوع عن الإضافة، نصّ عليه الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في دلائل الاعجاز. فقوله تعالى: ﴿شَفَاعَةُ الشَّافِعِين﴾ يدلّ على أن شفاعة ما ستقع، غير أن هؤلاء لا ينتفعون بها. على أن الاتيان بصيغة الجمع في ﴿الشافعين﴾ يدلّ على ذلك أيضاً كقوله: ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرين﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرين﴾ وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوين﴾ وقوله: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِين﴾ وأمثال ذلك، ولولا ذلك لكان الإتيان بصيغة الجمع - وله مدلول زائد على مدلول المفرد - لغواً زائداً في الكلام»[١].

آيات الشفاعة التشريعية صنفان

إلا أن القرآن الكريم ذكر تارة أن هذه الشفاعة مختصّة بالله تعالى، وأخرى أثبتها لغيره أيضاً لكن تحت شرائط خاصّة. من هنا يقع الحديث في هذين الصنفين من الآيات:

- صنف من الآيات أثبت الشفاعة إلا أنها مختصّة بالله تعالى.
- وصنف أثبتها لغيره تعالى أيضاً لكن تحت شرائط خاصّة.

الصنف الأول: الشفاعة مختصة بالله تعالى

قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِّهِمْ لَيْسَ

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١ ص ١٦٧.

لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ٥١).

وقال: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ الله وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (الأنعام: ٧٠).

وقال: ﴿قُلْ لله الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الزمر: ٤٤).

الولاية والوليّ هو الذي يملك تدبير أمر الشيء كما أشار إليه الراغب في المفردات. ومن المعلوم أن أمورنا والشؤون التي تقوم بها حياتنا، قائمة بالوجود، محكومة مدبّرة للنظام الحاكم، في الأشياء عامة وما يخصّ بنا من نظام خاصّ. والنظام أيّاً ما كان، من لوازم خصوصيات خلْق الأشياء. والخلْقة كيفما كانت، مستندة إليه تعالى: ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الزمر: ٦٢) فهو تعالى وليّنا القائم بأمرنا المدبّر لشؤوننا وأمورنا، كما هو وليّ كلّ شيء كذلك وحده لا شريك له.

والشفيع على ما تقدّم في سابق الأبحاث، هو الذي ينضمّ إلى سبب ناقص فيتمّم سببيّته وتأثيره، والشفاعة تتميم السبب الناقص في تأثيره، وإذا طبّقناها على الأسباب والمسبّبات الخارجية (الشفاعة التكوينية) كانت أجزاء الأسباب المركّبة وشرائطها بعضها شفيعاً لبعض لتتميم حصة من الأثر منسوبة إليه، كما أن كلاً من السحاب والمطر والشمس والظلّ وغيرها شفيع للنبات. وإذ كان موجد الأسباب

وأجزائها والرابط بينها وبين المسبّبات هو الله سبحانه، فهو الشفيع بالحقيقة الذي يتمّم نقصها ويقيم صُلبها، فالله سبحانه هو الشفيع بالحقيقة لا شفيع غيره.

وببيان آخر أدقّ سيأتي توضيحه في الأبحاث اللاحقة: إن أسماء الله الحسنى وسائط بينه وبين خلقه في إيصال الفيض إليهم، ولازم ذلك أن جهات الخلقة وخصوصيات الوجود التي في الأشياء ترتبط إلى ذاته المتعالية من طريق صفاته الكريمة. فالعلم والقدرة والرزق والنعمة التي عندنا بالترتيب. فجهلنا يرتفع بعلمه، وعجزنا بقدرته، وذلّتنا بعزّته، وفقرنا بغناه، وذنوبنا بعفوه ومغفرته.

وعلى هذا، فما من شيء من المخلوقات المركّبة الوجود إلا ويتوسّط لوجوده عدة من الأسماء الحسنى بعضها فوق بعض وبعضها في عرْض بعض. وكلّ ما هو أخصّ منها يتوسّط بين الشيء وبين الأعمّ منها، كما أن الشافي يتوسّط بين المريض وبين الرؤوف الرحيم، والرحيم يتوسّط بينه وبين القدير في الشفاعة التكوينية وكما تتوسّط الرحمة والمغفرة بينه وبين عبده المذنب لإنجائه من وبال الذنب وتخليصه من العذاب في الشفاعة التشريعية.

والتوسّط المذكور في الحقيقة تتميم لتأثير السبب فيه، وإن شئت فقل هو تقريب للشيء من السبب لفعلية تأثيره، وينتج منه أنه تعالى شفيع ببعض أسمائه عند بعض، فهو الشفيع ليس من دونه شفيع في الحقيقة. وهذا معناه أن الشفيع حقيقة هو الله سبحانه كما دلّ عليه قوله ﴿قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾ (الزمر: ٤٤)

وغيره من الشفعاء لهم الشفاعة بإذن منه، كما سيأتي بيانه.

بما تقدّم اتّضح أن لا محذور في إطلاق الشفيع عليه تعالى بمعنى كونه شفيعاً بنفسه عند نفسه، وحقيقته توسّط صفة من صفاته الكريمة بين الشيء وصفة من صفاته، كما يستعاذ من سخطه إلى رحمته ومن عدله إلى فضله، وأما كونه شفيعاً بمعنى شفاعته لشيء عند غيره فهو مما لا يجوز بوجه من الوجوه.

الصنف الثاني: ثبوت الشفاعة لغيره تعالى

يصرّح هذا الصنف من الآيات بوجود شفيع غير الله سبحانه، وأن شفاعته تُقبل عند الله تعالى في إطار خاصّ وشرائط معيّنة في الشفيع والمشفوع له، وهي وإن لم تتضمّن أسماء الشفعاء أو أصناف المشفوع لهم، غير أنها تحدّد كلاً منهما بمواصفات خاصّة يأتي البحث عنها في الفصول اللاحقة، أما الآيات التي تحدثت عن ذلك:

منها قوله تعالى: ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ (مريم: ٨٧).

الضمير في قوله ﴿لا يَمْلِكُونَ﴾ يرجع إلى الآلهة التي كانت تُعبد، وإليه أشير في قوله سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزاً * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾ (مريم: ٨١ ـ ٨٢) فتكون الآية جواباً عن اتّخاذهم هذه الآلهة للشفاعة، وهو أن ليس كلّ من يهوى الإنسان شفاعته فاتّخذه إلهاً ليشفع له يكون شفيعاً، بل إنه يملك الشفاعة بعهد من الله، ولا عهد إلاّ لآحاد من مقرّبي حضرته، كما سيأتي.

ومنها قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طه: ١٠٩).

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ يدلّ على أن العناية في الكلام متعلّقة بنفي الشفعاء لا بتأثير الشفاعة في المشفوع له.

قال الزمخشري في تفسيره: «قوله (مَن) يصلح أن يكون مرفوعاً ومنصوباً، فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف، أي لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له»(١).

والمراد بـ «الإذن» الإذن في الكلام للشفاعة كما يبيّنه قوله بعده ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ فإن التكلّم يومئذ منوط بإذنه تعالى؛ قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاَّ بِإذنهِ﴾ (هود: ١٠٥) وقال: ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ (النبأ: ٣٨). وسيأتي توضيح الحال في شرائط الشافع.

ومنها قوله: ﴿يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٨).

والمراد من قوله «ارتضى» أي ارتضاء دينه؛ لقوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ (النساء: ٤٨). قال الآلوسي في تفسيره: «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى الله تعالى أن يشفع

---

(١) **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، وهو تفسير القرآن الكريم، للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري: ج ٣ ص ٨٩ الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان.

له، وهو كما أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي وابن أبي حاتم عن ابن عباس: (من قال لا إله إلاّ الله) وشفاعتهم الاستغفار، وهي كما في الصحيح تكون في الدنيا والآخرة، ولا متمسك للمعتزلة في الآية على أن الشفاعة لا تكون لأصحاب الكبائر، فإنها لا تدلّ على أكثر من أن لا يشفعوا لمن لا ترتضى الشفاعة له، مع أن عدم شفاعة الملائكة لا تدلّ على عدم شفاعة غيرهم»[1].

ومنها قوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى﴾ (النجم: ٢٦).

الآية مسوقة لنفي أن يملك الملائكة من أنفسهم الشفاعة مستغنين في ذلك عن الله سبحانه كما يروم إليه عبدة الأصنام، فإن الأمر مطلقاً إلى الله تعالى فإنما يشفع من يشفع منهم بعد إذنه تعالى له في الشفاعة ورضاه بها.

فإن قيل: لمَ قال: ﴿لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ﴾ ولم يقل (لا يشفعون) مع أن دعوى عبدة الأصنام أن هؤلاء شفعاؤنا، لا أن شفاعتهم تنفع أو تغني.

قلنا: إنهم كانوا يقولون إن هؤلاء شفعاؤنا وكانوا يعتقدون نفع شفاعتهم، كما قال تعالى: ﴿لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾ (الزمر: ٣) ولولا نفع شفاعتهم لما كانت مقرّبة، لذا قالت الآية ﴿لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ﴾ أي أن شفاعة الملائكة لا تغني شيئاً فضلاً عن غيرهم الذين هم في مرتبة أدنى وأضعف من الملائكة. هذا مضافاً إلى أنه لو كان التعبير (لا

---

(١) **روح المعاني**: ج ١٧ ص ٤٩ المجلد العاشر.

يشفعون) لما كان الاستثناء ﴿إلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ﴾ دالاًّ على أن الشفاعة تُقبل أو تغني أو لا تقبل؟ بخلافه ما لو قال: ﴿لا تُغْني شَفاعَتُهُمْ﴾ ثم قال: ﴿إلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ﴾ فيكون معناه: (تغني وتحصل البشارة) لأنه تعالى قال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (غافر: ٧) والاستغفار شفاعة.

ومنها قوله: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦).

قال الطباطبائي في الميزان: «السياق سياق العموم، فالمراد بـ ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي يعبدونهم من دونه، كلّ معبود غيره تعالى من الملائكة والجن والبشر وغيرهم، والمراد بـ ﴿الحقّ﴾ الحقّ الذي هو التوحيد، والشهادة به الاعتراف به، وإذا كان حال الشفعاء أنهم لا يملكونها إلاّ بعد الشهادة بالحق، فما هم بشافعين إلا لأهل التوحيد كما قال: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ والآية مصرّحة بوجود الشفاعة في الجملة»[(١)].

والحاصل أن هذه الآيات تثبت:

- وجود شفعاء يوم القيامة يشفعون تحت شرائط خاصّة وإن لم تصرّح بأسمائهم وسائر خصوصياتهم.
- أن شفاعتهم مشروطة بإذنه تعالى.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١٨ ص ١٢٧.

التعارض بين الصنفين

اتّضح مما سبق أن الآيات القرآنية تبيّن – من جهة – اختصاص الشفاعة بالله عزّ اسمه كما في الصنف الأول، لكنها من جهة أخرى تعمّمها لغيره تعالى بإذنه ورضاه كما في الصنف الثاني. من هنا يطرح هذا التساؤل: كيف يمكن الجمع بين هذين الصنفين من الآيات. والحقيقة أن هذا التساؤل لا يختصّ بالشفاعة بل له مصاديق أخرى. فمن جهة يتحدّث القرآن عن نسبة عدد كبير من الأفعال إلى الله سبحانه على نحو الحصر، وفي الوقت ذاته ينسب الأفعال ذاتها إلى مخلوقاته ملائكة وجنّاً وإنساً. والأمثلة على ذلك كثيرة نقف عند بعضها:

• **الإماتة وقبض الأرواح**: يعدّ القرآن في بعض آياته الإماتة وقبض الروح فعلاً لله تعالى، ويصرّح بأن الله هو الذي يتوفّى الأنفس حين موتها؛ إذ يقول: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرى إلى أَجَلٍ مُسَمّىً إنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٢) بينما نجده في موضع آخر ينسب التوفّي إلى غيره؛ يقول: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة: ١١) ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام: ٦١).

• **العلم بالغيب**: يعتبر القرآن العلم بالغيب منحصراً في الله تعالى حيث يقول: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ

فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (يونس: ٢٠) ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النمل: ٦٥). فيما يخبر في آيات أخرى أن الله يختار بعض عباده لإطلاعهم على الغيب؛ قال تعالى: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ (الجن: ٢٦ – ٢٧) ﴿ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَما كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٩).

• **الرزق**: أثبت القرآن الكريم أن الرازق الوحيد هو الله سبحانه حيث قال: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٨) بينما نجده يأمر ذوي الطول بأن يرزقوا من يلوذ بهم من الضعفاء إذ يقول: ﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ (النساء: ٥) ويقول: ﴿قُلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (الجمعة: ١١).

• **الزرع**: يقول القرآن إن الزارع الحقيقي هو الله سبحانه ﴿أَفَرَأَيْتُمْ ماتَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (الواقعة: ٦٣ – ٦٤) فيما نجد في آية أخرى يطلق صفة الزارع على غيره تعالى: ﴿ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَاللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (الفتح: ٢٩).

• **كتابة أعمال العباد**: يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طاعَةٌ فَإذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ (النساء: ٨١) بينما في آية أخرى يعتبر الملائكة مأمورين بكتابة أعمال العباد: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ (الزخرف: ٨٠).

• **تزيين عمل الكافر**: نسب القرآن تزيين عمل الكافرين إلى الله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ (النمل: ٤)، وكذلك ينسبه إلى الشيطان تارة؛ إذ يقول: ﴿وَإِذ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٨) وإلى آخرين أخرى حيث قال: ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ﴾ (فصّلت: ٢٥).

• **الخلق**: ففيما يسجّل القرآن بصراحة لا لبس فيها: ﴿اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الرعد: ١٦) تراه يعود لنسبة الخلق إلى آخرين كما في قوله: ﴿فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤) الذي يفيد تعدّد الخالقين أو قوله على لسان عيسى عليه السلام: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ﴾ (آل عمران: ٤٩).

• **الغنى**: بعد أن أثبت القرآن في آيات كثيرة أن الله هو الغني الحميد ﴿يا أَيُّهَا النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

(فاطر: ١٥) عاد يسند الغنى والإغناء إلى رسوله محمد صلى الله عليه وآله أيضاً كما في قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إلاّ أنْ أغْنَاهُمُ اللهُ وَرسُولُهُ مِنْ فَضْلِه﴾ (التوبة: ٧٤).

• **الولاية**: أثبت القرآن حصراً أن الله هو الوليّ: ﴿أمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونهِ أَوْلِياءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيي الْمَوْتى وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: ٩) ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (الشورى: ٤٤) إلا أنه أثبت في مواضع أخر ولاية الرسول والذين آمنوا: ﴿إنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥).

• **العزّة والقوّة**: الأمر بحذافيره يتكرّر في العزّة والقوّة، فبعد أن نصّ القرآن في موضوع العزّة بقوله: ﴿فَإنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعاً﴾ (النساء: ١٣٩)، عاد يقول: ﴿وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنينَ﴾ (المنافقون: ٨). وبعد أن حصر القوّة بالله وحده: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعاً﴾ (البقرة: ١٦٥) عاد يسجّل ﴿يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ ﴾ (مريم: ١٢) وقوله: ﴿خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ (البقرة: ٦٣) وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠) وقوله: ﴿قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ (النمل: ٣٩).

• **التدبير**: وربما كان أوضح الأمثلة جميعاً هو المثال الذي يرتبط بتدبير العالم، حيث نجد أن القرآن من جهة يثبت التدبير لله حصراً لقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ

الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ الله فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٣١) وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٣) وقوله: ﴿الله الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد: ٢) وقوله: ﴿الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٤ – ٥).

ولكن من جهة أخرى ينسب التدبير إلى الملائكة أيضاً فيقول: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ (النازعات: ٥) حيث أثبت لهم التدبير مطلقاً في هذا العالم كما مرّ بيانه.

والسؤال: كيف ينسجم منطق القرآن بين إثبات التدبير لله حصراً بوصف ذلك شأناً من شؤون الربوبيّة وبين ما يتحدّث عنه صراحة من وساطة الملائكة في التدبير؟

على أن المسألة لا تقتصر على هذه الآيات وحدها في نسبة نحو من التصرّف والتدبير في هذا العالم إلى الملائكة والجنّ والأنبياء والصالحين وغيرهم، بل تتعدّاها إلى آيات آخر.

معالجة التعارض

حفل الفكر الإسلامي على مستوى البحث العقيدي والقرآني بالعديد من الوجوه لمعالجة التعارض البادي بين هاتين المجموعتين من الآيات، بيد أننا نحاول هنا الوقوف على معالجتين فقط في هذا المجال:

المعالجة الأولى: وهي التي اعتمدها جملة من أعلام المفسّرين، حيث ذهبوا إلى أن مقتضى التوحيد الأفعالي (المراد به هو المعرفة بأن كلّ ما يقع في العالم من العلل والمعلولات والأسباب والمسبّبات والنظامات العادية وما فوقها، يقع بإرادته في حدوثه وبقائه وتأثيره، فكلّ شيء قائم به وهو القيّوم المطلق، ولا حول ولا قوّة ولا تأثير إلاّ به وبإذنه)[1] أنه لا مؤثّر في عالم الكون إلا الله سبحانه أي أنه لا يوجد مؤثّر مستقلّ سواه، وأن تأثير سائر العلل والوسائط إنما هو على وجه التبعية لإرادته ومشيّته. والاعتراف بمثل هذه العلل التابعة لا ينافي انحصار التأثير الاستقلالي في الله تعالى.

وهذا هو الأسلوب الذي اعتمده القرآن الكريم في جملة من الآيات لمعالجة هذه المسألة، حيث ينفي كلّ كمال عن غيره تعالى ويحصره به سبحانه، ثم يثبته لغيره بإذنه ومشيّته، فتفيد أن الموجودات غيره تعالى لا تملك ما تملك من هذه الكمالات بنفسها واستقلالها، وإنما تملكها بتمليك الله إياها. ولعلّ هذا معنى ما ورد عن علي أمير

---

(١) ينظر في تفصيل ذلك: **التوحيد، بحوث في مراتبه ومعطياته**: السيد كمال الحيدري، تقرير: جواد علي كسار، دار الأضواء، بيروت - لبنان، ج ٢ ص ٩.

المؤمنين عليه السلام عندما سأله عباية بن ربعي عن معنى الاستطاعة قال: «**تملكها بالله الذي يملكها من دونك، فإن ملّككها كان ذلك من عطائه، وإن سلبكها كان ذلك من بلائه، وهو المالك لما ملّكك والقادر على ما عليه أقدرك**»(١).

قال الرازي في ذيل قوله ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾: فإن قلت: إذا كان الأمر كلّه لله فكيف أثبت لهم (الملائكة) ههنا تدبير الأمر؟ قلت: لما كان ذلك الإتيان به كان الأمر كأنه له»(٢). وقال الطباطبائي: «فهو تعالى الفاعل المستقلّ في مبدئيته على الإطلاق والقائم بذاته في إيجاده وعلّيته وهو المؤثّر بحقيقة معنى الكلمة، لا مؤثّر في الوجود إلاّ هو، ليس لغيره من الاستقلال الذي هو ملاك العلّية والإيجاد إلاّ الاستقلال النسبي»(٣).

وفي ضوء هذه الحقيقة يمكن معالجة الصنفين المتقدّمين من الآيات في الشفاعة التشريعية، فإنها إذا كانت عبارة عن جريان الفيض الإلهي على عباده لتطهيرهم من الذنوب وتخليصهم عن شوائب المعاصي، فهي فعل مختصّ بالله سبحانه لا يقدر عليه أحد إلا بإقداره وإذنه، وبذلك تصحّ نسبتها إلى الله سبحانه بالأصالة وإلى غيره بالتبعية،

---

(١) **تحف العقول عن آل الرسول**، الشيخ الثقة ابن شعبة الحرّاني: ص ٢١٣، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم - إيران.

(٢) **التفسير الكبير**: ج ٣١ ص ٢٧.

(٣) **نهاية الحكمة**، العلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي: ص ١٧٦، مؤسسة النشر الإسلامي.

ولا منافاة بين النسبتين.

قال الطبرسي في «مجمع البيان» في ذيل قوله تعالى: ﴿قُلْ لله الشَّفاعَةُ جَمِيعاً﴾ : أي «لا يشفع أحد إلا بإذنه، عن مجاهد. والمعنى: لا يملك أحد الشفاعة إلاّ بتمليكه كما قال: ﴿مَنْ ذا الّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاّ بإذنه﴾[1]. وقال الطباطبائي في الميزان: «الآيات المثبتة للشفاعة تثبتها لله سبحانه بنحو الأصالة، ولغيره بإذنه وتمليكه. فالشفاعة ثابتة لغيره تعالى بإذنه وارتضائه»[2].

المعالجة الثانية: تنطلق هذه المعالجة من رؤية قائمة على أساس أن كلّ من نسب إليه الخلق والتدبير والغنى والقوّة والإحياء والإماتة ونحو ذلك إنما هي مظاهر وتجلّيات وآيات لخالقية الله وتدبيره وآمريته وولايته سبحانه.

هذه المعالجة ترفض بصراحة أن يكون لهذه الموجودات ولاية أو عزّة أو قوّة أو إحياء أو إماتة في عرْض ولاية الله وعزّته وإحيائه وإماتته، لأن هذا من الشرك الجليّ، فإذا فرضنا أن الولاية ولايتان: ولاية الله وولاية غير الله وأن إحداهما في عرْض الأخرى، فهذا من الشرك الجليّ الذي ثبت بطلانه عقلاً ونقلاً في مباحث التوحيد الأفعالي.

---

(١) **مجمع البيان في تفسير القرآن**، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي: ج ٥ ص ١٦٠، الجزء الثالث والعشرون والرابع والعشرون، منشورات دار مكتبة الحياة.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ١٥٧.

كما ترفض هذه المعالجة أن تكون هذه الولاية وضروب التصرّف الأخرى، في طول ولاية الله على النحو الذي تنتهي ولاية الله سبحانه عند حدّ معيّن لتبدأ ولاية المخلوق، أو تنتهي عزّته عزّ وجلّ عند دائرة معيّنة لتبدأ عزّة المخلوق، أو تنتهي قوّته لتبدأ قوّة المخلوق وهكذا، لأن هذا النمط من التفكير والفهم والاعتقاد يرجع إلى الشرك الخفيّ وإلى افتراض محدودية الله جلّ جلاله، وهو أمر نرفضه جملة وتفصيلاً، وركّزنا على بطلانه وعدم صحّته في الكثير من المباحث التي طرحت في كتاب «التوحيد»[1] حيث قلنا هناك إن الله سبحانه ليس له حدّ ينتهي عنده وإلا لكانت وحدته مقهورة لا قاهرة، مع أن صريح القرآن أن وحدته قاهرة: ﴿وَمَا مِنْ إِلهٍ إلاَّ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (ص: ٦٥) ﴿أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف: ٣٩). وهذا ما أكّده إمام الموحّدين عليّ عليه السلام في مواضع من خطبه: **«من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله»**[2]، **«فالحدّ لخلقه مضروب وإلى غيره منسوب»**[3]، **«لا يشمل بحدّ ولا يحسب بعدّ»**[4].

إذن فهذه المعالجة ترفض أن تكون هذه الأمور - من تدبير وتصرّف ونحوهما - في طول تدبير الله وتصرّفه، فضلاً عن أن تكون

---

(١) **التوحيد، بحوث في مراتبه ومعطياته**: ج ١ ص ٧٢.

(٢) **نهج البلاغة**: الخطبة: ٥٢.

(٣) **نهج البلاغة**: الخطبة: ١٦٣.

(٤) **نهج البلاغة**: الخطبة: ١٨٦.

في عرضهما. أجل، إذا كان هناك نحو من الخالقية والولاية والعزّة والقدرة والحاكمية وما شابه ذلك، فهو بنحو الظهور والتجلّي، أو هو - استناداً للتعبير القرآني على تسامح في الصياغة - بنحو الآيتية، المشتقّة من قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣).

ولكي تتّضح هذه الفكرة نستعين بمثال يكثر استعماله في كلمات أهل المعرفة، استلهموه من استدلالات أهل البيت عليهم السلام كما سيتّضح، ومنه نفذ إلى الحكمة المتعالية والفلسفة الصدرائية، نعني به مثال الصورة التي تنعكس في المرآة، ففي مثال الصورة المرآتية التي تعكس صاحبها من الواضح أن الصورة التي في المرآة غير صاحبها وهي ليست عينه، لكنها في الوقت ذاته هي آية وعلامة دالّة على صاحبها وليست شيئاً بإزاء صاحب الصورة. بمثال آخر: إذا وضعت ناراً أمام المرآة فستبدو الصورة المرآتية وكأنها جامعة لكلّ الخصائص الموجودة للنار الحقيقية، لكن من دون أن يكون هناك شيء بداخل المرآة، بل هي تعكس النار الخارجية وحسب، لا أن في داخل المرآة ناراً أخرى أيضاً.

هذا هو في الحقيقة الفارق بين السراب ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ (النور: ٣٩) وبين الآية، فإن السراب خيالٌ ووهم لا واقع له، بعكس الآية فإنها حقيقة، لكن لا في نفسها وإنما هي تعكس حقيقة أخرى ثابتة لله سبحانه. فالسراب كاذب بيد أن الآية صادقة في كلّ ما تحكيه عن خصائص ذي الآية. وهذا هو معنى الآية والتجلّي

بحسب الاستعمال القرآني: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسى صَعِقاً﴾ (الأعراف: ١٤٣).

تبقى هناك إشارة لها مغزاها، فمثال المرآة وكيف تعكس قدرة الله جلّ جلاله أو عظمته وعلمه ونحو ذلك، استعمله الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في ذلك اللقاء الفكري السجالي الشهير الذي عقده المأمون العباسي (ت: ٢١٨هـ) ودعا إليه أبرز رموز الحِجاج الكلامي في عصره وكبار القيادات الفكرية عند النصارى واليهود والصابئة والزرادشتية وبعض الشخصيات العلمية الرومية، حيث انطلق الحوار فيه ساخناً قويّاً بين الحاضرين، وكان محوره الإمام الرضا عليه السلام الذي طفق يجيب عن أسئلة الحاضرين واستفهاماتهم وما استخدموه من جدل وصناعة كلامية.

إلى أن بلغ الحوار إلى عمران الصابئي الذي كان يوصَف بقوّة الجدل وأنه لم يقطعه عن حجّته أحد قط، بل كان يتحدى الآخرين بقوله: «لقد دخلت الكوفة والبصرة والشام والجزيرة ولقيت المتكلّمين فلم أقع على أحد يثبت لي واحداً ليس غيره قائماً بوحدانية»[(١)]، وواضح ما يشي به هذا النص من قوّة التحدّي في أسّ أسس المنظومة الدينية بل الإيمانية متمثّلاً بوحدانية الله، خاصّة إن البلدان التي أشار إليها كانت تمثّل في عصره أمّهات حواضر العلم وأبرز المراكز العلمية في العالم الإسلامي. على هذه الخلفية دام الحوار طويلاً بين الإمام عليه السلام وعمران، ثم انتهى إلى إعلان عمران لإسلامه بين يدي

---

(١) **التوحيد**، للشيخ الجليل الصدوق: ص ٤٣٠، دار المعرفة بيروت – لبنان.

الإمام علي بن موسى الرضا.

كان من بين ما وقف الحوار عنده سؤال عمران للإمام الرضا: ألا تخبرني يا سيدي أهو (الله) في الخلق أم الخلق فيه؟ قال الرضا عليه السلام: «**جلّ يا عمران عن ذلك، ليس هو في الخلق ولا الخلق فيه تعالى عن ذلك، وسأعلّمك ما تعرفه به ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله. أخبرني عن المرآة أنت فيها أم هي فيك؟! فإن كان ليس واحد منكما فى صاحبه فبأيّ شيء استدللت بها على نفسك؟ ولهذا أمثال كثيرة غير هذا لا يجد الجاهل فيها مقالاً، ولله المثل الأعلى**»[1].

يتبيّن مما مرّ بأن أفعال الخلق والإحياء والإماتة والتوفّي والشفاعة وغير ذلك مما ينسبه القرآن الكريم إلى الله تعالى ويحصره به، ثم يعود لنسبتها إلى مخلوقات أخرى، إنما هو على نحو الصورة المرآتية، فهذه المخلوقات حيث ينسب إليها الخلق فإنما يكون بما هي مظهر لخالقية الله جلّ جلاله وتجلّ لها وبما هي آية لخالقيته سبحانه ولولايته ولعزّته ولشفاعته ولقوّته ونحو ذلك. فكلّ ما تملكه هذه المخلوقات وتمام ما يوجد لديها إنما هو إراءة لما هو موجود لله سبحانه، فالمالك والقادر هو الله، وما عند الإنسان وبقيّة الموجودات فهو من عنده: «**فهو المالك لما ملّكك والقادر على ما عليه أقدرك**».

مما سلف ننتهي إلى واحدة من أهمّ الحقائق القرآنية والسنن

---

(١) **التوحيد**، للشيخ الصدوق: ص ٤٣٤، ينظر الحوار بأكمله وما دار فيه، في: التوحيد، باب ٦٥، ذكر مجلس الرضا علي بن موسى مع أهل الأديان وأصحاب المقالات: ص ٤١٧ – ٤٤١.

الإلهية ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ سُنَّةَ الأوَّلِينَ فَلَنْ تَجدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً ولَنْ تَجدَ لِسُنَّةِ الله تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: ٤٣) وهي أنَ الله جلّ جلاله ينجز الأَفعال بنحوين:

• إما مباشرة وبلا توسّط شيء، أي من خلال قوله فقط: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

• وإما بتوسيط بعض مخلوقاته. فالله سبحانه هو الشافي لكن من خلال الطبيب، وهو الرافع للجوع والعطش لكن من خلال الطعام والماء، وهكذا هذا هو دور الأسباب والوسائط في نظام عالم الإمكان، والأسباب والوسائط تؤدّي دورها بإذن الله، لكن لا على النحو الذي تكون فيه في عرْض إرادة الله أو في طولها، بل على نحو الظهور والآية والتجلّي، كذلك الحال في شفاعة أنبيائه ورسله وملائكته والصالحين من عباده، فإنهم جميعاً مظاهر لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا.(١)

---

(١) يمكن مراجعة المعالجة الثانية تفصيلاً في كتاب: **التوحيد.. بحوث في مراتبه ومعطياته**، تقريراً لدروس السيد كمال الحيدري: ج ٢ ص ٣٨١ و ٣٨٨، حوار جواد علي كسار.

المبحث الثاني: حقيقة فعل الشفيع

قبل عرض النظريات التي ذُكرت في تفسير حقيقة فعل الشفيع لابدّ من الوقوف عند مقدّمة أساسية نستوضح من خلالها فهم تلك النظريات، مفادها:

حين العودة إلى القرآن الكريم نلمس بوضوح أنه ما من كمال وجوديّ إلاّ وينسبه لله سبحانه: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعاً﴾ (البقرة: ١٦٥) ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعاً﴾ (النساء: ١٣٩) ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاَّ بِما شاءَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إلهَ إلاَّ هُوَ﴾ (غافر: ٦٥) وهذا هو مقتضى التوحيد الأفعالي.

من هنا نصّ القرآن بصراحة أن الله تعالى واجد لجميع الأسماء الحسنى: ﴿اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ (طه: ٨) ﴿وَلله الأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٠) ﴿لَهُ الأسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾ (الحشر: ٢٤).

«والاسم بحسب اللغة ما يُدلّ به على الشيء سواءً أفاد مع ذلك معنىً وصفياً كاللفظ الذي يشار به إلى الشيء لدلالته على معنىً موجود فيه أو لم يفد إلاّ الإشارة إلى الذات كزيد وعمرو وخاصّة المرتجل من الأعلام. وتوصيف الأسماء بـ «الحسنى» وهي مؤنث

(أحسن) يدلّ على أن المراد بها الأسماء التي فيها معنىً وصفيّ دون ما لا دلالة لها إلا على الذات المتعالية فقط لو كان بين أسمائه تعالى ما هو كذلك. ولا كلُّ معنىً وصفيٍّ بل المعنى الوصفيّ الذي فيه شيء من الحسن، ولا كلّ معنىً وصفيٍّ حسنٍ بل ما كان أحسن بالنسبة إلى غيره إذا اعتبر مع الذات المتعالية. فالشجاع والعفيف من الأسماء الحسنة لكنهما لا يليقان بساحة قدسه لإنبائهما عن خصوصية جسمانية لا يمكن سلبهما عنهما، ولو أمكن السلب لم يكن مانع من إطلاقهما عليه كالجواد والعدل والرحيم.

وذلك لأن الأسماء بأجمعها محصول لغاتنا لم نضعها إلا لمصاديقها فينا التي لا تخلو عن شوب الحاجة والنقص، غير أن منها ما لا يمكن سلب جهات النقص والحاجة عنها كالجسم واللون والمقدار وغيرها، ومنها ما يمكن فيه ذلك كالعلم والحياة والقدرة، فالعلم فينا الإحاطة بالشيء من طريق أخذ صورته من الخارج بوسائل مادّية، والقدرة فينا المنشئية للفعل بكيفية مادّية موجودة لعضلاتنا، والحياة كوننا بحيث نعلم ونقدر بما لنا من وسائل العلم والقدرة، فهذه لا تليق بساحة قدسه.

غير أنا إذا جرّدنا معانيها عن خصوصيات المادّة عاد العلم هو الإحاطة بالشيء بحضوره عنده، والقدرة هي المنشئية للشيء بإيجاده، والحياة كون الشيء بحيث يعلم ويقدر، وهذه لا مانع من إطلاقها عليه لأنها معان كمالية خالية عن جهات النقص والحاجة، وقد دلّ العقل والنقل أن كلّ صفة كمالية فهي له تعالى وهو المفيض لها على غيره

من غير مثال سابق، فهو تعالى عالم قادر حيّ، لكن لا كعلمنا وقدرتنا وحياتنا، بل بما يليق بساحة قدسه من حقيقة هذه المعاني الكمالية مجرّدة عن النقائص.

إذن فكون اسم من أسمائه تعالى أحسن الأسماء هو أن يدلّ على معنىً كمالي غير مخالط لنقص أو عدم، مخالطة لا يمكن معها تحرير المعنى من ذلك النقص والعدم وتصفيته، وذلك في كلّ ما يستلزم حاجة أو عدماً وفقداً كالأجسام والجسمانيات والأفعال المستقبحة أو المستشنعة والمعاني العدمية.

الاسم بين اللفظ والعين

عندما يجري الحديث عن أسماء الله الحسنى وأنها هي الوسائط بين الذات وبين مصنوعاتها، فالمراد هي الأسماء العينية الخارجية، أي الذات الإلهية مأخوذة بوصف من أوصافها، وذلك لأن التأثير الحقيقي إنما يدور مدار وجود الأشياء في قوّته وضعفه، والمسانخة بين المؤثّر والمتأثّر يستلزم ذلك. وليس المقصود هي الأسماء اللفظية، لأنها إذا اعتبرت من جهة ألفاظها كانت مجموعة أصوات مسموعة من الكيفيات العرضية، وإذا اعتبرت من جهة معناها المتصوّر كانت صوراً ذهنية لا أثر لها من حيث نفسها في شيء.

من هنا درج المحقّقون من أهل المعرفة على استخدام اصطلاح «الاسم» للإشارة إلى الوجود العيني الخارجي و«اسم الاسم» للفظ الذي يحكي الاسم الخارجي. على سبيل المثال: إن لفظ (العالِم) من أسماء

الله سبحانه هو اسم للاسم الخارجي الذي هو الذات الإلهية مأخوذة بحيثية العلم، وهكذا بقية الأسماء.

وبناءً على هذه الحقيقة فإن الإنسان عندما يدعو ربّه بقوله: اللهم إني أسألك باسمك» فلا يقصد بذلك لفظ الاسم، بل هو يسأل بالواقع الخارجي الكائن وراءه؛ بمعنى أن السؤال يتمّ بواقع الجمال وبواقع الكرم وبواقع الرأفة والرحمة التي تتّسم به الذات الإلهية، وليس بألفاظ الجمال والكرم والجود والرأفة والرحمة، والذي يحقّق الإجابة ليس الألفاظ من جهة أنها أصوات أو مفاهيم ومعان، بل الحقيقة الكائنة وراءها. فمثلاً عندما ينادي الإنسان: يا شافي، يا غافر، فما يريده بهذا النداء ليس الاسم اللفظي ولا معناه الماثل في الصورة الذهنية، بل يعني به الاسم العيني، وإلا فلا خصوصية للفظ في نفسه ولا لصورته الذهنية مطلقاً.

تأسيساً على ذلك فإن كلّ ما يصدر من الله سبحانه من أفعال، فهو مرتبط بأسمائه العينية الخارجية لا ألفاظها أو مفاهيمها، فمثلاً إذا صدر عنه فعل الإحياء فذلك لأن من أسمائه «المحيي» وإذا صدر منه فعل الإماتة فباعتبار أن من أسمائه «المميت»، وإذا ما وجدنا أن الله يهب ويعطي ويرزق فلأنه الجواد الكريم الرازق الواهب المعطي، وإذا ما هدى أحداً من الناس فباعتبار أنه الهادي، هكذا إلى بقية الأفعال.

إذن كلّ فعل عندما يصدر من الله جلّ جلاله لما يتعلّق بخلق عالم الإمكان وتدبيره، إنما يرتبط باسم من أسمائه الحسنى العينية، ويكون تحت قيمومة ذلك الاسم. وهذا معنى ما ذكره أهل التحقيق في هذا

المجال من «أن جهات الخلقة وخصوصيات الوجود التي في الأشياء ترتبط إلى ذاته المتعالية من طريق صفاته الكريمة، وإننا ننتسب إليه تعالى بواسطة أسمائه»[١].

وهذا ما يفسّر لنا الذوق العبوديّ السليم والفطرة الصافية، فإن الإنسان إذا ما رام الغنى من ربّه لا يقول: يا قابض أغنني، إنما يسأل الله ويدعوه بأسمائه: الغنيّ، الباسط، المعطي وهكذا، والمريض الذي يتّجه إليه لشفاء مرضه لا يقول: يا مميت يا منتقم يا ذا البطش اشفني، وإنما يقول: يا شافي يا معافي يا رؤوف يا رحيم ارحمني واشفني؛ لأن الإنسان يدرك بفطرته السليمه أنه إذا ما أراد الشفاء من ربّه، فإن الشفاء لا يصدر إلا من اسمه الشافي، وإذا أراد المغفرة والعفو فإنهما لا يصدران إلا من أسمائه الغفور العفوّ الرحيم، هكذا إلى بقية ما يصدر من أفعال في عالم الإمكان.

على أن الأمر يبدو طبيعياً جدّاً يلمسه الإنسان في شؤون معاشه وممارسته اليومية وتجربته في الحياة. فحينما يتّجه المريض إلى رجل متخصّص بالطب والهندسة فإنه يرجع إليه في وجه حاجته إليه وهي الشفاء طالباً منه أن يوظّف حيثيته التي ترتبط بالشفاء لا تلك الحيثية التي ترتبط بالبُعد الهندسي واختصاصه بعلم الهندسة، على هذا قامت سنن الحياة الإنسانية، وهي ما تزال تواصل مجراها في هذا المسار.

هذا المعنى الذي يفيد استمداد الحاجة من اسم الله سبحانه الذي يتّسق مع الحاجة ذاتها ويتسانخ معها على النحو الذي يكون الفعل

---

(١) **الميزان في تفسير القران**: ج ٨ ص٣٥٣.

راجعاً إلى ذلك الاسم ومرتبطاً به، يؤكّده القرآن في صيَغه التعبيرية والأدائية، فالملاحظ في الصيغة التي تتألف منها آيات القرآن أنها تختم في الأعمّ الأغلب باسم أو اسمين، في دالّة تفيد أن مضمون تلك الآية إنما يتحقّق من خلال ذلك الاسم أو ذينك الإسمين. بتعبير منطقي تعدّ الأسماء الإلهية التي تنطوي عليها الآيات القرآنية حدّاً أوسط لإثبات مضمون الآيات. «والقرآن هو الكتاب السماويّ الوحيد الذي يستعمل الأسماء الإلهية في تقرير مقاصده، ويعلّمنا علم الأسماء من بين ما بلغنا من الكتب السماوية المنسوبة إلى الوحي»(١).

صفات العبد

لكي يتّضح دور هذه الصفات الإلهية في نظام عالم الإمكان لابدّ من التمييز بدقة بين الصفات الذاتية لله سبحانه والصفات الفعلية، حيث ذكرت مدرسة أهل البيت عليهم السلام ضابطة أساسية للتمييز بينهما لم نعثر على مثله في غير آثار علماء هذه المدرسة. إن الصفات الثبوتية لله تعالى تنقسم بنحو من أنحاء القسمة إلى ذاتية وفعلية. ويقوم التمييز بينهما على أساس: أن الذات الإلهية إذا كانت كافية وحدها للاتّصاف بصفة بقطع النظر عن أيّ شيء آخر فهي صفة ذات كالعلم والقدرة والحياة، أما إذا احتاجت الصفة فى تحقّقها واتّصاف الذات بها إلى فرض تحقّق الغير مسبقاً فهي صفة فعل. فما لم يوجد لله خلق مثلاً لا يمكن انتزاع صفة الخالقية، وما لم يكن هناك ما يرزقه

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ٨ ص ٣٥٣.

لا تنتزع صفة الرازقية، وهكذا إلى عشرات ومئات الأسماء الإلهية مما يدخل في صفات الفعل التي تكون الذات - بما هي ذات - غير كافية لانتزاع الصفة، بل لابد من وجود فعله لانتزاعها. ولا محذور في ذلك ما دامت القدرة على الخلق والقدرة على الرزق هما من صفاته الذاتية، فهو جلّ جلاله قادر والقدرة صفة ذات.

في ضوء هذا التمييز بين الصفات الذاتية والفعلية، يتبين أن كلّ صفة من صفات الكمال الإلهي تقابلها صفة نقص وحاجة في العبد، وقد أشار القرآن الكريم إلى جملة من هذه الصفات، منها:

الفقر والحاجة: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥).

ظلوم جهول: ﴿إِنّا عَرَضْنَا الأمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالأرْضِ وَالْجبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الإنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢).

عجول: ﴿وَيَدْعُ الإنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الإنْسانُ عَجُولاً﴾ (الإسراء: ١١).

قتور: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنْفاقِ وَكانَ الإنْسانُ قَتُوراً﴾ (الإسراء: ١٠٠).

هلوع، جزوع ، منوع: ﴿إِنَّ الإنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ (المعارج: ١٩ - ٢١).

كنود: ﴿إِنَّ الإنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات: ٦).

فتحصّل إلى هنا أن لله تعالى صفات ذاتية تنتزع من فرض الذات

وحسب، وصفات فعلية مضافة إلى غيره كالخالق والرازق والمعطي والجواد والغفور والرحيم إلى غير ذلك، وهي كثيرة جداً يجمعها صفة القيّوم ﴿اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ولما كانت مضافة إلى غيره تعالى كانت متوقّفة في تحقّقها على تحقّق الغير المضاف إليه، وحيث كان كلّ غير مفروض معلولاً للذات المتعالية متأخراً عنها كانت الصفة المتوقّفة على الغير متأخرة عن الذات زائدة عليها، فهي منتزعة من مقام الفعل منسوبة إلى الذات. وبهذا يتّضح أن من أهمّ الفوارق بين الصفة الذاتية والصفة الفعلية:

- إن الصفة الذاتية لا متناهية لأنها عين الذات، أما الصفة الفعلية فمتناهية، وإلا لا تقبل ما يقابلها، علاوة على أنها زائدة على الذات، فهي إذن محدودة.
- الصفة الذاتية قديمة بقدم الذات، بينما الصفة الفعلية حادثة بحدوث الفعل.

وهذا معناه أن الصفات الفعلية وإن كانت صادقة عليه صدقاً حقيقياً، لكن لا من حيث خصوصيات حدوثها وتأخّرها عن الذات المتعالية حتى يلزم التغيّر فيه تعالى وتقدّس، وتركّب ذاته من حيثيات متغايرة كثيرة، بل من حيث إن لها أصلاً في الذات ينبعث عنه كلّ كمال وخير. فهو تعالى بحيث يقوم به كلّ كمال ممكن في موطنه الخاصّ به. فهو تعالى بحيث إذا أمكن شيء كان مراداً له، وإذا أراد شيئاً أوجده، وإذا أوجده ربّاه، وإذا ربّاه أكمله.[1]

---

(١) ينظر هذا البحث في: **التوحيد، بحوث في مراتبه ومعطياته**، ج ١ ص ١١٩.

ملاحظتان

بقيت ملاحظتان ينبغي الاشارة إليهما قبل الوصول إلى نظريات حقيقة فعل الشفيع.

الأولى: إن الله تعالى لم يأذن لكلّ أحد أن يكون شفيعاً عنده، وإنما أجاز ذلك لأفراد معيّنين أشار إلى صفاتهم ومكانتهم عنده سبحانه؛ قال تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦).

وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طه: ١٠٩).

وقال: ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ (مريم: ٨٧) وسيأتي في الفصول اللاحقة بيان من هم الشفعاء في النشأة الآخرة.

هنا ينبغي إلفات النظر إلى أن الله سبحانه وإن كان هو الغفّار الرحيم وقد وسعت رحمته كلّ شيء، إلا أن درجة قبوله لطلب العفو والمغفرة تختلف باختلاف الطالب لها، فقد يرأف جلّ جلاله بالعبد العاصي ويغفر له حينما يطلب منه ذلك، لكن درجة القبول هذه تختلف فيما لو توجّه هذا العبد بنبيّ مرسل أو وليّ مقرّب أو شفيع مرتضى عنده تعالى. ولعلّ من أوضح الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء: ٦٤) حيث قد يقول قائل: أليس لو استغفروا الله وتابوا

على وجه صحيح لكانت توبتهم مقبولة، فما الفائدة من ضمّ استغفار الرسول إلى استغفارهم؟

والجواب، كما قال الآلوسي في تفسيره: «﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ على أثر ظلمهم بلا ريب متوسّلين بك تائبين عن جناياتهم غير جامعين – حشفاً وسوء كيلة – باعتذارهم الباطل وأيمانهم الفاجرة ﴿فاستغفروا الله﴾ لذنوبهم ونزعوا عمّا هم عليه وندموا على ما فعلوا ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ وسأل الله تعالى أن يقبل توبتهم ويغفر ذنوبهم.. ﴿لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ أي لعلموه قابلاً لتوبتهم متفضّلاً عليهم بالتجاوز عمّا سلف من ذنوبهم».[1]

وذكر الحسن في هذه الآية: «إن اثني عشر رجلاً من المنافقين اجتمعوا على أمر من النفاق وائتمروا به فيما بينهم، فأخبره الله بذلك، وقد دخلوا على رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال رسول الله: **إن اثني عشر رجلاً من المنافقين اجتمعوا على أمر من النفاق وائتمروا به فيما بينهم، فليقم أولئك فليستغفروا ربّهم وليعترفوا بذنوبهم حتى أشفع لهم**، فلم يقم أحد. فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **ألا تقومون مراراً؟** ثم قال: **قم يا فلان وأنت يا فلان**... فقالوا: يا رسول الله نحن نستغفر الله ونتوب إليه فاشفع لنا، قال: **الآن؟ أنا كنت في أوّل أمركم أطيب نفساً بالشفاعة، وكان الله تعالى أسرع إلى الإجابة، أخرجوا عنّي**. فأخرجوا عنه حتى لم يرهم»[2].

---

(١) **روح المعاني**: ج ٥ ص ١٠٣، المجلد الرابع.

(٢) **التبيان في تفسير القران**، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي: ج ٣ ص ٢٤٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

وكذلك ما ورد على لسان أبناء يعقوب: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يوسف: ٩٧ – ٩٨).

الثانية: إن الشفيع لا يطلب الشفاعة جزافاً ومن غير سبب كما هو الحال في بعض موارد الشفاعة العرفية والعقلائية، بل هناك قانون وسنّة لذلك، فالشفيع مثلاً:

• لا يطلب من المولى أن يبطل مولوية نفسه ولا أن يبطل عبودية عبده كأن يقول: أنت وإن كنت مولىً لكنك في هذا الموضع لست بمولىً فلا يحقّ لك معاقبة هذا العبد العاصي، أو إن هذا العبد عبد في كلّ مورد إلا في هذا المورد فلا سبيل لك عليه. إن إبطال مولوية المولى وعبودية العبد أمر غير ممكن حتى لو طلبه الشفيع، لأنهما أمران حقيقيان لا اعتباريان مجعولان يمكن وضعهما ورفعهما.

• كما لا يطلب الشفيع من المولى أن يرفع يده عن حكمه وتكليفه الذي جعله بأيّ نحو كان، كأن يقول له: أنت وإن أوجبت الصلاة على الجميع وحرّمت الكذب والظلم وأمرت بالجهاد ونهيت عن الربا وما إلى ذلك، لكنني أطلب منك أن ترفع هذا الوجوب أو هذه الحرمة في هذا المورد، فلا يبقى تكليفك على حاله، وبذلك لا يصدق في العبد العاصي أنه عاصٍ وغير ممتثل للأمر المولوي.

إن هذا الأمر لا يمكن أن يطلبه الشفيع من المولى، لأن التكليف والحكم الشرعي – كما هو واضح – قد شرّع لمصلحة العبد وليس المولى فكيف يطلب الشفيع رفع ما فيه مصلحة العبد الذي يستشفع له.

• كما لا يطلب الشفيع من المولى إبطال قانون المجازاة، كأن يقول له: إرفع ما وضعته من مجازاة وعقوبة على شرب الخمر أو أكل أموال اليتامى ظلماً أو الكذب والغيبة وما شابه ذلك.

نظريتان في حقيقة فعل الشفيع

إذا اتّضحت هذه الملاحظات نقول: إن هنا نظريتين في بيان حقيقة فعل الشافع:

النظرية الأولى

وهي التي اختارها الطباطبائي في تفسير الميزان قال: «فالشفيع لا يطلب من المولى مثلاً أن يبطل مولوية نفسه وعبودية عبده فلا يعاقبه، ولا يطلب منه أن يرفع اليد عن حكمه وتكليفه المجعول أو نسخه عموماً أو في خصوص الواقعة فلا يعاقبه، ولا يطلب منه أن يبطل قانون المجازاة عموماً أو خصوصاً فلا يعاقب لذلك رأساً أو في خصوص الواقعة. فلا نفوذ ولا تأثير للشفيع في مولوية وعبودية ولا في حكم ولا في جزاء. بل الشفيع بعدما يسلّم جميع الجهات الثلاث المذكورة إنما يتمسك:

• إما بصفات في المولى الحاكم توجب العفو والصفح كسؤدده وكرمه وسخائه وشرافة محتده.

• وإما بصفات في العبد تستدعي الرأفة والحنان وتثير عوامل المغفرة كمذلّته ومسكنته وحقارته وسوء حاله.

• وإما بصفات في نفسه أعني نفس الشفيع من قربه إلى المولى

وكرامته وعلوّ منزلته عنده.

فيقول: ما أسألك إبطال مولويّتك وعبوديّته، ولا أن تبطل حكمك ولا أن تبطل الجزاء، بل أسألك الصفح عنه بأن لك سؤدداً ورأفة وكرماً لا تنتفع بعقابه ولا يضرّك الصفح عن ذنبه، أو بأنه جاهل حقير مسكين لا يعتني مثلك بشأنه ولا يهتمّ بأمره، أو بأنّ لي عندك من المنزلة والكرامة ما يوجب إسعاف حاجتي في تخليصه والعفو عنه»[١].

إذن تأثير الشفيع في ضوء هذه النظرية إنما يتمّ من خلال أحد طرق ثلاثة على سبيل مانعة الخلوّ أي التي لا يخلو الواقع من أحدها، وقد تجتمع لأنها ليست بمانعة الجمع وهي:

الطريق الأول: ويتمّ من خلال تمسّك الشفيع بصفات في المولى من قبيل رأفته ورحمته وعفوه ونحو ذلك، بحيث يخاطب المولى قائلاً: إلهي وسيدي وإن كان هذا العبد بمقتضى عمله الخاطئ وذنبه يستحقّ العقاب، وبمقتضى عدلك ينبغي أن يعاقب، لكنك لست عادلاً فقط بل أنت رؤوف، رحيم، غفور، كريم أيضاً، فأسألك أن تعامل هذا العبد بمقتضى اسمك الكريم واسمك الرؤوف الرحيم، لا بمقتضى اسمك العادل (**اللهم عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك**).

وقد تقدّم أن الله سبحانه إذا أراد أن يعامل شيئاً بمقتضى اسمه المحيي فإنه يحييه، وإذا عامله بمقتضى اسمه المميت أماته، وإذا عامله باسمه المنتقم انتقم منه، وإذا عامله باسمه الباسط بسط له كلّ أنواع الرزق المادّي والمعنوي؛ لما أشرنا أن للأسماء والصفات الإلهية

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ١٥٩.

المختلفة آثاراً مختلفة، وإن كان المميت والمحيي والمنتقم والباسط جميعاً واحد وهو الله جلّ جلاله.

وعلى هذا فإن الشفيع يطلب من الله عزّ اسمه أن يعامل العبد العاصي بواسطة اسمه الرحيم والرؤوف والكريم، وفق قانون الإحسان والكرم والمغفرة لا من خلال اسمه العادل وقانون العدالة فقط. حينئذٍ لن يكون اسم العادل هو منشأ القضاء والحكم بما هو فرد، بل يضمّ إليه ويشفع بأسماء أخرى من أسماء الله كالرحيم والرؤوف والمحسن، ونحوها.

ومن الواضح أن هذا الطريق يرتبط بفاعلية الفاعل؛ إذ يوسّع دائرة هذه الفاعلية من خلال التوسّل بالأسماء والصفات الإلهية الأخرى وعدم الاقتصار على اسم واحد فقط.

الطريق الثاني: ويتمّ من خلال الاسترحام بصفات في العبد، كأن تبيّن مسكنته وضعفه وجهله، حيث يخاطب الشفيع المولى بقوله: إلهي وسيدي إن هذا العبد وإن فعل ما ينبغي غضبك وسخطك إلا أن فعله هذا لم يصدر منه عن تكبّر أو عناد، بل هو عبد مسكين، مستكين، حقير، فقير، ضعيف، جاهل... .

ومن الواضح أن طريق الاسترحام بصفات العبد يرتبط بقابلية القابل، حيث يحاول الشفيع هنا أن يوسّع من دائرة هذه القابلية لتعمّ العبد المذنب رحمة ورأفة المولى تبارك وتعالى. وقد وردت الإشارة في دعاء أبي حمزة الثمالي المرويّ عن الإمام علي بن الحسين السجّاد عليه السلام إلى كلا الطريقين السابقين، فحينما يناجي الإمام عليه

السلام ربّه سبحانه، يذكر له كلّ صفات الكمال والعظمة ويتوسّل بها فيقول:

«وإذا رأيت كرمك طمعتُ، فإن عفوتَ فخير راحم وإن عذّبتَ فغير ظالم، حجّتي يا الله في جُرأتي على مسألتك مع إتياني ما تكره جودُك وكرمُك، وعُدّتي في شدّتي مع قلّة حيائي رأفتك ورحمتُك... يا خير من دعاه داعٍ وأفضل من رجاهُ راجٍ، عظم يا سيدي أملي وساء عملي فأعطني من عفوك بمقدار أملي ولا تؤاخذني بأسوأ عملي فإن كرمك يجلُّ عن مجازاة المذنبين وحلمُك يكبُر عن مكافاة المقصّرين، وأنا يا سيدي عائذ بفضلك هارب منك إليك (أي هارب من سخطك إلى عفوك ورحمتك) متنجّز ما وعدتَ من الصفح عمّن أحسن بك ظنّاً، وما أنا يا ربّ وما خطري؟ هبني بفضلك وتصدّق عليّ بعفوك، أي ربّ جلّلني بسترك واعف عن توبيخي بكرم وجهك... لأنك يا رب خير الساترين، وأحكم الحاكمين، وأكرم الأكرمين، ستّار العيوب، غفّار الذنوب، علاّم الغيوب، تستر الذنب بكرمك، وتؤخّر العقوبة بحلمك، فلك الحمدُ على حلمك بعد علمك، وعلى عفوك بعد قدرتك...».

إلى أن يقول عليه السلام: «يا حليم يا كريم يا حيّ يا قيّوم يا غافر الذنب يا قابل التوب يا عظيم المنّ يا قديم الاحسان، أين سترك الجميل، أين عفوك الجليل، أين غياثك السريع، أين رحمتك الواسعة، أين عطاياك الفاضلة، أين مواهبك الهنيئة، أين فضلك العظيم، أين منّك الجسيم، أين إحسانك القديم، أين كرمك يا كريم؟ به فأستنقذني، وبرحمتك فخلّصني.

يامحسن يا مجمل يا منعم يا مفضل، لستُ أتّكل في النجاة من عقابك

على أعمالنا، بل بفضلك علينا لأنك أهل التقوى وأهل المغفرة، تبدي بالإحسان نِعماً، وتعفو عن الذنب كرماً، فما ندري ما نشكر؟ أجميل ما تنشر؟ أم قبيح ما تستر؟... فتجاوز يا ربّ عن قبيح ما عندنا بجميل ما عندك، وأيّ جهل يا ربّ لا يسعه جودك، وأيّ زمان أطول من أناتك، وما قدرُ أعمالنا في جنب نعمك، وكيف نستكثر أعمالاً نقابل بها كرمك، بل كيف يضيق على المذنبين ما وسعهم من رحمتك؟ يا واسع المغفرة، يا باسط اليدين بالرحمة، ... يا ربّ هذا مقام من لاذ بك واستجار بكرمك وألف إحسانك ونعمك، وأنت الجواد الذي لا يضيق عفوك ولا ينقص فضلك ولا تقلّ رحمتك، وقد توثّقنا منك بالصفح القديم والفضل العظيم والرحمة الواسعة، أفتراك يا ربّ تخلف ظنوننا أو تخيّب آمالنا، كلاّ يا كريم فليس هذا ظنّنا بك، ولا هذا فيك طمعنا يا ربّ..».

لكن من جهة أخرى حينما يأتي الإمام عليه السلام إلى ذكر العبد في قبال عظمة الله وكبريائه يقول: «سيدي أنا الصغير الذي ربّيتَهُ، وأنا الجاهل الذي علّمته، وأنا الضالّ الذي هديته، وأنا الوضيع الذي رفعته، وأنا الفقير الذي أغنيته، والضعيف الذي قوّيته، والذليل الذي أعززته، والسائل الذي أعطيته، والمذنب الذي سترته، والخاطئ الذي أقلْته، وأنا القليل الذي كثّرته، والمستضعف الذي نصرته...».

إلى أن يقول: «إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيّتك جاحد، ولا بأمرك مستخفٌّ ولا لعقوبتك متعرّض، ولا لوعيدك متهاون، ولكن خطيئة عَرَضت وسوّلت لي نفسي وغلبني هواي وأعانني عليها شِقوتي، وغرّني سترك المرخى عليّ. فقد عصيتك وخالفتك بجهدي، فالآن من

عذابك من يستنقذني؟ ومن أيدي الخصماء غداً من يخلّصني؟ وبحبل مَن أتّصل إن أنت قطعت حبلك عنّي؟ فواسوأتا على ما أحصى كتابك من عملي الذي لولا ما أرجو من كرمك وسعة رحمتك ونهيك إياي عن القنوط لقنطتُ عندما أتذكّرها، يا خير من دعاه داعٍ وأفضل من رجاه راج...»[1].

الطريق الثالث: ويتمّ من خلال تمسّك الشفيع بصفات في نفسه من قبيل قربه من الله تبارك وتعالى ومنزلته منه فيقول: **إلهي وسيدي بمنزلتي وقربي منك وكرامتي عليك إلا ما استجبت لطلبي ولبّيت حاجتي في الصفح عن هذا العبد المذنب.** وقد مرّ سابقاً أن لشخص الشفيع وصفاته ومقاماته دوراً في تحقّق أثر الشفاعة وقبولها، فليس كلّ أحد له حقّ الشفاعة، وليس الشفعاء جميعاً في درجة واحدة. وهذا ما سيأتي بحثه في بيان درجات الشفعاء.

النظرية الثانية

خلصت هذه النظرية إلى أن تأثير الشفيع إنما يتمّ من خلال طريقين فقط هما:

- التمسّك بصفات المولى عزّ اسمه.
- التمسّك بصفات العبد.

غير أنه لا يحقّ لكلّ أحد أن يسأل الله تبارك وتعالى الشفاعة لغيره، بل هو مختصّ بطبقة مأذونة من قبله سبحانه وتعالى، كما أسلفنا الإشارة إليه. إذن فليس الطريق الثالث الذي ذكر في النظرية

(١) **مفاتيح الجنان**، تأليف: الشيخ عباس القمي، دعاء أبي حمزة الثمالي.

الأولى - وأعني به التمسك بصفات نفس الشفيع - يعدّ طريقاً آخر في عَرْض الطريق الأول والثاني، بل إن صفات الشفيع ومقاماته ودرجاته هي التي تحقّق له مقدّمات الإذن في السؤال من الله تبارك وتعالى الشفاعة لغيره.

وكيفما كان فإن فعل الشفيع سواء كان من خلال الطريق الأول أو الطريق الثاني، فذلك لا يتمّ إلا إذا حقّق العبد المشفوع له المقدّمات والشرائط اللازمة لذلك، ورفع الموانع التي تمنع من شمول الشفاعة له. فالإنسان الذي يريد أن يكون مستحقّاً لشفاعة أشفع الشافعين تبارك وتعالى لابدّ أن يرفع المانع من ذلك وهو الشرك ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨) وأن يوجد الشرط اللازم وهو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ ﴾ (آل عمران: ١٩). ولو أراد أن يكون مشمولاً لشفاعة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وآله فلابد من رفع المانع وهو العناد وعدم الإيمان به صلى الله عليه وآله وأن يوجد الشرط وهو الاتباع ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١).

إذن فلكي يكون العبد مشمولاً لشفاعة من يحقّ له الشفاعة لابدّ من إزالة الموانع عن نفسه، وبغير ذلك يحرم نعمة العفو والغفران الإلهي، لا لقصور في فاعلية الفاعل والعطاء الإلهي، بل لضيق في قابلية القابل.

والحاصل أن الدخول تحت اسم الرحيم والكريم والمحسن

والعفوّ والغفور ونحوها، والخروج من تحت اسم العادل والمنتقم وشديد العقاب وما شابهها متروك للإنسان ومرتبط به من حيث اعتقاداته وملكاته وأقواله وأفعاله. هنا يأتي دور الشفيع لكي يسأل الشفاعة من خلال الطريق الأول والثاني، وإن كان يرجع أحدهما إلى الآخر بالدقّة.

الشفاعة من مصاديق الحكومة

اتّضح مما سبق أن الشفيع بشفاعته يحاول أن يخرج المورد من كونه مورداً لاسم معيّن من أسمائه تعالى وإدخاله في مورد اسم آخر من أسمائه، فلا يشمله مقتضى الأسم الأول لعدم كونه من مصاديقه. وهذه هي الحكومة بحسب عالم الأسماء الإلهية[1].

---

(١) وهي مستقاة من الحكومة بحسب اصطلاح علم أصول الفقه عند مدرسة أهل البيت عليهم السلام، حيث يراد منها «أن يكون أحد الدليلين ناظراً إلى الدليل الآخر، موسّعاً أو مضيّقاً له، فمن القسم الأول ما ورد من أن الفقّاع خمر استصغره الناس، فالفقّاع وإن لم يكن خمراً بمفهومه اللغوي إلا أن الشارع بدليله هذا وسّع مفهوم الخمر إلى ما يشمل الفقّاع، وأعطاه جميع أحكام الخمر بحكم عموم التنزيل.

ومن القسم الثاني ما ورد في أدلّة نفي الضرر كقوله صلى الله عليه وآله: **لا ضرر ولا ضرار**، وسمة هذه الأدلّة إلى أدلّة الأحكام الأولية سمة المضيّق لها إلى ما يشمل الأحكام الضررية، ولسان الكثير من أدلة هذا النوع من الحكومة لسان نفي للموضوع تعبّداً، ونفي الموضوع يستدعي نفي الحكم، إذ لا حكم بلا موضوع». **الأصول العامة للفقه المقارن**، العلاّمة محمد تقي الحكيم، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع: ص ٨٨.

وليست الشفاعة بالمضادّة، بأن يبطل حكمه الأول بعد شموله لـه، كإبطال الأسباب المتضادّة في الطبيعة بعضها حكم بعض بالمعارضة والغلبة في التأثير، أو كما هو الحال فـي التخـصيص الأصـولي حيـث يكـون إخراجاً من الحكم مع دخول المخرج موضوعاً؛ مثاله: لـو قـال: «كـلّ مكلّف يجب عليه الصوم في شهر رمضان إلا المسافر»، فالمـسافر مكلّـف ولا يجب عليه الصوم.

رجوع الشفاعة التشريعية إلى السببية

من هنا يظهر أن الشفاعة التشريعية من مصاديق السببية الوجودية، فيكون حالها حال الأمور التكوينية في مجـال التـأثير، حيـث لا يـؤثّر المقتضي في الأمور التكوينية بإيجاد المقتضى إلا إذا وجـد المقتـضي أولاً وتحقّق الشرط ثانياً ورُفع المانع ثالثاً، حينئذ يتحقّق المقتضى فـي الخارج، فلا تحرق النار الورقـة مـثلاً إلا إذا وجـدت النـار والورقـة، وحصل التماسُّ بينهما، ولم تكن الورقة رطبة غير قابلة للاحتراق.

على هذا فإن المقتضي للشفاعة وإن تـوفّر؛ لأن الله دائـم الفـضل على البريّة، ورحمته وسعت كلّ شيء وليست محظورة على أحد من خلقه ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ (الإسراء: ٢٠) وتوفر أيضاً الـشفيع المأذون له، إلا أنه لابدّ مع ذلك من كون القابل (العبد المذنب) الـذي يستشفع له خالياً من الموانع التي تمنع تحقّق الشفاعة في حقّه، وهـذا ما عبّرنا عنه بشرط قابلية القابل. فإن المرآة وإن كانـت لعكـس صـور الأشياء المنعكسة منها، إلاّ أنها لا تقوم بذلك إلا إذا كانت خاليـة مـن الرين والوسخ، هكذا بعض الذنوب كالشرك فإنه ريـن ووسـخ يمنـع

صاحبه من أن يكون قابلاً للعفو والمغفرة الإلهية ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤).

موارد من الحكومة في القرآن

وقد أشار القرآن الكريم إلى موارد من الحكومة، حيث يخرج العبد عن كونه مصداقاً لحكم ليكون مصداقاً لحكم آخر، منها:

• **تبديل السيّئات حسنات**؛ قال تعالى: ﴿إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الفرقان: ٧٠).

أشارت الآية إلى أثر التوبة النصوح، وهي الرجوع عن المعصية وأقلّ مراتبها الندم، فلو لم يتحقّق لم ينتزع العبد عن المعصية ولم يزل مقيماً عليها، وإما إتيان العمل الصالح فهو ما تستقرّ به التوبة وبه تكون نصوحاً. توضيح ذلك: لو عصى الإنسان ربّه لاستحقّ العقوبة بمقتضى قانون العدل الإلهي: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ (النساء: ١٢٣) لكن لو تاب واستغفر لما استحقّ العقاب لأنه سيكون مشمولاً لقانون إلهيّ آخر وهو التوبة: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء: ٦٤) فيكون للتوبة دور الشفيع بل هو أنجح شفيع كما قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا شفيع أنجح من التوبة**».[1]

---

(١) **نهج البلاغة**، الكلمات القصار، رقم ٣٧١، تحقيق: صبحي الصالح.

ولا يقتصر أثر التوبة على ذلك بل يتجاوزه إلى مقام آخر، حيث يبدّل كلّ سيّئة منهم نفسها إلى حسنة، قال الرازي في ذيل هذه الآية: «قال قوم: إن الله يمحو السيّئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية، وهذا قول سعيد بن المسيّب ومكحول»[1].

فإن قلت: كيف يعقل أن تكون السيّئة حسنة؟

قلنا: «إن السيّئة ليست هي متن الفعل الصادر من فاعله وهو حركات خاصّة مشتركة بين السيّئة والحسنة كعمل المواقعة مثلاً المشترك بين الزنا والنكاح، والأكل المشترك بين أكل المال غصباً وبإذن من مالكه، بل صفة الفعل من حيث موافقته لأمر الله ومخالفته له مثلاً من حيث إنه يتأثر به الإنسان ويحفظ عليه دون الفعل الذي هو مجموع حركات متصرّمة متقضّية فانية، وكذا عنوانه القائم به الفاني بفنائه.

وهذه الآثار السيّئة التي يتبعها العقاب أعني السيّئات لازمة للإنسان حتى يؤخذ بها يوم تبلى السرائر. ولولا شوب من الشقوة والمساءة في الذات لم يصدر عنها عمل سيّئ، إذ الذات السعيدة الطاهرة من كلّ وجه لا يصدر عنها سيّئة قذرة، فالأعمال السيّئة إنما تلحق ذاتاً شقيّة خبيثة بذاتها أو ذاتاً فيها شوب من شقاء وخباثة.

ولازم ذلك إذا تطهّرت بالتوبة وطابت بالإيمان والعمل الصالح فتبدّلت ذاتاً سعيدة ما فيها شوب من قذارة الشقاء، أن تتبدّل آثارها اللازمة التي كانت سيّئات قبل ذلك، فتناسب الآثار للذات بمغفرة من

(١) التفسير الكبير: ج ٢٤ ص ٩٨.

الله ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً.

• **حبط الأعمال**؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (الحجرات: ٢) ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٢١٧).

الحبط هو بطلان العمل وسقوطه عن التأثير، وقيل: إن أصله من الحَبَط بالتحريك وهو أن يكثر الحيوان من الأكل فينتفخ بطنه وربما أدّى إلى هلاكه. ولم ينسب في القرآن إلا إلى العمل كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِين﴾ (الزمر: ٦٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٢-٣٣) وذيل الآية يدلّ بالمقابلة على أن الحبط بمعنى بطلان العمل كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٦). وفي معناه ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ (الفرقان: ٢٣).

قال الراغب في المفردات: «العمل كلّ فعل يكون من الحيوان بقصدٍ فهو أخصّ من الفعل، لأن الفعل قد يُنسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعلٌ بغير قصد، وقد يُنسب إلى الجمادات، والعملُ قلّما

ينسب إلى ذلك، ولم يستعمل العمل في الحيوانات إلا في قولهم: البقر العوامل»[١] وقال: «الهباء: دقائق التراب وما نبت في الهواء فلا يبدو إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوّة».[٢]

والمعنى: وأقبلنا إلى كلّ عمل عملوه - والعمل هو الذي يعيش به الإنسان بعد الموت - ففرقناه تفريقاً وجعلناه بحيث لا يمكن الانتفاع به كالهباء المنثور الذي لا يمكن القبض عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إذا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾ (النور: ٣٩). وقوله: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ (إبراهيم: ١٨). والكلام مبنيّ على التمثيل ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣) مثّل به استيلاء القهر الإلهي على جميع أعمالهم التي عملوها لسعادة الحياة وإبطالها بحيث لا يؤثّر في سعادة حياتهم المؤبّدة شيئاً.

ولا منافاة بين ما تدلّ عليه الآية من حبط الأعمال يومئذ وبين ما تدلّ عليه آيات آخر أن أعمالهم أُحبطت حينما عملوها في الدنيا بكفرهم وإجرامهم، فإن معنى الإحباط بعد الموت ظهور الحبط لهم بعدما كان خفيّاً في الدنيا عليهم.

وقد ذكرت الروايات الواردة عن طرق الفريقين بعض مصاديق حبط الأعمال:

---

(١) **المفردات في غريب القرآن**: ص ٣٤٨ مادة «عمل».

(٢) **المفردات في غريب القرآن**: ص ٥٣٦ مادة «هبا».

• «أخرج سمويه في فوائده عن سالم مولى أبي حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: «**ليجاء يوم القيامة بقوم معهم حسنات مثال جبال تهامة، حتى إذا جيء بهم جعل الله أعمالهم هباءً، ثم قذفهم في النار**، قال سالم: بأبي أنت وأمي يا رسول الله حل لنا هؤلاء القوم؟ قال: **كانوا يصلّون ويصومون ويأخذون سنة من الليل، ولكن كانوا إذا عرض عليهم شيء من الحرام وثبوا عليه، فأدحض الله أعمالهم**»[(١)].

• في الخصال عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جدّه عن علي عليهم السلام قال: «**إن للجنة ثمانية أبواب، باب يدخل منه النبيّون والصدّيقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبّونا... وباب يدخل منه سائر المسلمين ممّن شهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرّة من بغضنا أهل البيت**»[(٢)].

بيّن هذا النصّ أن من كان في قلبه ذرّة من بغض عليّ وأهل بيته عليهم السلام فإنه لا يشمّ رائحة الجنة. وهذا المعنى ورد في كلمات أعلام المسلمين أيضاً؛ قال الزمخشري في ذيل قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى: ٢٣) قيل يا رسول

---

(١) **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، ج ٦ ص ٢٤٧ دار الفكر، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٣م.

(٢) **الخصال**، للشيخ الجليل الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي: ج ٢ ص ٤٠٨ باب الثمانية، الحديث: ٦، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي.

الله: من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: **علي وفاطمة وابناهما**، وقال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم: **من مات على حبّ آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حبّ آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حبّ آل محمد بشّره ملك الموت بالجنة... ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيسٌ من رحمة الله، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشمّ رائحة الجنة»**[1].

وقال الرازي تعقيباً على هذا الحديث الذي نقله الزمخشري في تفسيره: «وأنا أقول: آل محمد صلى الله عليه [وآله] وسلم، هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانوا هم الآل، ولاشكّ أن فاطمة وعليّاً والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول الله أشدّ التعلّقات، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر، فوجب أن يكونوا هم الآل» ثم قال: «لا شك أن النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم كان يحبّ فاطمة عليها السلام قال: **فاطمة بضعة منّي يؤذيني ما يؤذيها** وثبت بالنقل المتواتر عن رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم أنه كان يحبّ علياً والحسن والحسين، وإذا ثبت ذلك وجب على كلّ الأمّة مثله؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨) ولقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ (النور: ٦٣) ولقوله: ﴿قُلْ إِنْ

---

(١) **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**: ج ٤ ص ٢١٩.

كُنْـتُمْ تُحِبُّـونَ اللهَ فَاتَّبِـعُونِي يُحْبِـبْكُمُ اللهُ﴾ (آل عمـران: ٣١) ولقولـه سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١) هذا مضافاً إلى «إن الدعاء للآل منصب عظيم ولـذلك جُعـل هـذا الـدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله: اللهم صل على محمد وعلـى آل محمد وارحم محمداً وآل محمد، وهذا التعظيم لم يوجد في حقّ غير الآل، فكلّ ذلك يدلّ على أن حبّ آل محمد واجب...»[1].

• ومن موارد الحكومة، أنه تعالى **يكثّر القليل من العمل**؛ قـال تعالى: ﴿أولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ (القـصص: ٥٤) وقال: ﴿مَنْ جـاءَ بـالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ (الأنعام: ١٦٠) وقال ﴿مَثَلُ الَّـذِينَ يُنْفِقُـونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِـيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِـلَ فِي كُـلِّ سُـنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦١).

• ومن مواردها أيضاً أنه سبحانه **يجعل المعدوم من العمل موجوداً**؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَـتْهُمْ ذُرِّيَّـتُهُمْ بِـإِيمانٍ أَلْحَقْنـا بِـهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِـنْ شَـيْءٍ كُـلُّ امْـرِئٍ بِـما كَـسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور: ٢١).

فتحصّل أن له تعالى أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿لا يُـسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣) نعم إنما يفعل لمصلحة مقتـضية وعلّة متوسّطة، ولتكن من جملتها شفاعة الشافعين من أنبيائه وأوليائـه والمقرّبين من عباده من غير جزاف ولا ظلم.

---

(١) **التفسير الكبير**: ج ٢٧ ص ١٤٣.

الحكومة في نظام التكوين

ولا تختصّ هذه الحقيقة - وأعني بها خروج المورد عن كونه مصداقاً وموردأ لحكم ودخوله في مورد حكم آخر - بالجانب التشريعي من الشفاعة، وإنما تمتدّ لتعمّ نظام التكوين أيضاً. نحاول هنا الوقوف عند بعض مصاديق ذلك:

• **صلة الرحم وأعمال البر:** قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: **«أفضل ما توسّل به المتوسّلون الإيمان بالله وصدقة السر، فإنها تذهب الخطيئة وتطفئ غضب الربّ، وصنائع المعروف فإنها تدفع ميتة السوء وتقي مصارع الهوان»**[1].

وروى السيوطي عن علي رضي الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الآية: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء﴾ فقال له: **«لأقرنّ عينيك بتفسيرها، ولأقرّنّ عين أمّتي بعدي بتفسيرها: الصدقة على وجهها، وبرّ الوالدين، واصطناع المعروف، يحوّل الشقاء سعادة ويزيد في العمر ويقي مصارع السوء»**[2].

وروى سليمان عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: **«لا يردّ القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البرّ»**[3].

• **الدعاء:** أخرج الحاكم وصحّحه عن ابن عباس قال: **«لا ينفع**

---

(١) **وسائل الشيعة:** ج ١٦ ص ٢٨٨، مؤسسة آل البيت، قم - إيران، ١٤٠٩ هـ.

(٢) **الدر المنثور في التفسير بالمأثور:** ج ٤ ص ٦٦١.

(٣) **سنن الترمذي** ج ٤ ص ٤٤٨ الحديث: ٢١٣٩.

الحذر من القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر»[١].

وعن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وآله؟ قال: «**الدعاء ينفع مما نزل وممّا لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء»**[٢].

وعن زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال لي: **ألا أدلّك على شيء لم يستثن منه رسول الله صلى الله عليه وآله** قلت: بلى، قال: **الدعاء يردُّ القضاء وقد أُبرم إبراماً»**[٣].

الشفاعة الحسنة والشفاعة السيّئة

هناك تقسيم آخر ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَمَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً﴾ (النساء: ٨٥). «لما كانت الشفاعة نوع توسّط لترميم نقيصة أو لحيازة مزيّة ونحو ذلك، كانت لها نوع سببية لإصلاح شأن، فلها شيء من التبعة والمثوبة المتعلقتين بما لأجله الشفاعة وهو مقصد الشفيع والمشفوع له، فالشفيع ذو نصيب من الخير أو الشرّ المترتّب على الشفاعة.

وفي ذكر هذه الحقيقة تذكرة للمؤمنين وتنبيه لهم أن يتيقظوا عند الشفاعة لما يشفعون له، ويجتنبوها إن كان المشفوع لأجله مما فيه شرّ وفساد، كالشفاعة للمنافقين من المشركين أن لايقاتَلوا، فإن في ترك

---

(١) **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**: ج ٤ ص ٦٦١.

(٢) **المستدرك على الصحيحين**، للحاكم النيسابوري: ج ١ ص ٤٩٣ دار الفكر.

(٣) **الأصول من الكافي**، ج ٢ ص ٤٧٠ باب: الدعاء يردّ البلاء والقضاء، الحديث: ٦.

الفساد القليل على حاله وإمهاله في أن ينمو ويعظم فساداً معقباً لا يقوم له شيء، ويهلك به الحرث والنسل، فالآية في معنى النهي عن الشفاعة السيّئة وهي شفاعة أهل الظلم والطغيان والنفاق والشرك المفسدين في الأرض»[١].

وقيل: الشفاعة ههنا: أن يشرّع الإنسان للآخر طريق خير أو طريق شرّ فيقتدي به، فصار كأنه شفعٌ له، وذلك كما قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ومن سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها**» أي إثمها وإثم من عمل بها.

وقد أشار المفسّرون إلى بعض مصاديق الشفاعة الحسنة والشفاعة السيّئة:

• منها: أن المراد بالشفاعة الحسنة الدعاء للمؤمنين، وبالشفاعة السيّئة الدعاء عليهم، عن أبي علي الجبائي، وقال: لأن اليهود كانت تفعل ذلك فتوعّدهم الله عليها.

• ومنها: أن المراد بالشفاعة هنا أن يصير الإنسان شفع صاحبه في جهاده عدوّه، فيحصل له من هذه الشفاعة نصيب في العاجل من الغنيمة والظفر، وفي الآجل من الثواب المنتظر، وإن صار شفعاً في معصية أو شرّ حصل له نصيب من المذمّة في العاجل والعقوبة في الآجل.

• ومنها: أن الشفاعة الحسنة والشفاعة السيّئة شفاعة الناس بعضهم لبعض، عن مجاهد والحسن قال: ما يجوز في الدين أن يشفع فيه فهو

---

(١) **الميزان في تفسير القران**: ج ٥ ص ٢٩.

شفاعة حسنة، وما لا يجوز أن يشفع فيه فهو شفاعة سيّئة. قال: ومن يشفع شفاعة حسنة كان له فيها أجر وثواب وإن لم يشفّع، لأن الله قال: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ﴾ ولم يقل (ومن يشفّع). ويؤيد هذا قوله: **اشفعوا إليّ تؤجروا**، وقوله: **من حالت شفاعته دون حدّ من حدود الله فقد ضادّ الله في ملكه، ومن أعان على خصومة بغير علم كان في سخط الله حتى ينزع.**(١)

وكيفما كان فالظاهر أن مدار هذا التقسيم هو المعنى العرفي والعقلائي للشفاعة، وهو أن يصير الإنسان نفسه شفعاً لصاحب الحاجة حتى يجتمع معه على المسألة فيها، فيكون شاملاً لشفاعة الناس بعضهم لبعض، وهي قسمان حسنة وسيّئة.

• فالشفاعة الحسنة: أن يشفع الشافع لإزالة ضرر ورفع مظلمة عن مظلوم أو جرّ منفعة إلى مستحقّ ليس في جرّها إليه ضرر ولا ضرار.

• والشفاعة السيّئة: أن يشفع في إسقاط حدّ أو هضم حقّ أو إعطائه لغير مستحقّ أو محاباة في عمل، بما يجرّ إلى الخلل.

والضابط العام أن الشفاعة الحسنة هي ما كانت فيما استحسنه الشرع، والسيّئة فيما كرهه أو حرّمه.(٢)

---

(١) ينظر: في ذلك: **التفسير الكبير**: ج ١٠ ص ١٦٤، **مجمع البيان في تفسير القرآن**: ج ٢ ص ١٧٨.

(٢) ينظر: **تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار**، تأليف الشيخ محمد رشيد رضا: ج ٥ ص ٢٦١، وهي مجموعة الدروس التي أخذها عن أستاذه الشيخ محمد عبده. تعليق وتصحيح: سمير مصطفى رباب. دار إحياء التراث العربي.

الفصل الثاني

أثر الشفاعة

اتفاق المسلمين على الشفاعة التشريعية

اتّفقت كلمة علماء المسلمين على أن الشفاعة التشريعية من الأصول الأساسية في العقيدة الإسلامية.

• قال النووي في «شرح صحيح مسلم»: «قال القاضي عياض: مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلاً ووجوبها سمعاً بصريح الآيات وبخبر الصادق، وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة....»[1].

• قال الطبرسي في تفسيره: «إن الأمّة أجمعت على أن للنبي صلى الله عليه وآله شفاعة مقبولة وإن اختلفوا في كيفيتها»[2].

• قال الرازي: «أجمعت الأمّة على أن لمحمد صلى الله عليه [وآله] وسلم شفاعة في الآخرة، وحُمل على ذلك قوله تعالى: ﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾ (الإسراء: ٧٩) وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾ (الضحى: ٥)»[3].

(١) **بحار الأنوار:** ج ٨ ص ٦٢، **شرح صحيح مسلم:** ج ٢ ص ٥٨.

(٢) **مجمع البيان:** ج ١ ص ٢٣٠.

(٣) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب:** ج ٣ ص ٥٢.

• قال ابن كثير الدمشقي في تفسير قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإذنهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥): «هذا من عظمته وجلاله وكبريائه عزّ وجلّ أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة كما في حديث الشفاعة عن الرسول صلى الله عليه [وآله] وسلم: «**آتي تحت العرش فأخرّ ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع رأسك وقد تسمع واشفع تشفّع**»[١].

• قال محمد عبد الوهاب: «ثبتت الشفاعة لنبينا محمد يوم القيامة ولسائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حسبما ورد، ونسألها من المالك لها والآذن فيها... إلى أن قال: إن الشفاعة حقّ في الآخرة ووجب على كلّ مسلم الإيمان بشفاعته بل وغيره من الشفعاء»[٢].

• قال محمد جواد البلاغي: «لكن لو أعطي القرآن حقّه من التدبّر وسلمت النفوس من وباء الأهواء والتحزّب... لما ثار الهياج من بعض الناس على استشفاع المسلمين بالرسول والأئمة والأولياء، لأنهم عباد مكرمون، وأولى عباد الله بأن نعتقد إذنه جلّت آلاؤه لهم بالشفاعة إكراماً لهم لأجل الحكمة التي ذكرناها. وقد اكتفينا هاهنا بدلالة الكتاب المجيد عن الإشارة إلى ما تواتر معناه من أحاديث المسلمين في هذه الشؤون، وفي كتبهم في الحديث من ذلك شيء كثير والأمر فيه جليّ»[٣].

---

(١) **تفسير ابن كثير**: ج ١ ص ٣٠٩ نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ص ١٦٦.

(٢) **الهدية السنية**، الرسالة الثانية: ص٤٢ نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ص ١٦٧.

(٣) **آلاء الرحمن في تفسير القرآن**، تأليف: الإمام المجاهد الشيخ محمد جواد البلاغي: ج ١ ص ١٣٦ تحقيق: مؤسسة البعثة – قم، الطبعة الأولى: ١٤٢٠.

اتجاهات في تفسير الأثر المترتّب على الشفاعة التشريعية

إلا أنه وقع الاختلاف بين الأعلام في الأثر المترتّب على هذا النحو من الشفاعة، وتوجد اتجاهات ثلاثة في هذا المجال:

الاتجاه الأول: إن الشفاعة لدفع العقاب لا لرفعه

قال الطنطاوي في تفسيره: «إعلم أن الأمّة الإسلامية قد أجمعت أنه صلى الله عليه [وآله] وسلم يشفع في أمّته، وهذا أمر مجمَع عليه، لكن وقع الاختلاف في المقصود منها، وها أنا أذكر لك الحقيقة واضحة جليّة خالصة ظاهرة، ثم أطبّق عليها سائر الأقوال والآيات والأحاديث بحيث يتّفق المشرب الديني والمنهج القويم للتربية الإسلامية.

اعلم أن للشفاعة بذوراً ونباتاً وثمراً، فبذورها العلم ونباتها العمل وثمرها النجاة في الآخرة، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام علّموا الناس في الدنيا وفيها غرسوا البذور، والناس إذا عملوا بما سمعوا منهم ولم تكن تلك الشرائع منسوخة فقد استعدوا للنتيجة، ويوم القيامة ينالون تلك الثمرة وهي النجاة والارتقاء، ولكن تلك الثمرات تختلف باختلاف أعمالهم وجدّهم وحبّهم للخير وأخلاقهم، فمبادئ الشفاعة العلم وأوسطها العمل ونهايتها الفوز والرقيّ في الآخرة، بل كثيراً ما تظهر بعض الثمرات في الحياة الدنيا بالتوفيق والنصر والعزّ، وفي الحديث: **يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء**، فهذا يفيد أن الشفاعة تابعة للاقتداء، فالأنبياء علّموا العلماء والعلماء علّموا الناس، وأفضل الناس بعد الأنبياء العلماء فالشهداء، وهم بما قدّموا

أنفسهم في سبيل الله أصبحوا قدوة للناس وأعطوهم درساً نافعاً يتبعونهم فيه.

فمن لم يعمل بما أنزل الله وتجافى عن الحقّ فقد عطّل ما وهب له من بذر الشفاعة ولم يسقه ولم يربّه ولم ينْمه العمل، فيحرم ثمرته مع أنه ساوى جميع المسلمين في حصول البذر عنده وخالفهم في قعوده عن استثماره، ساواهم في نوال بذر الشفاعة وخالفهم ونقص عنهم فيما بعد ذلك، وعلى هذا يحمل قوله عليه الصلاة والسلام في رواية أبي هريرة: «**لا ألفَينّ أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، كأنه يقول يا رسول الله أغثني، فأقول لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك**» فانظر في قوله صلى الله عليه [وآله] وسلم (قد بلّغتك)، كأنه يقول له التبليغ بذر الشفاعة وعليك العمل يتبعه النجاة.

وروى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أنه عليه الصلاة والسلام دخل المقبرة فقال: **السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أني قد رأيت إخواننا**، قالوا: يا رسول الله ألسنا إخوانك؟ قال: **بل أنتم أصحابي وإخواننا الذين لم يأتوا بعد**، قالوا: يا رسول الله كيف تعرف من يأتي بعدك من أمّتك؟ قال: **أرأيت أن كان لرجل خيل غرّ محجلة في خيل دهم، فهل لا يعرف خيله؟** قالوا: بلى يا رسول الله؟ قال: **فإنهم يأتون يوم القيامة غرّاً محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض، ألا فليذادنّ رجال عن حوضي كما يُذاد البعير الضالّ، أناديهم ألا هلمّ، فيقال: إنهم قد بدّلوا بعدك، أقول: سحقاً فسحقاً**.

فهؤلاء الذين أعانوا الأمراء على ظلمهم وأولئك الذين بدّلوا بعد

نبيّهم وأولئك الذين جاءوا يحملون شياهاً قد ظلموا في حملها، كلّ هؤلاء قد بذرت لهم بذور الشفاعة ولكنهم حرموا أنفسهم ثمرتها بتفريطهم فيها جزاءً وفاقاً، فإذا قيل إنه يشفع في أهل الكبائر أو في زيادة الحسنات للمحسنين، فقد دخل ذلك كلّه في هذا الذي أوضحته لك.

وهذا التفسير الذي اخترته للشفاعة كما جمع بين الأقوال كلّها والأحاديث ونظام الله عزّ وجلّ في ملكه وآيات القرآن وعدل الله سبحانه وتعالى، هكذا يناسب ما يجب أن تكون عليه الأمّة الإسلامية في مستقبل الزمان، عندها يفهمون قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧و٨) وقوله: ﴿اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (الإسراء: ١٤) ويعرفون أنه عزّ وجلّ عدل، ولن يخرج من بذر القمح إلا القمح ولا من النواة إلا ما كان من جنسها. هكذا بنو آدم في الآخرة كلٌّ يوضع في المكان الذي استحقّه ولا يقدر أن يتجاوزه على حسب الأخلاق التي اكتسبها، وفي الحديث «**يحشر المرء على ما مات عليه**» وفي الآية ﴿وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٢).

والحاصل: لو أن أعظم الملوك قدراً وأكثر الأغنياء مالاً أحضر أساطين الحكماء وأكابر العلماء لولده الغبيّ وأغدق عليهم النعم ليصير عالماً لم يقدروا على ذلك، أما هو فيقدر أن يفيض المال على أيّ فقير فيصير غنياً في الحال. فشفاعة الأنبياء ليست من قبيل الهبات المالية ولا الوظائف الإدارية، وإنما هي نفحات علمية وأخلاق حكمية وآداب نبوية، فمن فَقِه ما قالوه واتّبع ما رسموه واستثمر من بذور الشفاعة ما

بذروه تمّت له الشفاعة ودخل مع الجماعة.

وليس هذا بمخالف أهل السنّة ولا المعتزلة، فإن خروج العاصي من النار بالشفاعة أو إبعاده عنها قبل الدخول وكذلك زيادة الحسنات في الأعمال للصالحين، كلّ هذا جاء من شفاعته صلى الله عليه [وآله] وسلّم واتّباعه، بل كلّ ثواب فإنما هو بسبب ذلك، وهكذا كلّ نجاة فإنه صلى الله عليه [وآله] وسلم لو لم يأتِ لنا بالشريعة لكنّا أقرب الناس إلى الحيوان، فصرنا باتّباعه داخلين في شفاعته لأنا به صرنا شفعاً، ولا يكون ذلك إلا باتّباعه ولا ننال إلا ما استعددنا له»[1].

هذا الكلام يشتمل على نقطتين أساسيتين:

الأولى: لا كلام لنا فيها، وهي: أن هناك رابطة حقيقية وعلاقة وجودية بين اعتقاد الإنسان وخُلقه وعمله في هذه النشأة وبين الجزاء في تلك النشأة، وأن ذلك من مصاديق الشفاعة، وهذه حقيقة أشارت إليها جملة من الآيات والروايات؛ قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاَّ نَكِداً﴾ (الأعراف: ٥٨). مثل ضربه تعالى لترتّب الأعمال الصالحة والآثار الحسنة على الذوات الطيّبة الكريمة كخلافها على خلافها، وقال أيضاً: ﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾ (الأعراف: ٢٩ - ٣٠).

---

(١) **الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع المكوّنات وغرائب الآيات الباهرات**، تأليف: الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري، ج ١ ص ٦٤ - ٧٠ بتصرّف، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة ١٩٩١م.

الثانية: إن الشفاعة الواردة في الآيات والروايات تختص بدفع العقاب قبل وجود ما يوجبه، لا رفع العقاب الثابت على المجرمين يوم القيامة بعد ثبوت الجرم ولزوم العقاب.

توضيح ذلك: إن الشفاعة التي يقولها صاحب هذا الاتجاه تعني أن نزول الشريعة على الأنبياء عليهم السلام وتعليمهم إيّاها للناس وهدايتهم إلى العمل الصالح وبيانهم سبل التوبة والعمل بها، كلّ ذلك يكون سبباً لدفع العقوبة قبل أن تثبت في حقّ هذا العبد أو ذاك، لا أنها - أي العقوبة - سوف تتحقّق وكتبت له ثم ترفع عنه يوم القيامة بشفاعة الشفعاء.

وهذا يعني أن الشفاعة المصطلحة تعني تخليص العصاة يوم القيامة من عواقب أعمالهم وآثار معاصيهم وأفعالهم، بخلاف هذا التفسير للشفاعة فإنها توجب أن لا يقع العبد في عداد العصاة حتى يستحقّ ما يوجب العقوبة.

وإن شئت قلت: إن الشفاعة الأولى نتيجتها تخليص العبد بعد زلّته وعثرته وبعد وقوعه في المهالك والمهاوي، لكن الشفاعة الثانية تمنع عن وقوع العبد في المهالك وزلّته إلى المهاوي. فالأولى من قبيل الرفع والثانية من قبيل الدفع، والفرق بينهما واضح؛ فإن الرفع يمنع المقتضي عن التأثير بعد وجوده، والدفع يمنع عن وجود المقتضي وتكوّنه، وهذا معناه أن الدفع هو حسم أسباب الذنب وعدم الإعداد لها رأساً لا إزالة آثارها بعد حصولها.

ولاشكّ أن ظرف هذا النحو من الشفاعة التي يقوم بها الأنبياء

والأولياء والكتب السماوية والعلماء إنما هو في الحياة الدنيا، فإن تعاليمهم وقيادتهم الحكيمة وهداية القرآن ونحوها إنما تتحقّق في هذه النشأة وإن كانت نتائجها تظهر في النشأة الأخرى، فمن عمل بالقرآن وجعله أمامه في هذه الحياة قاده إلى الجنة في الحياة الأخرى.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أيها الناس إنكم في دار هدنة وأنتم على ظهر سفر والسير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليان كلّ جديد ويقرّبان كلّ بعيد ويأتيان بكلّ موعود، فأعدّوا الجهاز لبعد المجاز.** فقام المقداد بن الأسود فقال: يا رسول الله وما دار الهدنة؟ قال: **دار بلاغ وانقطاع، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفّع وماحل مصدّق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنّة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلّ على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل**»(١).

فهنا قد يقال: إن قوله صلى الله عليه وآله (**ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة**) تفسير لقوله: (**فإنه شافع مشفّع**) إلاّ أنه حتى لو كان الأمر كذلك فإن هناك روايات كثيرة تبيّن أن القرآن شافع مشفّع يوم القيامة أيضاً؛ قال الإمام علي عليه السلام: «**واعلموا أنه** (القرآن) **شافع مشفّع وقائل مصدّق، وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفِّع فيه، ومن مَحَلَ به القرآن يوم القيامة صُدِّق عليه، فإنه ينادي منادٍ يوم القيامة: ألا إنّ كلّ حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن، فكونوا من حرثته**

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٥٩٨ كتاب فضل القرآن، الحديث: ٢.

وأتباعه»[١].

وسيأتي تفصيل الحديث في مبحث الشفعاء يوم القيامة.

والحاصل فإن هذا التفسير من الشفاعة لا يتحقّق إلا من خلال ضمّ هداية القرآن وتوجيهات الأنبياء والأئمة إلى إرادة المكلفين وسعيهم في هذه الحياة، ليفوزوا بالسعادة الأبدية ويصلوا إلى أعلى الدرجات في الحياة الأخرى، فالمكلف لا يصل إلى هذه المقامات ولا يتخلّص من تبعات المعاصي وحده، كما أن خطاب القرآن والأنبياء لا يكون له أثر من دون أن يكون هناك من يسمع القول ويلبّي النداء، وإنما يحصل التأثير إذا انضم عمل المكلّف إلى الهداية الإلهية وكذا العكس، فعندئذ تتحقّق الغاية والهدف، وهذه هي الشفاعة اللغوية التي تقدّم الكلام عنها، حيث قلنا: إن الشفع يقابل الوتر، فكأن الشفيع ينضمّ إلى الوسيلة الناقصة التي مع المستشفع فيصير به زوجاً بعدما كان فرداً فيقوى على نيل ما يريده لو لم يكن يناله وحده لنقص وسيلته وضعفها وقصورها.

الاتجاه الثاني: إن الشفاعة لدفع العقاب ورفعه

هذا الاتجاه وإن لم يختلف مع الاتجاه الأول في أن الوظيفة الأساسية للأنبياء والأئمة والعلماء والكتب السماوية أن يبلّغوا الوحي الإلهي إلى الناس ويعلّموهم طرق النجاة والفلاح ويحذّروهم الوقوع في المهاوي والمهالك، فيكونوا بذلك سبباً من أسباب دفع العقاب

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة: ١٧٦.

عنهم، وأن ذلك من مصاديق الشفاعة، إلا أنه بالاضافة إلى ذلك يعتقد أن الآيات والروايات لم تحصر الشفاعة بهذا المصداق وإنما ذكرت مصداقاً آخر لها يقوم على أساس أن إرادة الله الحكيمة جرت في صفحة الوجود الإمكاني أن يتحقّق كلّ شيء من طريق سببه الخاصّ به، فكما أن رحمته التي وسعت كلّ شيء ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦) تصل إلى عباده في الحياة الدنيا عن طرق خاصّة وعللٍ طبيعية يلمسها كلّ من فتح عينه على الكون، فكذلك رحمته المعنوية ومغفرته الواسعة تصل في الحياة الأخرى إلى عباده عن طريق علل وأسباب خاصّة، ولتكن من جملتها شفاعة الشافعين من أنبيائه وأوليائه والمقرّبين من عباده من غير جزاف ولا ظلم. وما ذلك إلا لأن الله سبحانه قد جعل لكلّ شيء سبباً وقضى أن لا يصدر المسبّب إلا بتوسّط أسبابه، فدارُ الوجود وصفحة الكون دار الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات، وقد جرت عليه مشيئته وإرادته. وهذا ما أشارت إليه الآيات والروايات؛ قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ (الطلاق: ٣) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ (الرعد: ٨) ﴿وَما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: **أبى الله أن يُجري الأشياء إلا بأسباب، فجعل لكلّ شيء سبباً، وجعل لكلّ سبب شرحاً، وجعل لكلّ شرح علماً، وجعل لكلّ علم باباً ناطقاً**»[1].

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ١ ص١٨٣ كتاب الحجة، باب معرفة الإمام والرد إليه، الحديث: ٧.

«ولا بُعد في أن يصل غفرانه سبحانه إلى عباده يوم القيامة عن طريق خيرة عباده، فإن الله سبحانه قد جعل دعاءهم في الحياة الدنيا سبباً ونصّ بذلك في بعض آياته، فنرى أن أبناء يعقوب لما عادوا خاضعين رجعوا إلى أبيهم وقالوا له: ﴿يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩٧) فأجابهم يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يوسف: ٩٨).

ولا يختصّ ذلك بيعقوب عليه السلام بل ذكر القرآن استجابة دعاء النبيّ الأكرم في حقّ العصاة من أمّته؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء: ٦٤).

فهذه الآيات ونظائرها كقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣) تدلّ على أن مغفرته سبحانه قد تصل إلى عباده بتوسيط واسطة كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد تصل بلا واسطة كما يفصح عنه سبحانه بقوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ (التحريم: ٨). ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: ٩٠) إلى غير ذلك من الآيات التي تكشف عن أن توبة العبد تجلب المغفرة بلا واسطة أحد، وقد تصل بتوسيط واسطة هي من أعزّ عباده وأفضل خليقته وبريّته»[١].

إذا تمّ ما سبق من التحليل لمفهوم الشفاعة فلا محذور في

---

(١) **مفاهيم القرآن**: ج ٤ ص ٢١١.

جريانها يوم القيامة على يد عدّة من عباده من الملائكة والناس من بعد الإذن والارتضاء، فهو تمليك ولله الملك وله الأمر، فلهم أن يتمسّكوا برحمته وعفوه ومغفرته وما أشبه ذلك من صفاته العليا لتشمل عبداً من عباده ساءت حاله بالمعصية وشملته بليّة العقوبة، وذلك عن طريق ما تقدّم بيانه من أن الشفيع إنما يحكّم بعض العوامل المربوطة بالمورد المؤثّرة في رفع العقاب مثلاً من صفات المشفوع عنده أو نحوها على العامل الآخر الذي هو سبب وجود الحكم وترتّب العقاب على مخالفته، فلا يشمله الحكم الأول لعدم كونه من مصاديقه، لا أن يشمله فيبطل حكمه بعد الشمول بالمضادّة.

فحقيقة الشفاعة التوسّط في إيصال نفع أو دفع شرّ بنحو الحكومة دون المضادّة، فهي من مصاديق السببية حيث يتوسّط السبب المتوسّط القريب بين السبب الأول البعيد ومسبَّبه.

والآيات والروايات خير شاهد على صحّة ما ادعيناه من أن الشفاعة لا تختص بالذي ذكر في الاتجاه الأول، وإنما تجري لتشمل العصاة والمذنبين يوم القيامة أيضاً.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ (النساء: ٤٨) فلو كان المراد هو المغفرة في ضوء الطاعة العملية من الإيمان والعمل الصالح لما صحّ استثناء الشرك في الآية، لأن الشرك يغفر في هذا الإطار أيضاً لقوله: ﴿قُلْ يَا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ﴾ (الزمر: ٥٣ – ٥٤).

وهذا معناه أن لله سبحانه مغفرة ورحمة خارجة عن إطار العمل والتوبة، وأن رحمته الواسعة كما تصل إلى عباده عن طريق الإيمان والعمل الصالح، تصل إليهم عن طريق آخر وهو كون العبد قابلاً للمغفرة والرحمة حافظاً لعلاقاته مع الله ومع الشفعاء وإن كان قاصراً في العمل.

قال الطباطبائي: «ومغفرته سبحانه وعدم مغفرته لا يقع شيء منهما وقوعاً جزافياً بل على وفق الحكمة وهو العزيز الحكيم، فأما عدم مغفرته للشرك فإن الخلقة إنما تثبت على ما فيها من الرحمة على أساس العبودية والربوبيّة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) ولا عبودية مع شرك، وأما مغفرته لسائر المعاصي والذنوب التي دون الشرك فلشفاعة من جعل له الشفاعة من الأنبياء والأولياء والملائكة والأعمال الصالحة. وأما التوبة فالآية غير متعرّضة لشأنها من حيث خصوص مورد الآية، لأن موردها عدم الإيمان ولا توبة معه، على أن التوبة يغفر معها جميع الذنوب حتى الشرك. والمراد بالشرك في الآية ما يعمّ الكفر لا محالة، فإن الكافر أيضاً لا يغفر له البتّة وإن لم يصدق عليه المشرك بعنوان التسمية، ولعلّ ما ذكرناه هو النكتة؛ لقوله: ﴿أن يُشرك به﴾ دون أن يقول: المشرك أو المشركين.

وقوله ﴿لمن يشاء﴾ تقييد للكلام لدفع توهّم أنّ لأحد من الناس تأثيراً فيه تعالى يوجب به عليه المغفرة، فيحكم عليه تعالى حاكم أو يقهره قاهر. على أن من الحكمة أن لا يغفر لكلّ مذنب ذنبه وإلا لغى

الأمر والنهي وبطل التشريع وفسد أمر التربية الإلهية. ومن هنا يظهر أن كلّ واحد من المعاصي لابد أن لا يغفر بعض أفراده وإلا لغى النهي عنه، وهذا لا ينافي عموم لسان آيات أسباب المغفرة، فإن الكلام في الوقوع دون الوعد على وجه الإطلاق، ومن المعاصي ما يصدر عمن لا يغفر له بشرك ونحوه.

فمعنى الآية أنه تعالى لا يغفر الشرك من كافر أو مشرك ويغفر سائر الذنوب دون الشرك بشفاعة شافع من عباده أو عمل صالح، وليس هو تعالى مقهوراً أن يغفر كلّ ذنب من هذه الذنوب لكلّ مذنب بل له أن يغفر وله أن لا يغفر، كلّ ذلك لحكمة»[1].

وقال الرازي: «إنه تعالى قسّم المنهيّات إلى قسمين: الشرك وما سوى الشرك، ثم إن ما سوى الشرك يدخل فيه الكبيرة قبل التوبة والكبيرة بعد التوبة والصغيرة، ثم حكم على الشرك بأنه غير مغفور قطعاً، وعلى ما سواه بأنه مغفور قطعاً لكن في حقّ من يشاء، فصار تقدير الآية أنه تعالى يغفر كلّ ما سوى الشرك لكن في حقّ من يشاء. ولمّا دلّت الآية على أن كلّ ما سوى الشرك مغفور، وجب أن تكون الكبيرة قبل التوبة أيضاً مغفورة. روى الواحدي في «البسيط» بإسناده عن ابن عمر قال: كنّا على عهد رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم إذا مات الرجل منّا على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار، حتى نزلت هذه الآية فأمسكنا عن الشهادات»[2].

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ٤ ص ٣٧٠.

(٢) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ١٠ ص ١٠٠.

ومن الآيات أيضاً قوله عز من قائل: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى﴾ (النجم: ٢٦) ومن المعلوم أن الشفاعة الممكنة من الملائكة في حقّ الإنسان إنما هي الشفاعة المصطلحة في النشأة الأخرى، لعدم وجود علاقة التوجيه والتعليم من الملائكة للبشر مباشرة وبلا واسطة في هذه النشأة.

وكذلك قوله ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٨).

ومن الآيات أيضاً قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْساً * يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ (طه: ١٠٨- ١٠٩).

فإذا لاحظنا هذه الآية وأمعنّا النظر في كلمة «يومئذ» التي وردت مكرّرة في الآيات، نقف على أن ظرف إعمال الشفاعة وتحقّقها وظهور نتائجها إنما هو في النشأة الأخروية، أعني اليوم الموعود الذي وعده الله لجميع الناس ﴿إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ (آل عمران: ٩) ومن الواضح أن هذه الشفاعة هي غير الشفاعة التي يكون تحقّقها في الحياة الدنيا وتظهر نتائجها وآثارها في الحياة الأخرى، فكيف يصحّ تفسير إحدى الشفاعتين بالأخرى.

أما **الروايات** فهي كثيرة سنقف على بعضها في نهاية عرض الاتجاه الثالث.

الاتجاه الثالث: إن الشفاعة لزيادة الثواب لا لإسقاط العقاب

اتجه المشهور من أتباع المعتزلة[١] إلى القول بأن الشفاعة - التي أجمعت عليها الأمّة - مختصة بالتائبين من المؤمنين، فيكون أثرها ترفيع المقام وزيادة الثواب في الآخرة لا الإنقاذ من العذاب والخروج منه.

قال الرازي «اختلفوا بعد هذا (أي إجماع الأمّة على أن لمحمد

---

(١) المعتزلة: فرقة من كبار الفرق الإسلامية، وهم أصحاب واصل بن عطاء الغزالي، اعتزل عن مجلس الحسن البصري وذلك أنه دخل على الحسن رجل فقال: يا إمام الدين، ظهر في زماننا جماعة يكفّرون صاحب الكبيرة يعني الخوارج، وجماعة أخرى يُرجون الكبائر ويقولون لا يضرّ مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فكيف تحكم لنا أن نعتقد ذلك؟
فتفكّر الحسن وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافراً مطلقاً، فأثبت المنزلة بين المنزلتين وقال: إذا مات مرتكب الكبيرة بلا توبة خُلّد في النار، إذ ليس في الآخرة إلا فريقان: فريق في الجنة وفريق في السعير، لكن يخفّف عليه ويكون دَرَكته فوق دَرَكات الكفّار. فقال الحسن: قد اعتزل عنّا واصل، فلذلك سُمّي هو وأصحابه معتزلة، ويلقّبون أيضاً بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القَدَر فيها.
والمعتزلة لقّبوا أنفسهم بأصحاب العدل والتوحيد، لأنهم قالوا: يجب على الله ما هو الأصلح لعباده، ويجب أيضاً ثواب المطيع، فهو لا يخلّ بما هو واجب عليه أصلاً، وجعلوا هذا عدلاً. وقالوا أيضاً بنفي الصفات الحقيقية القديمة القائمة بذاته احترازاً عن إثبات قدماء متعددة، وجعلوا هذا توحيداً.

يراجع: **موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، للباحث العلامة محمد علي التهانوي: ج ٢ ص ١٥٧٤ تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم. تحقيق: د. علي دحروج. نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي. الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناتي. مكتبة لبنان - ناشرون.

صلى الله عليه [وآله] وسلم شفاعة في الآخرة) في أن شفاعته عليه السلام لمن تكون؟ أتكون للمؤمنين المستحقّين للثواب، أم تكون لأهل الكبائر المستحقّين للعقاب؟ فذهبت المعتزلة إلى أنها للمستحقّين للثواب، وتأثير الشفاعة في أن تحصل زيادة من المنافع على قدر ما استحقّوه، وقال أصحابنا (أي الأشاعرة): تأثيرها في إسقاط العقاب عن المستحقّين للعقاب، إما بأن يشفع لهم في عرصة القيامة حتى لا يدخلوا النار، وإن دخلوا النار فيشفع لهم حتى يخرجوا منها ويدخلوا الجنة، واتّفقوا على أنها ليست للكفار»(١).

وقال الطبرسي: «إن الأمّة اجتمعت على أن للنبي صلى الله عليه وآله شفاعة مقبولة، وإن اختلفوا في كيفيتها، فعندنا هي مختصّة بدفع المضارّ وإسقاط العقاب عن مستحقّيه من مذنبي المؤمنين، وقالت المعتزلة: هي في زيادة المنافع للمطيعين والتائبين دون العاصين، وهي ثابتة عندنا للنبي صلى الله عليه وآله ولأصحابه المنتجبين والأئمة من أهل بيته الطاهرين ولصالحي المؤمنين»(٢).

والسبب الذي دعا هؤلاء إلى القول بأن الشفاعة إنما هي لزيادة الثواب لا لرفع العقاب، هو ما اختاروه في مسألة معروفة وقع الخلاف فيها بين المدارس الكلامية، هي هل الفاسق مخلّد في العذاب أم لا؟

مما لا ريب فيه أن الله تعالى أوعد المجرمين التخليد في العذاب، فهل هذا مختصّ بالمشركين والمنافقين أم يعمّ مرتكب الكبيرة أيضاً؟

---

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٣ ص ٥٢.

(٢) **مجمع البيان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ٢٣٠ ذيل الآية ٤٨ من سورة البقرة.

ذهب جملة من أعلام المعتزلة إلى عمومها، من هنا صار القول بالخلود في النار لمرتكبي الكبائر من السمات البارزة التي تميّز مذهب الاعتزال عن غيره، وخالفوا في ذلك جمهور المسلمين؛ قال الشيخ المفيد: «اتّفقت الإمامية على أن الوعيد بالخلود في النار متوجّه إلى الكفّار خاصّة دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى والإقرار بفرائضه من أهل الصلاة، ووافقهم على هذا القول كافّة المرجئة سوى محمد بن شبيب وأصحاب الحديث قاطبة، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك وزعموا أن الوعيد بالخلود في النار عام في الكفّار وجميع فسّاق أهل الصلاة»(١).

لذا قال المحقق الطوسي: «والكافر مخلّد وعذاب صاحب الكبيرة منقطع؛ لاستحقاقه الثواب بإيمانه ولقبحه عند العقلاء»(٢).

وعلّق القوشجي على ذلك بقوله: «اتّفق المسلمون على أن عذاب الكفّار المعاندين دائم لا ينقطع... وأما عذاب صاحب الكبيرة هل هو منقطع أم لا؟ فذهب أهل السنة والإمامية من الشيعة وطائفة من المعتزلة إلى أنه ينقطع...»(٣).

---

(١) **أوائل المقالات**: ص ١٤ نقلاً عن **بحوث في الملل والنحل**، دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية، تأليف: جعفر السبحاني: ج ٣ص ٣٤٥ الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

(٢) **كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد**، تأليف: العلامة الحلّي، ص ٤١٤ المسألة الثامنة من المقصد السادس في المعاد. صحّحه وقدّم له وعلّق عليه: الأستاذ حسن حسن زادة الآملي، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران.

(٣) **شرح تجريد الاعتقاد**، لنصير الملة والدين محمد بن محمد الطوسي: تأليف:

وقال الرازي «واعلم أن هذه المسألة من معظمات المسائل، ولنذكرها ههنا فنقول: اختلف أهل القبلة في وعيد أصحاب الكبائر، فمن الناس من قطع بوعيدهم وهم فريقان: منهم من أثبت الوعيد المؤبّد وهو قول جمهور المعتزلة والخوارج، ومنهم من أثبت وعيداً منقطعاً، ومن الناس من قطع بأنه لا وعيد لهم وهو قول شاذّ ينسب إلى مقاتل بن سليمان المفسّر.

والقول الثالث: إنا نقطع بأنه سبحانه وتعالى يعفو عن بعض المعاصي، ولكنّا نتوقّف في حقّ كلّ أحد على التعيين أنه هل يعفو عنه أم لا؟ ونقطع بأنه تعالى إذا عذّب أحداً منهم مدة فإنه لا يعذّبه أبداً بل يقطع عذابه، وهذا هو قول أكثر الصحابة والتابعين وأهل السنة والجماعة وأكثر الإمامية»[1].

ولا أريد هنا الدخول في الأدلّة التي ساقها المعتزلة لإثبات دعواهم وما يمكن أن يرد على هذه الاستدلالات من النقوض والإشكالات، لأنه بحث موكول إلى غير هذه الدراسة.[2]

لكن يمكن الإشارة إلى بعض الآيات التي تدلّ على أن مرتكب الكبيرة غير مخلّد في النار وإن لم يتب منها:

علاء الدين علي بن محمد القوشجي: ص ٣٨٦ الطبعة الحجرية.

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٣ ص ١٣٢.

(٢) يمكن مراجعة كلمات الطرفين في: **بحوث في الملل والنحل**: ج٣ ص ٣٤٦- ٣٥١ **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج٣ ص١٣٣ - ١٤٨ في ذيل الآية ٨١ من سورة البقرة.

• قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئاتِ وَيَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ (الشورى: ٢٥) فإنّ عطف قوله ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئاتِ﴾ على قوله ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ بـ «واو العطف» يدلّ على التغاير بين الجملتين وأن هذا العفو لا يرتبط بالتوبة وإلا كان اللازم عطفه بالفاء.

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئاتِ﴾ إما أن يكون المراد منه أن يعفو عن الكبائر بعد الإتيان بالتوبة أو المراد منه أن يعفو عن الكبائر قبل التوبة، والأول باطل وإلا لصار قوله: وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئاتِ﴾ عين قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾ والتكرار خلاف الأصل، فبقي القسم الثاني فيكون المعنى أنه تارة يعفو بواسطة قبول التوبة وتارة يعفو ابتداءً من غير توبة»[1].

• وقال: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً﴾ (النساء: ٤٨) وجه دلالة الآية على أن رحمته وعفوه تشمل غير التائب من الذنوب، أنه سبحانه نفى غفران الشرك دون غيره من الذنوب، وبما أن الشرك يغفر مع التوبة كما تقدّم مراراً فتكون الجملتان ناظرتين إلى غير التائب حتى يكون النفي والإثبات فيهما متوجهين إلى شيء واحد. فمعنى قوله: ﴿لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أنه لا يغفر إذا مات بلا توبة، كما أن معنى قوله: ﴿وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ أنه يغفر ما دون الشرك من الذنوب بغير توبة لمن يشاء من المذنبين. ولو كانت سائر الذنوب مثل الشرك غير مغفورة إلا بالتوبة لما حسن التفصيل بينهما مع وضوح

---

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٢٧ ص ١٤٥.

دلالة الآية على التفصيل.

ولا يلزم من حمل الآية على ظاهرها وإدخال ما دون الشرك في الغفران الإلهي إغراءً بالمعصية، لأن الإغراء إنما يحصل بالقطع على الغفران، وأما إذا كان الغفران متعلّقاً بالمشيئة فلا إغراء فيه، بل يكون العبد به واقفاً بين الخوف والرجاء على الصفة التي وصف الله بها عباده المرتضين في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ (السجدة: ١٦) وقوله: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ (الزمر: ٩).

• وقال: ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠) فإن الآية واردة في حقّ غير التائب وإلا فإن الله سبحانه يغفر ذنوب التائب جميعاً ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ (الزمر: ٥٣) لا كثيرها فقط، مع أنه سبحانه يقول ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾. والحاصل: إن الآية دالّة على أنه تعالى يترك الكثير من هذه التشديدات بفضله ورحمته. وروي عن الإمام علي عليه السلام أن النبيّ صلى الله عليه وآله قرأ هذه الآية وقال: «**ما عفا الله عنه فهو أعزّ وأكرم من أن يعود إليه في الآخرة، وما عاقب عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يعيد العذاب عليه في الآخرة**»[1].

وكيفما كان فقد ترتّب على هذا الأصل الذي اختاره بعض أعلام المعتزلة (من أن العصاة ومقترفي الذنوب إذا ماتوا بلا توبة فإنهم مخلّدون في النار) أن اتجهوا إلى توجيه الآيات والروايات الدالّة على إثبات الشفاعة لرفع العقاب بما ينسجم مع قواعدهم في تلك المسألة،

---

(١) رواه الواحدي في **البسيط** نقلاً عن **التفسير الكبير**: ج ٢٧ ص ١٤٩.

فاستدلّوا لاثبات دعواهم (إن الشفاعة هي لزيادة الثواب لا لإسقاط العقاب) بوجوه نحاول الوقوف على بعضها:

• قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْس شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة: ٤٨) قالوا إنها تدلّ على نفي الشفاعة من ثلاثة أوجه:

الأول: قوله: ﴿لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْس شَيْئاً﴾ ولو أثّرت الشفاعة في إسقاط العقاب لأجزت نفس عن نفس شيئاً.

الثاني: قوله: ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ﴾ وهذه نكرة في سياق النفي فتعمّ جميع أنواع الشفاعة.

الثالث: ﴿وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ولو كان محمد شفيعاً لأحد من العصاة لكان ناصراً له، وذلك على خلاف الآية.

• وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ﴾ (البقرة: ٢٥٤) ظاهر الآية يقتضي نفي الشفاعات بأسرها.

• وقوله تعالى: ﴿وَما لِلظّالِمِينَ مِنْ أَنْصار﴾ (البقرة: ٢٧٠) ولو كان الرسول يشفع للفاسق من أمّته لوصفوا بأنّهم منصورون، لأنه إذا تخلّص بسبب شفاعة الرسول عن العذاب فقد بلغ الرسول النهاية في نصرته.

• وقوله تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ (الأنبياء: ٢٨) أخبر تعالى عن ملائكته أنهم لا يشفعون لأحد إلا أن يرتضيه الله عزّ وجلّ، والفاسق ليس بمرتضى عند الله، وإذا لم تشفع الملائكة له فكذا الأنبياء عليهم السلام، لأنه لا قائل بالفرق.

• وقوله تعالى: ﴿فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشّافِعِينَ﴾ (المدثر: ٤٨). ولو

أثرت الشفاعة في إسقاط العذاب لكانت الشفاعة قد تنفعهم، وذلك ضد الآية.

• وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ (غافر: ٧) ولو كانت الشفاعة حاصلة للفاسق لم يكن لتقييدها بالتوبة ومتابعة السبيل معنىً.

والجواب الإجمالي عنها جميعاً –وسيأتي بحثه التفصيلي– أن هذه الآيات ونظائرها على فرض شمولها لغير الكافر فإنها تفيد نفي الشفاعة بنحو العموم أو الإطلاق، فتكون الأدلّة الدالّة على ثبوت الشفاعة تحت شرائط خاصّة مخصّصة ومقيّدة لها، كما هو ثابت في مباحث علم الأصول.

وقد تواترت الروايات الواردة عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام لإثبات الشفاعة وأنها لرفع العقاب لا لزيادة الثواب فقط.

• منها ما رواه أئمة الحديث من الفريقين عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنه قال: «**إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي**». وكذلك ما ورد عنه: «**إن لكلّ نبيّ دعوة مستجابة فتعجّل كلّ نبيّ دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمّتي وهي نائلة من مات منهم لا يشرك بالله شيئاً**»(١).

---

(١) **صحيح البخاري**: ج ٨ ص ٨٣، ج ٩ ص١٧٠، **صحيح مسلم**: ج١ ص ١٣٠، **سنن ابن ماجة**: ج ٢ ص ١٤٤٠، **موطأ مالك**: ج ١ ص ١٦٦، **سنن الترمذي**: ج

الحديث صريح في أن شفاعته صلى الله عليه وآله تنال كلّ من مات من أمّته لا يشرك بالله شيئاً، وصاحب الكبيرة كذلك فوجب أن تناله شفاعته.

ومنها: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ليخرجنّ قوم من أمّتي من النار بشفاعتي يسمّون الجهنميين**»[1].

ومنها: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**خيّرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمّتي الجنّة فاخترت الشفاعة لأنها أعمّ وأكفى، أترونها للمتقين، لا ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوّثين**»[2].

ومنها: قال علي عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إذا قُمت المقام المحمود تشَفّعتُ في أصحاب الكبائر من أمّتي فيشفعّني الله فيهم...**»[3].

وبهذا يتّضح عدم تمامية ما ذكره بعض أعلام المعتزلة[4] حيث اعترضوا على حديث: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» «بأنه خبر آحاد

---

٥ ص ٢٣٨، **مسند أحمد**: ج ١ ص ٢٨١ ج ٣ ص ٢١٣، **سنن أبي داود**: ج ٢ ص ٥٣٧، **من لا يحضره الفقيه**: ج ٣ ص ٣٧٦ الحديث رقم: ١٧٧٧، نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ص ٢٨٩.

(١) **سنن ابن ماجة**: ج ٢ ص ١٤٤٣ و**سنن الترمذي**: ج ٤ ص ١٤٤، وبهذا المضمون: **مسند أحمد**: ج ٤ ص ٤٣٤ نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ص ٢٩١.

(٢) **سنن ابن ماجة**: ج ٢ ص ١٤٤١ نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ص ٢٩١.

(٣) **أمالي الصدوق**: ص١٧٧ نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ص ٣٠٠.

(٤) **بحوث في الملل والنحل**: ج ٣ص ٣٥٣، **التفسير الكبير**: ج ٣ ص ٦١.

ورد على مضادّة القرآن، وخبر الواحد إذا ورد على خلاف القرآن وجب ردّه، هذا مضافاً إلى أن هذه المسألة (أي الشفاعة) ليست من المسائل العملية فلا يجوز الاكتفاء فيها بالظن، وخبر الواحد لا يفيد إلا الظن فلا يجوز التمسك في هذه المسألة بهذا الخبر»[١].

والجواب عن ذلك:

أولاً: لم يثبت أن القرآن نفى الشفاعة بمعنى رفع العقاب، بل أثبتها كما تقدّم وسيأتي.

وثانياً: لو سلّمنا ذلك فإنه يمكن تخصيص ذلك من خلال الدليل القطعي، والروايات - فضلاً عن الآيات - الدالّة على هذا النحو من الشفاعة قطعية الصدور، فيمكن تخصيص الظاهر القرآني بها والاستناد إليها في المسائل الاعتقادية. قال الفخر الرازي: «أجاب أصحابنا عن هذه المطاعن بأنّ كلّ واحد من هذه الأخبار وإن كان مروياً بالآحاد إلا أنها كثيرة جداً وبينها قدر مشترك واحد وهو خروج أهل العقاب من النار بسبب الشفاعة، فيصير هذا المعنى مرويّاً على سبيل التواتر فيكون حجة والله أعلم»[٢].

وهذا ما أكده علماء المسلمين من الفريقين:

• قال الشيخ الطوسي: «إن حقيقة الشفاعة عندنا أن يكون في إسقاط المضارّ دون زيادة المنافع، والمؤمنون عندنا يشفع لهم النبيّ صلى الله عليه وآله فيشفعّه الله تعالى ويسقط بها العقاب عن

---

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٣ ص ٥٩.

(٢) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٣ ص ٦١.

المستحقّين من أهل الصلاة؛ لما روي من قوله عليه السلام: **ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**. وإنما قلنا (لا تكون في زيادة المنافع) لأنها لو استعملت في ذلك لكان أحدنا شافعاً في النبيّ صلى الله عليه وآله إذا سأل الله أن يزيد في كراماته، وذلك خلاف الإجماع. فعلم بذلك أن الشفاعة مختصّة بما قلناه. والشفاعة ثبتت عندنا للنبي صلّى الله عليه وآله وكثير من أصحابه ولجميع الأئمة المعصومين وكثير من المؤمنين الصالحين»[١].

• وقال القاضي عيّاض: «مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلاً ووجوبها سمعاً بصريح الآيات وبخبر الصادق، وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين، وأجمع السلف الصالح ومن بعدهم من أهل السنة عليها، ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منها، وتعلّقوا بمذاهبهم في تخليد المذنبين في النار. واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر: ٤٨) وأمثاله وهي في الكفّار. وأما تأويلهم أحاديث الشفاعة بكونها في زيادة الدرجات فباطل وألفاظ الأحاديث في الكتاب وغيره صريحة في بطلان مذهبهم وإخراج من استوجب النار»[٢].

• وقال الشعراني: «قال صلّى الله عليه [وآله] وسلم: **أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأوّل شافع وأول مشفّع**، قال العلماء: وإنما خصّ يوم

---

(١) **التبيان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ٢١٣.

(٢) **شرح صحيح مسلم للنووي**: ج ٢ ص ٥٨، نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ص ١٦٠، **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٦٢.

القيامة بالسيادة لأنه يوم ظهورها لكلّ أحد، كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ (غافر: ١٦) بخلاف شرفه في الدنيا وسيادته، فإنها لا تخلو من منازع. قال الجلال السيوطي وغيره: وله صلى الله عليه [وآله] وسلم ثمان شفاعات:

أولها: وأعظمها شفاعته في تعجيل حساب الخلائق وإراحتهم من طول ذلك الموقف، وهي مختصّة به.

....

وثالثها: فيمن استحقّ دخول النار أن لا يدخلها.

ورابعها: في إخراج من أُدخل النار من الموحّدين حتى لا يبقى فيها أحد منهم»[١].

• وقال ابن تيمية الحرّاني الدمشقي: «للنبيّ في القيامة ثلاث شفاعات... وأما الشفاعة الثالثة، فيشفع فيمن استحقّ النار، وهذه الشفاعة له ولسائر النبيّين والصدّيقين وغيرهم في من استحقّ النار أن لا يدخلها ويشفع في من دخلها، وتفاصيل ذلك مذكورة في الكتب المنزّلة من السماء والأثارة من العلم المأثور عن الأنبياء وفي العلم الموروث عن محمد»[٢].

---

(١) **اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر**، تأليف: الشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني المصري الحنفي: ص ٦١١ طبعة جديدة ومصحّحة ومخرجة الآيات القرآنية الكريمة، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت، لبنان.

(٢) **مجموعة الرسائل الكبرى**: ج ١ ص ٤٠٣ نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ص ١٦٥.

وله رسالة أخرى أسماها بالاستغاثة، اعتبر فيها المعتزلة والخوارج الذين أنكروا الشفاعة بمعناها المعروف وهو إسقاط العقوبة أهل ضلال وبدعة قال: «وأما من أنكر ما ثبت بالتواتر والإجماع فهو كافر بعد قيام الحجة»[١].

• وقال أحمد بن المنير الاسكندري: «أما من جحد الشفاعة فهو جدير أن لا ينالها، وأما من آمن بها وصدّقها وهم أهل السنّة والجماعة فأولئك يرجون رحمة الله، ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين وإنما ادُّخرت لهم. وليس في الآية - أي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ...﴾ - دليل لمنكريها، لأن قوله ﴿يوماً﴾ أخرجه منكّراً، ولا شك أن في القيامة مواطن، ويومها معدود بخمسين ألف سنة، فبعض أوقاتها ليس زماناً للشفاعة وبعضها هو الوقت الموعود وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام.

وقد وردت آي كثيرة ترشد إلى تعدّد أيّامها واختلاف أوقاتها، منها قوله تعالى: ﴿فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ﴾ مع قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ﴾ فيتعيّن حمل الآيتين على يومين مختلفين متغايرين: أحدهما محل للتساؤل والآخر ليس محلاً له، وكذلك الشفاعة، وأدلّة ثبوتها لا تحصى كثرة...»[٢].

---

(١) الاستغاثة في ضمن **مجموعة الرسائل الكبرى**: ج١ ص ٤٨١.

(٢) **حاشية العلامة أحمد بن المنير الاسكندري المسمّاة بالانتصاف**، وفيها يناقش الزمخشري فيما أورده من العقائد على مذهب المعتزلة ويورد ما يقابلها عند أهل السنة: **الكشاف**: ج١ ص ١٣٦.

والحاصل: إن المشهور بين المحققين من علماء المسلمين أن الشفاعة الثابتة لسيد الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله في أمّته بل في الأمم الماضين ولسائر الأنبياء والأئمة والملائكة والأولياء وغيرهم كما تكون في زيادة الثواب، تكون كذلك لإسقاط العقاب عن فسّاق المسلمين، إما بأن يشفعوا لهم في عرصة القيامة حتى لا يدخلوا النار، وإن دخلوا فيشفعوا لهم حتى يخرجوا منها ويدخلوا الجنة، خلافاً للخوارج وبعض أعلام المعتزلة حيث خصّوها لطلب زيادة المنافع للمؤمنين المستحقّين للثواب، لكنّ الأدلّة المتقدّمة تبطل مذهبهم كما عرفت.

الفصل الثالث

إشكالات وشبهات

حول الشفاعة

لا شك أن العقل لا يحكم بالشفاعة حكماً ضرورياً كحكمه بضرورة وجود المبدأ والمعاد والوحي والنبوة، غير أن للعقل أن يبحث في إمكان وقوع الشفاعة أو عدمه، حتى إذا قام الدليل العقلي على إمكان وقوعها وعدم استحالتها عقلاً، كان الدليل العقلي دالاًّ على وقوعها، ذلك لأن الإمكان أعمّ من الوقوع، أما إذا ثبت عقلاً امتناع ذلك، ودلّ ظاهر النقل على الوقوع والتحقّق، صرفنا ظهور المنقول إلى معنىً يناسب الدليل العقلي القطعي.

في ضوء هذه القاعدة حاول المنكرون للشفاعة أن يذكروا مجموعة من الوجوه العقلية لإثبات امتناع الشفاعة، من أجل أن يصرفوا الآيات الدالّة عليها عن ظهورها.

عوامل إثارة الشبهات

وقبل عرض الإشكالات التي أثيرت حول الشفاعة لابدّ من الإشارة إلى أهمّ الأسباب والعوامل التي كانت وراء إثارة مثل هذه الإشكالات والشبهات:

العامل الأول: عدم التمييز بين المعنى العرفي والاصطلاحي للشفاعة، حيث تصوّر البعض أن ما يلازم الشفاعة العرفية من ظلم أو تعسّف أو تغيّر في العلم وما شابه ذلك من الشروط والمواصفات التي تلازم الشفاعة الرائجة في الحياة البشرية والتي تسمّى بالوساطة، لابدّ من وجودها في الشفاعة المصطلحة أيضاً، الأمر الذي لا يناسب الساحة الإلهية المقدّسة، فنفوا الشفاعة التي نصّ عليها القرآن والسنّة للتخلّص من ذلك.

العامل الثاني: توهّم الشفاعة المطلقة من غير شرط وفي كلّ الموارد، مع أن الشفاعة كما مرّ ترجع بحسب الحقيقة إلى التوسّط في **السببية** والتأثير، ولا معنى للإطلاق في السببية والتأثير، فلا السبب يكون سبباً لكلّ مسبَّب من غير شرط، ولا مسبَّب واحد يكون مسبَّباً لكلّ سبب على الإطلاق، فإن ذلك يؤدي إلى بطلان السببية وهو باطل بالضرورة. من هنا اشتبه الأمر على النافين للشفاعة حيث توهّموها مطلقة من غير شرط، فاستشكلوا فيها بأمور وبنوا عليها بطلان هذه الحقيقة القرآنية.

العامل الثالث: تصوّر البعض أن عدم وقوع الشفاعة في بعض الموارد مرجعه إلى تحديد القدرة الإلهية المطلقة أو التبعيض في رحمته سبحانه، من هنا استشكلوا على اختصاص الشفاعة لبعض دون آخر، وفاتهم أن مرجع ذلك إلى النقص في قابلية القابل لا محدودية في فاعلية الفاعل.

إذا اتّضحت هذه العوامل نقول:

• إن أغلب الإشكالات المثارة في هذا المجال منصبّة على الشفاعة التشريعية في الآخرة دون غيرها من أنواع وأقسام الشفاعة.

• إن بعض هذه الإشكالات إنما هو حول إمكان الشفاعة ذاتاً وبعضها الآخر حول وقوعها خارجاً وإن أمكن وجودها ذاتاً، ذلك أن الممتنعات على قسمين:

القسم الأول: الامتناع الذاتي: ونعني به ضرورة الامتناع كما في ضرورة امتناع الجمع بين النقيضين.

القسم الثاني: الامتناع الوقوعي: بمعنى أنه وإن كان ممكناً في ذاته وبحسب نفسه، لكنه ممتنع الوقوع بحسب الخارج. وهذا مثل الظلم بالنسبة إلى الله تعالى، فمع كونه تعالى متمكّناً من الظلم بحسب ذاته لأنه مطلق القدرة والاختيار والإرادة، لكن الظلم ممتنع عليه بحسب الوقوع الخارجي، فهو تعالى لا يظلم مع قدرته على الظلم.

بعبارة أخرى: إن الفعل تارة لا يمكن أن يصدر بحسب نفسه وذاته، وأخرى لا يصدر مع إمكان صدوره، وفرق واضح بين عدم الوقوع وعدم إمكان الوقوع، فالنقيضان بلحاظ ذاتهما لا يمكن لهما أن يجتمعا أو يرتفعا في حال من الأحوال، والأربعة لا يمكن لها أن لا تكون زوجاً مهما كان الأمر، وهذا بخلاف الظلم بالنسبة إلى الله تعالى، ففي حال أنه ممكن عليه لكنّه لا يقع منه ولا يصدر منه خارجاً، لا بلحاظ ذات الظلم بل باعتبار أنه قبيح، والله تعالى منزّه عن كلّ قبيح.

الإشكال الأول: لزوم الظلم منه تعالى

أثبت القرآن الكريم بصورة قاطعة استحقاق العاصي للنار، والآيات صريحة بذلك، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ الله وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ (النساء: ١٢٣) وقوله: ﴿إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ* وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: ٤٢ – ٤٣) وقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيا﴾ (طه: ٧٤) وقوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إلى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ (مريم: ٨٦) وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٣).

وهذه مقدّمة واضحة ومتَّفق عليها بين الجميع، فإذا رُفع هذا العقاب بواسطة الشفاعة، فلا يخلو إما أن يكون عدلاً أو ظلماً؟ فإن كان الرفع عدلاً فوضع العقاب أولاً كان ظلماً، وهذا لا ينسجم مع قوله تعالى: ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: ٤٦) وإن كان الرفع ظلماً فكيف يطلبه الملائكة والأنبياء والمقرّبون من عباده، وهم كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦ – ٢٧) وهل طلبهم هذا إلا جهل لا تجوز نسبته إلى الأنبياء عليهم السلام.

والحاصل إن رفع العقاب عن المجرم يوم القيامة بعد ما أثبته الله تعالى بالوعيد، إما أن يكون عدلاً أو ظلماً، فإن كان الأول لزم أن

يكون أصل الحكم المستتبع للعقاب ظلماً لا يليق بساحة قدسه تعالى، وإن كان الثاني كان شفاعة الأنبياء مثلاً سؤالاً للظلم منه، وهو جهل لا يجوز نسبته إليهم صلوات الله عليهم.

جواب الإشكال الأول

من الواضح أن تمامية هذا الإشكال تعنى أن الشفاعة محالة وقوعاً لا ذاتاً، فهي لا تصدر عنه سبحانه لاستلزامها إما صدور الظلم منه أو نسبة الجهل إلى الأنبياء، وكلاهما لا يمكن وقوعه خارجاً.

ويمكن الإجابة عن ذلك بالقول: إن افتراض المستشكل أن النسبة بين الظلم والعدل هي نسبة التناقض بحيث يدور بينهما، غير تامّ، لأن القضية هنا ليست على نحو المنفصلة الحقيقية (إما هذا أو ذاك)، بل هناك شقّ ثالث في المقام، لأن وضع العقاب على المجرم والعاصي وإن كان عدلاً، إلا أن رفع العقاب ليس بظلم أيضاً، بل هو فضل وإحسان ورأفة وعفو وغفران.

ومثال ما نحن فيه: السارق الذي يستحقّ عقاباً على فعلته، والعقاب في حقّه عدل، لكن لو أراد صاحب الحقّ أن يتنازل عن حقّه وأن لا يعاقبه فلن يكون هذا ظلماً، بل هو في نظر العقلاء تفضّل ورأفة ورحمة ﴿وأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (البقرة: ٢٣٧) كذلك بالنسبة إلى الله تعالى، فلو عاقب المذنب من خلال اسمه «العادل» فبعدله، ولو عفا عنه من خلال اسمه «العفوّ» و«الغفور» و«الرحيم» و«الرؤوف» فبفضله وإحسانه ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠) ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيراً﴾ (النساء: ١٤٩).

ببيانٍ آخر: إن خروج الإنسان في مثل هذه الموارد من دائرة حكم ودخوله في دائرة حكم آخر، هو خروج موضوعيّ على نحو التخصّص لا على نحو التخصيص وحفظ الموضوع، فإن رفع العقاب بواسطة الشفاعة إنما يغاير الحكمَ الأول فيما ذكر من العدل والظلم لو كان نقضاً للحكم الأول وذلك بحفظ الموضوع واختلاف الحكم، وقد مرّ أنه ليس كذلك، بل أثر الشفاعة بالحكومة لا المضادّة فيها إخراج المجرم عن كونه مصداقاً لشمول العقاب بجعله مصداقاً لشمول الرحمة من صفات أخرى له تعالى من عفو ومغفرة وإحسان وفضل.

فالإنسان مع عدم الشفاعة يقتضي نحواً من المحاسبة والجزاء، ومع الشفاعة يقتضي نحواً آخر من المحاسبة والجزاء، فموضوع الحكم الأول (الإنسان مع الشفاعة) غير موضوع الحكم الثاني (الإنسان بدون الشفاعة). فهما موضوعان لحكمين مختلفين، لا موضوع واحد لحكمين متناقضين. وشبيه ما تقدّم «الإنسان مع التوبة» فله جزاء وحساب، وبدونها له حساب وجزاء آخر، وكلا الأمرين عدل كما هو واضح.

والخلاصة: إن الموضوع لو كان محفوظاً ومع ذلك تغيّر حكمه من العقوبة إلى اللاعقوبة لكان ذلك نقضاً للعدل، وليست الشفاعة كذلك، لأن أثرها ليس بالمضادّة ونقضاً للحكم الأول، بل أثرها بالحكومة على ما سبق بيانه.

الإشكال الثاني: تبدّل السنن الإلهية

من الحقائق الأساسية التي أكّدها القرآن هي أن سنّة الله تعالى جرت على صون أفعاله من التخلّف والاختلاف، فما قضى به يجريه على وتيرة واحدة من غير استثناء، وعلى هذا جرت سنّة الأسباب؛ قال تعالى: ﴿هذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلاَّ مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَاب لِكُلِّ بَاب مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (الحجر: ٤١ – ٤٤) فقوله تعالى: ﴿عليَّ﴾ أي: (كتبت على نفسي ذلك) وهو حقّ لابدَّ أن أراعيه، وقوله ﴿مستقيم﴾ أي لا انحراف فيه، فلا يعدل عنه إلى غيره.

ثم بيّنت الآية اللاحقة أن من أهمّ مصاديق ما كتبه تعالى على نفسه وأنه لا يعدل فيه إلى غيره هو ﴿وَإنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والمراد بكون جهنم موعدهم كونها محلّ إنجاز ما وعدهم الله من العذاب، لأن «موعد» اسم مكان.

من هنا أكّد القرآن الكريم أن السنن الإلهية لا تتبدّل ولا تتحوّل ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: ٤٣) أي أن السنن الإلهية التي وضعها الله تعالى لتدبير هذا العالم سواء في هذه النشأة أو النشآت السابقة واللاحقة لها لا تتبدّل ولا تتحوّل، لأنه تعالى على صراط مستقيم لا يقبل حكمه تبعيضاً ولا استثناء؛ قال تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (هود: ٥٦) وكونه تعالى على صراط مستقيم هو كون سنته في الخليقة واحدة

ثابتة غير متغيّرة، وهو تدبير الأمور على منهاج العدل والحكمة فهو يحقّ الحقّ ويبطل الباطل.

على ضوء هذه الحقيقة القرآنية يمتنع وقوع الشفاعة التي تمنع من دخول المذنبين النار مع إمكانها عقلاً، لأنها تخالف السنّة الإلهية التي كتبها الله تعالى على نفسه ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

جواب الإشكال الثاني

ويمكن الإجابة على هذا الإشكال بالنقض والحلّ:

أما نقضاً فإنّ التوبة ترفع العقاب عن العصاة، ومع ذلك لا يقول أحد إن سنّة الله تنتقض وتتبدّل وتتحوّل في مورد التوبة، فما يجاب به في التوبة نجيب به في الشفاعة أيضاً.

وأما حلاً، فإن الكبرى التي استند إلها المستشكل وإن كانت تامّة من حيث إن سنن الله تعالى لا تتبدّل ولا تتحوّل، لكن الصغرى لا تخلو من منع، لأنها تحدّثت عن سنّة واحدة لله تعالى في خصوص العصاة والمذنبين وهي سنّة العقاب، مع أن لله سنناً أخرى حاكمة عليهم أيضاً. فلا يمكن التمسّك بقاعدة أن سنن الله لا تتبدّل لأنه من التمسّك بالعام في الشبهة المصداقية – على حد تعبير الأصوليين – فإن الآية المباركة قالت إن سنّة الله لا تتبدّل ولا تتحوّل، لكنها لم تتعرّض لبيان السنن ومصاديقها؛ من هنا لابدّ من الرجوع إلى القرآن للوقوف عليها، فإذا ثبت أن الشفاعة ترفع العقاب عن المذنب كما مرّ اثباته فتكون هي أيضاً مصداقاً للسنّة الإلهية، ولن يكون هناك تبديل

وتحويل في السنّة الإلهية المختصّة بالمذنبين؛ لتعدّد هذه السنن وعدم اقتصارها على سنّة العقوبة وحدها.

وببيان آخر لوكان لله سبحانه اسم «العادل» وصفة «العدالة» فقط لتمّ ما قيل في الإشكال، لأن صدور الآثار التي لا تنسجم مع ذلك الاسم وتلك الصفة نقض للسنّة الإلهية، غير أن الله تعالى كما هو عادل فهو أيضاً رؤوف ورحيم وعفوّ وكريم ومحسن ومفضل... ولكلّ اسمٍ من هذه الأسماء أثر وسنّة تناسب ذلك الاسم، فكما أن له تعالى مثلاً سنّة من حيث هو محيي له سنّة من حيث هو مميت، ومن الواضح جدّاً أن أثر المحيي غير أثر المميت، ومع ذلك لا يدّعي أحد أن في ذلك تبديلاً وتحويلاً لسنن الله تعالى، كذلك في مورد الإشكال فإن لله تعالى بمقتضي اسمه العادل سنّة يعاقب بها، وبمقتضي اسمه الرؤوف والرحيم سنّة يرفع بها العقاب ضمن شروط خاصّة، ولا يعني هذا تبديلاً وتحويلاً في سنن الله تبارك وتعالى.

وإلى هذا أشار بعض الأعلام حيث قال: «إنه لا ريب في أن صراطه تعالى مستقيم وسنّته واحدة، لكن هذه السنّة الواحدة الغير المختلفة ليست قائمة على أصل صفة واحدة تعالى كصفة التشريع والحكم مثلاً حتى لا يتخلّف حكم عن مورده ولا جزاء حكم عن محلّه قطّ، بل هي قائمة على ما يستوجبه جميع صفاته المربوطة عَلَتْ صفاته.

توضيح ذلك: مرّ في الأبحاث السابقة أن الله سبحانه هو الواهب المفيض لكلّ ما في الوجود من حياة أو موت أو رزق أو نعمة أو غير ذلك، وهي أمور مختلفة لا ترتبط به سبحانه على السواء ولا برابطة واحدة كيف كانت، فإن فيه بطلان الارتباط والسببية، فهو تعالى لا

يشفي مريضاً من غير سبب موجب ومصلحة مقتضية، ولا يشفيه لأنه الله المميت المنتقم شديد البطش، بل لأنه الله الرؤوف الرحيم المنعم الشافي المعافي مثلاً، ولا يهلك جبّاراً مستكبراً من غير سبب لأنه رؤوف رحيم، بل لأنه الله المنتقم الشديد البطش القهّار مثلاً وهكذا.

والقرآن بذلك ناطق، فكلّ حادث من الحوادث بما يشتمل عليه من جهات الوجود يسند إليه من جهة صفة أو أكثر من صفاته العليا، تتسبّب إليه بالتلاؤم والائتلاف الواقع بينها والاقتضاء المستنتج من ذلك، وإن شئت قلت: كلّ أمر من الأمور يرتبط به تعالى من جهة ما يتضمّنه من المصالح والخيرات.

إذا عرفت هذا علمت أن استقامة صراطه وعدم تبدّل سنّته وعدم اختلاف فعله إنما هي بالنسبة إلى ما يفعله بجميع صفاته المربوطة لا بالنسبة إلى مقتضى صفة واحدة. وإن شئت قلت: بالنسبة إلى ما يتحصّل من الفعل والانفعال والكسر والانكسار الواقع بين الحكَم والمصالح المرتبطة بالمورد، لا بالنسبة إلى مقتضى مصلحة واحدة، فلو كان هناك سبب الحكم المجعول فقط لم يتغيّر ولم يختلف في برّ ولا فاجر ولا مؤمن ولا كافر، لكن الأسباب كثيرة ربما استدعى توافق عدّة منها غير ما يقتضيه بعضها. فوقوع الشفاعة وارتفاع العقاب - وذلك أثر عدّة من الأسباب كالرحمة والمغفرة والحكم والقضاء وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه والفصل في القضاء - لا يوجب اختلافاً في السنّة الجارية وضلالاً في الصراط المستقيم»[1].

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١ص ١٦٣ وج ٨ ص ٣٥٣.

الإشكال الثالث: لزوم الترجيح بلا مرجّح

لاشك أن الشفاعة لا تشمل جميع ألوان الجرائم والمعاصي وعامّة أنواع العصاة والمجرمين، لأنه يلزم حينئذ أن يكون القانون الإلهي لغواً ويعود التكليف بلا أثر، وهو لعب ينافي الحكمة الإلهية قطعاً، وإنما الشفاعة في بعض ألوان الجرم وفي حقّ بعض المجرمين دون بعض، من هنا يطرح هذا التساؤل:

لما كانت حقيقة كلّ جرم هي التجاوز على الحدود الإلهية، والمجرم هو من يعتدي على هذه الحدود ﴿تِلْكَ حُدُودُ الله فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢٩) إذن فلا فرق بين المجرمين في أنَ كلّ واحد منهم مجرم، ولا بين الذنوب في أنّ كلاً منها ذنب وخروج عن زيّ العبودية لله تعالى، فتخصيص بعضهم أو بعض من أعمالهم بالصفح والإغماض دون بعض بواسطة الشفاعة محال لأنه ترجيح بلا مرجّح. وإنما تجري الشفاعة وما يشبهها في سنّة هذه الحياة حيث تبتني الأعمال والأفعال على الأهواء والأوهام التي ربّما تقضي في الحقّ والباطل على السواء، وتجري عن الحكمة وعن الجهالة على نسق واحد.

الإجابة على الإشكال

والجواب: إن ما ذكر في الإشكال من لزوم الترجيح بلا مرجّح إنما يتمّ إذا كانت جميع ألوان الذنوب على درجة واحدة من الآثار

والتبعات في الدنيا والآخرة. أما إذا اختلفت تلك الآثار والنتائج المترتّبة عليها فلا مجال لهذا الاعتراض، وهذا ما أثبته القرآن الكريم حيث قسّم المعاصي والذنوب إلى كبائر وصغائر؛ قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ (النساء: ٣١) حيث دلّت الآية أن الذنوب لو كانت بأسرها كبائر لم يصحّ الفصل بين ما يكفّر باجتناب الكبائر وبين الكبائر. نعم العصيان والتمرّد كيفما كان كبير وأمر عظيم بالنظر إلى ضعف المخلوق المربوب في جنب الله عظم سلطانه، غير أن القياس في هذا الاعتبار إنما هو بين الإنسان وربّه لا بين معصية ومعصية، فلا منافاة بين كون كلّ معصية كبيرة باعتبار وبين كون بعض المعاصي صغيرة باعتبار آخر.

من هنا جاء التفريق بين الذنوب في القرآن الكريم بأن جعل بعضها لا يُغفر أبداً إلا مع الإيمان والتوبة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨) وبعضها تغتفر بلا توبة كما في الآية المتقدّمة ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ (النساء: ٣١) حيث بيّنت أن اجتناب الكبائر يوجب غفران السيّئات. والسيّئة وإن كان لها إطلاقات عديدة في القرآن الكريم ومنها إطلاقها على المعاصي جميعاً أعمّ من الكبائر والصغائر كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية: ٢١) إلا أن المراد منها هنا الصغائر؛ إذ مع فرض اجتناب الكبائر لا تبقى للسيّئات إلا الصغائر.

وهذا ما أكّدته الروايات الواردة من الفريقين في هذا المجال:

في «مجمع البيان» روى عبد العظيم بن عبد الله الحسني عن أبي جعفر محمد بن علي عن أبيه علي بن موسى الرضا عن موسى بن جعفر عليهم السلام قال: دخل عمرو بن عبيد البصري على أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فلما سلّم وجلس تلا هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ..﴾ (الشورى: ٣٧) ثم أمسك. فقال أبو عبد الله الصادق: ما أسكتك؟ قال: أحبّ أن أعرف الكبائر من كتاب الله. قال عليه السلام: نعم يا عمرو:

• **أكبر الكبائر الشرك بالله؛ لقول الله عزّ وجلّ:** ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (النساء: ٤٨) **وقوله:** ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ (المائدة: ٧٢).

• **وبعده اليأس من رَوْح الله؛ يقول:** ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧).

• **ثم الأمن من مكر الله؛ لأن الله يقول:** ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٩).

• **ومنها عقوق الوالدين؛ لأن الله تعالى جعل العاقّ جبّاراً شقيّاً في قوله:** ﴿وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾ (مريم: ٣٢).

• **ومنها قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ؛ لأنه يقول:** ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً﴾ (النساء: ٩٣).

• **وقذف المحصنات؛ لأن الله يقول:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ٢٣).

• **وأكل مال اليتيم؛ لقوله:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (النساء: ١٠).

• **والفرار من الزحف؛ لأن الله يقول:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الأنفال:١٥ – ١٦).

• **وأكل الربا؛ لأن الله يقول:** ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥) ويقول: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ (البقرة: ٢٧٩).

• **والسحر؛ لأن الله يقول:** ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ (البقرة: ١٠٢).

• **والزنا؛ لأن الله يقول:** ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾ (الفرقان: ٦٨– ٦٩).

• **واليمين الغموس؛ لأن الله يقول:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٧٧).

• **والغلول؛ قال تعالى:** ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ١٦١).

• ومنع الزكاة المفروضة؛ لأن الله يقول: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٥).

• وشهادة الزور وكتمان الشهادة؛ لأن الله يقول: ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

• وشرب الخمر، لأن الله عدل بها عبادة الأوثان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ (المائدة: ٩٠).

• وترْك الصلاة متعمّداً وشيئاً مما فرض الله تعالى؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من ترك الصلاة متعمّداً فقد برئ من ذمّة الله وذمّة رسوله.

• ونقص العهد وقطيعة الرحم؛ لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٥).

قال: فخرج عمرو بن عبيد له صراخ من بكائه وهو يقول: هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم[١].

في ضوء هذه الحقيقة القرآنية يتّضح أن تشريع الشفاعة في حقّ البعض دون البعض الآخر وقبولها في بعض الذنوب دون بعضها الآخر هو الذي ينسجم مع الآيات القرآنية في هذا المجال.

---

(١) الكافي: ج٢، ص ٢٨٥، دار الكتب الإسلامية، طهران.

الإشكال الرابع: لزوم تغيّر العلم في حقه تعالى

إن الشفاعة المعروفة عند الناس إنما تتمّ من خلال حمل المشفوع عنده إما على تغيير علمه أو على تغيير إرادته، وتختصّ حالة تغيير العلم بالمشفوع عنده العادل، لأنه لا يرفع يده عن العقوبة إلا إذا تغيّر عنده العلم بحيث أصبح يعتقد بعدم استحقاق هذا الفرد للعقوبة. أما حالة تغيّر الإرادة فتتصوّر بالنسبة إلى المشفوع عنده المستبّد الظالم، فإنه وإن علم باستحقاق المذنب للعقوبة إلا أنه ولقرابة أو وساطة ما يغيّر إرادته من العقوبة إلى ضدّها.

ومن الواضح أن هذه الشفاعة المتعارفة عند العرف والعقلاء ممتنعة عقلاً على الله تعالى؛ لاستحالة تغيّر علمه أو إرادته تبارك وتعالى. قال محمد عبده في تفسيره: «الشفاعة المعروفة عند الناس هي أن يحمل الشافع المشفوع عنده على فعل أو ترك كان أراد غيره - حكم به أم لا - فلا تتحقّق الشفاعة إلا بترك الإرادة وفسخها لأجل الشفيع. فأما الحاكم العادل فإنه لا يقبل الشفاعة إلا إذا تغيّر علمه بما كان أراده أو حكم به، كأن كان أخطأ ثم عرف الصواب ورأى أن المصلحة أو العدل في خلاف ما كان يريده أو حكم به. وأما الحاكم المستبدّ الظالم فإنه يقبل شفاعة المقرّبين عنده في الشيء وهو عالم بأنه ظلم وأن العدل في خلافه، ولكنّه يفضّل مصلحة ارتباطه بالشافع المقرّب منه على العدالة. وكلّ من النوعين محال على الله تعالى، لأن إرادته تعالى على حسب علمه، وعلمه أزليّ لا يتغيّر»[١].

---

(١) تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار: ج ١ ص ٢٦٩.

دفع الإشكال

ويمكن دفع هذا الإشكال من خلال النقض والحلّ:

أما **النقض** فواضح؛ إذ ينتقض هذا الإشكال بموارد عديدة، منها:

• التوبة، قال عزّ من قائل: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ٥) فقد حكمت الآية على الإنسان المشرك بالقتل، وعلى الذي تاب من شركه بالتخلية لسبيله وإطلاق سراحه وعدم التعرّض له. وكذلك قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً * إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ (مريم: ٥٩-٦٠).

• الاستغفار؛ قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ (نوح: ١٠-١٢) وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٣).

• التقوى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦) ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ (الطلاق: ٢- ٣).

• الشكر؛ قال تعالى: ﴿وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧) وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ (سبأ: ١٥-١٧).

• صلة الرحم؛ قال الإمام الباقر عليه السلام: «**صلة الأرحام تزكّي الأعمال، وتنمي الأموال، وتدفع البلوى، وتيسّر الحساب، وتنسئ في الأجل**»[(١)]. وقال الإمام أبو الحسن الرضا عليه السلام: «**يكون الرجل يصل رحمه فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيّرها الله ثلاثين سنة ويفعل الله ما يشاء**»[(٢)].

• الدعاء؛ قال الإمام أبو الحسن موسى الكاظم عليه السلام: «**عليكم بالدعاء فإن الدعاء لله والطلب إلى الله يردّ البلاء وقد قضي ولم يبقَ إلا إمضاؤه، فإذا دُعي الله عزّ وجلّ وسُئل صرف البلاء صرفة**»[(٣)]. وروى الحاكم بسنده عن ثوبان قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**لا يردّ القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البرّ، وإن الرجل ليُحرَم الرزق بالذنب يصيبه**»[(٤)].

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ١٥٠ باب صلة الرحم، الحديث: ٤.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ١٥٠ باب صلة الرحم، الحديث: ٣.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٤٧٠ الحديث: ٨ .

(٤) **المستدرك على الصحيحين**: ج ١ ص ٤٩٣.

وهناك موارد أخرى تشبه ما تقدّم، حيث توجد إرادة من قبل، ثم تتغيّر إلى إرادة أخرى من بعد، وتغيّر الإرادة مستلزم - على زعم صاحب الإشكال - لتغيّر العلم، وكلّ تغيّر للعلم تغيّر للذات، وتغيّر الذات ممتنع عقلاً كما هو ثابت في مباحث الإلهيات، فما يجاب به في مثل هذه الموارد نجيب به في مورد الشفاعة أيضاً.

وأما **الحلّ**، فيتوقّف بيانه على ذكر مقدّمة أشار إليها المحققون في مباحث العلم الإلهي، حيث ميّزوا بين العلم بالتغيّر والتغيّر في العلم، وقالوا: إن الأول ممكن ولا محذور فيه، والثاني محال في حقّه تعالى.

توضيح ذلك:

إن الحكم يتبع موضوعه، فكلّ موضوع له حكم خاصّ، فما دام الموضوع باقياً على وضعه الأول، لا ينفكّ عنه الحكم. فإذا تبدّل إلى موضوع آخر، يتبدّل حكمه إلى حكم آخر أو يصير ذا حكم جديد غير ما حكم به على الموضوع الأول. فمثلاً: المائع ما دام كونه خمراً فهو رجس يجب الاجتناب عنه، فإذا تبدّل إلى الخلّ يتبدّل حكمه أثر تبدّل موضوعه، فيكون محكوماً بالطهارة، ولا يعدّ الحكم الثاني ناقضاً للحكم الأول، ولا يوجب اختلاف الحكم اختلافاً وتبدّلاً في علم الحاكم، بل للحاكم من أول الأمر علمان وحكمان، كلّ مُرتبط بموضوعه، فقد كان الحاكم عالماً وحاكماً بأن الخمر نجس حرام، وأن الخلّ طاهر حلال، وما حصل من التغيير فإنما هو تغيير في المعلوم والموضوع لا في العلم.

ومثل هذا لو علم الطبيب أن علاج مريضه قد يستمرّ لمدة أشهر

عديدة، وأنه في كلّ شهر يحتاج إلى نوع من الدواء يختلف عما يحتاجه في الشهر الآخر، فمن الواضح هنا أن علم الطبيب لم يتغيّر، وإنما الذي يتغيّر هو المعلوم الذي يمثّله حال المريض، فهذا علم بالتغيّر.

وأما تغيّر العلم فهو ما إذا بطل انطباق العلم على المعلوم مع بقاء المعلوم على حاله، كمن يرى من بعيد شيئاً ما فيتوهّمه إنساناً، ولكن ما إن يقترب منه حتى يتبيّن له بأنه فرس مثلاً، فعلمٌ مثل هذا علمٌ متغيّر، مع ثبوت المعلوم الذي هو الفرس في الحالتين. ومثله ما لو غيّر الطبيب الدواء الذي أعطاه لمريضه فلم يشفه فبدّله إلى غيره.

والخلاصة أنه في العلم بالتغيّر يكون العلم ثابتاً وإنما يتغيّر المعلوم، بخلافه في تغيّر العلم فإن المعلوم يبقى ثابتاً ويحصل التغيّر في العلم.

في ضوء هذا التمييز إذن: المستحيل على الله تعالى هو تغيّر علمه، وأما علمه بالتغيّر فهو أمر جائز في حقّه تعالى، من هنا فلو علم الحقّ سبحانه من زيد مثلاً أنه إذا فعل المعصية فهو يستحقّ العقوبة، لكن إذا ضمّ إليها التوبة أو الشفاعة فلا يستحقّ تلك العقوبة، فهنا لم يتغيّر علم الله تعالى، بل بقي علمه للعاصي هو هو، وعلمه للعاصي مع التوبة هو هو، وعلمه للعاصي مع الشفاعة هو هو، غير أن له تعالى في كلّ حالة أثراً وحكماً يختلف عما له في الحالات الأخرى. وبها يجاب عما تقدّم من الموارد التي أشرنا إليها في النقض أيضاً.

ببيان آخر: إن الله سبحانه وطبقاً للعلم الذي كان يعلمه من زيد بما هو عاصٍ كان يريد له العقوبة، لأنه شديد العقاب، وفي العلم الذي

كان يعلمه منه بما هو عاصٍ تائب كان يريد العفو عنه لأنه غفور رحيم، فالإرادة إرادة أخرىً لحدوث معلوم آخر لا لتجدّد علمه سبحانه. من هنا قالت الآية: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٢٩) فمن السموات والأرض سؤال دائم وهو سؤال حاجة لأنهم في حاجة من جميع جهاتهم إليه تعالى، فهم متمسّكون بذيل غناه وجوده ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ (فاطر: ١٥) ومنه تعالى الجواب الدائم ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وتنكير «شأن» للدلالة على التفرّق والاختلاف، فالمعنى: كلّ يوم هو تعالى في شأنٍ غير ما في سابقه ولاحقه من الشأن. فمن يسأله يجيبه تبارك وتعالى على مقتضى سؤاله: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ (إبراهيم: ٣٤) فإن سأله التوبة أجابه بمقتضى «الغفور الرحيم» وإن سأله العقاب بالعصيان أجابه بمقتضى «شديد العقاب».

فتحصّل إلى هنا أن الشفاعة ورفع العقاب ليس من تغيّر الإرادة والعلم في شيء، وإنما التغيّر في المراد والمعلوم، فهو سبحانه يعلم أن الإنسان الفلاني سيتحوّل عليه الحالات، فيكون في حين كذا على حال كذا لاقتران أسباب وشرائط خاصّة فيريد فيه بإرادة، ثم يكون في حين آخر على حال آخر يخالف الأول؛ لاقتران أسباب وشرائط أخر فيريد فيه بإرادة أخرى، لأنه تعالى كلّ يوم هو في شأن. نعم تغيّر العلم والإرادة المستحيل عليه تعالى هو بطلان انطباق العلم على المعلوم والإرادة على المراد مع بقاء المعلوم والمراد على حالهما وهو الخطأ والفسخ، مثل أن ترى شبحاً فتحكم بكونه إنساناً ثم يتبين أنه ليس كذلك فيتبدّل العلم، أو تريد أمراً لمصلحة ما ثم يظهر لك أن المصلحة

على خلافه فتنفسخ إرادتك، وهذان غير جائزين في مورده تعالى.

على هذا يتّضح أن الشفاعة لا توجب اختلافاً في علمه وتغييراً في إرادته تعالى، لأن اختلاف الحكم بالشفاعة في مورد العاصي من قبيل اختلاف الحكم حسب اختلاف الموضوع.

وبذلك يتّضح الجواب عن الأوامر الامتحانية أيضاً والحكمة الكامنة فيها، فإن الأمر الصادر من الله تعالى تارة يكون جدّياً وأخرى امتحانياً، ولكلّ غايته وهدفه الخاصّ، فالهدف من الأوامر الجدية هو وصول المكلّف إلى ما يترتّب على فعله من المصالح التي تقع في طريق وصوله إلى القرب الإلهي، كإقامة الصلاة لأجل الانتهاء عن الفحشاء والمنكر ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥) وإتيان الصيام للوصول إلى التقوى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٨٣).

وأما الأوامر الامتحانية فليس الهدف منها إلا جعل العبد في مقام الامتحان والابتلاء حتى يستظهر ما عنده من الصفات النفسانية الكامنة كالإطاعة والشجاعة والسخاء والعفّة والعلم والوفاء أو مقابلاتها، ولذلك لا يكون الابتلاء إلا بعمل، فإن الفعل هو الذي به تظهر الصفات الكامنة من الإنسان دون القول الذي يحتمل الصدق والكذب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (البقرة: ٢٤٩).

ولعلّ من أوضح المصاديق التي ذكرها القرآن للأوامر الامتحانية

هو أمره تعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام أن يذبح ولده؛ قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَا ذا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * لَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات: ١٠١– ١٠٩).

فإبراهيم الخليل عليه السلام وإن كان يملك كمالاً بالقوّة وهو ترك ما سوى الله في طريق التحقّق بالتوحيد الخالص وهو الذي يلقى الله عزّ وجلّ وليس فيه أحد سواه، ﴿إذ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الصافات: ٨٤) لكن هذا الكمال كان مكنوناً في ذاته مركوزاً في وجوده، فأراد الله سبحانه إظهار ذلك الكمال وإبرازه من مكمن وجوده إلى ساحة الفعلية والتحقّق، فأمره بذبح الولد فامتثل الخليل لذلك وأظهر أنه يؤثر طاعته سبحانه على كلّ ما يملك من العواطف القلبية لولده العزيز، فعند ذلك تفتّح ذلك الكمال وبلغ منصّة الظهور وتحقّقت الغاية من الأمر الإلهي.

ومن الواضح أن الحكم الثاني في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ ليس ناقضاً للحكم الأول في قوله: ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ لأنهما حكمان على موضوعين مختلفين، فالخليل الواجد للكمال بالقوّة مخاطب بذبح الولد، والخليل الواصل إلى هذه الذروة من التوحيد مخاطب بحكم آخر وهو التفدية عنه بذبح عظيم.

الإشكال الخامس: لزوم التجرّي

إنّ تشريع الشفاعة يجرّ إلى التمادي في العصيان والتعدّي والإصرار على العدوان، لما يرون أن الشفاعة ستؤدي إلى أن يتساوى العاصي والمطيع والمذنب والبريء في آخر المطاف. قال الطباطبائي: «إن وعد الشفاعة منه تعالى أو تبليغها من الأنبياء عليهم السلام مستلزم لتجرّي الناس على المعصية وإغراء لهم على هتك محارم الله تعالى، وهو منافٍ للغرض الوحيد من الدين من سوق الناس إلى العبودية والطاعة، فلابدّ من تأويل ما يدلّ عليه من الكتاب والسنّة بما لا يزاحم هذا الأصل البديهي»[(١)].

ولعلّ هذا هو مراد محمد فريد وجدي حيث قال: «الشفاعة: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب، وفي الاصطلاح الديني سؤال بعض الصالحين من الله التجاوز عن معاقبة بعض المذنبين. وقد أضرّت هذه العقيدة بأكثر الأديان وما هي إلا تحريف تقصّده الكهّان ليكون لهم شأن عند الناس»[(٢)].

جواب الإشكال الخامس

وهذا الإشكال أيضاً يمكن الجواب عنه بالنقض والحل:

أما **النقض**، فإن الله سبحانه قد وعد الناس العفو والمغفرة إن

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ١٦٥.

(٢) **دائرة معارف القرن العشرين**: محمد فريد وجدي: ج ٥ ص ٤٠٢ دار الفكر.

تابوا، لأنه التوّاب الرحيم الذي يغفر الذنوب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ (النساء: ٤٨) والآية في غير مورد الإيمان والتوبة جزماً، وإلا فإن الإيمان والتوبة يغفر بهما جميع الذنوب ومنها الشرك أيضاً ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ (الزمر: ٥٣). وحينئذٍ يمكن أن يقال إذا علم الإنسان أن الله تعالى يغفر كلّ ما دون الشرك من الذنوب بلا توبة، فإنه يوحّد الله تعالى ثم لا يلتزم بأيّ شريعة، فيلزم التجرّي أيضاً، ولا يقول أحد بذلك.

وأما **الحلّ** فيمكن أن يقرَّر ببيانين:

البيان الأول: إن الشفاعة إنما تستلزم التجرّي إذا توفر شرطان:

- إذا عُيّن المجرم الذي يُعفى عنه بنفسه وصفته، أو عُيّن الذنب الذي يُعفى منه من غير تعليق على شرط جائز التحقّق والوقوع.
- أن يكون تأثير الشفاعة في جميع أنواع العقاب وأوقاته.

وعلى هذا فلو كانت الشفاعة مطلقة من جميع الجهات وعلى نحو الموجبة الكلّية بحيث يقال: إنها لجميع المذنبين أو لتلك الطائفة بعينها وإنها من جميع الذنوب أو لذلك الذنب بعينه وفي كلّ الأحوال، للزم منها التجرّي ونقض الغرض.

إلا أنه سيتّضح في الفصول اللاحقة أن الأمر ليس كذلك وإنما هي مبهمة من حيث كلا الشرطين، فلم يعيّن كون الشفاعة في أيّ الذنوب وفي حقّ أيّ المذنبين أو كون العقاب المرفوع هو جميع العقوبات وفي جميع الأحوال والأوقات، فلا تعلم نفس هل تنال الشفاعة الموعودة أو لا، فلا تتجرّى على هتك محارم الله.

والنصّ القرآني صريح في أن وعد الله بالمغفرة والشفاعة ليست مطلقة من دون شرط، بل هي معلّقة على مشيئته تعالى ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨) ﴿لا تُغْني شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى﴾ (النجم: ٢٦) ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ (الأنبياء: ٢٨).

لا يقال: إن الإنسان إذا كان دينه مرضيّاً عند الله فلا خوف عليه من ارتكاب المعاصي ما دامت الشفاعة تشمله.

لأنه يقال: إن الأمر ليس كذلك، لما ورد في القرآن الكريم أن بعض المعاصي قد تُخرج الإنسان من الدين المرضيّ عند الله وتجعله من الكافرين المكذّبين بآيات الله تعالى كما ورد في قوله: ﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساءُوا السُّوأى أَنْ كَذَّبُوا بآياتِ الله وَكانُوا بِها يَسْتَهْزئوُنَ﴾ (الروم: ١٠) حيث ساقتهم المعاصي إلى الكفر بتكذيب آيات الله والاستهزاء بها. وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْر الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٥-١٦).

فقد يبدأ الإنسان بذنب صغير ثم يصرّ عليه فيولّد الإصرار وطول الأمد قساوةَ القلب، فإذا قسى القلب كان الإنسان فاسقاً وكافراً ومكذّباً بآيات الله، حينئذ يكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٩٦).

من هنا أكّدت الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن بعض الذنوب والمعاصي قد تسلب الإنسان إيمانه فلا يمكنه أن يعيده أبداً.

• قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «**من زنى خرج من الإيمان، ومن شرب الخمر خرج من الإيمان، ومن أفطر يوماً من شهر رمضان متعمّداً خرج من الإيمان**»(١).

• وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً، قيل له: هل يزني الزاني وهو مؤمن؟ قال: **لا، إذا كان على بطنها سُلب الإيمان، فإذا قام رُدّ إليه، فإذا عاد سُلب**. قلت: فإنه يريد أن يعود؟ فقال: **ما أكثر من يريد أن يعود فلا يعود إليه أبداً**»(٢).

• وعن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام كان يقول: «**ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة، إن القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصيّر أعلاه أسفله**»(٣). فإن صار القلب منكوساً كان كالإناء المنكوس ينزل عليه المطر ولا يدخل فيه، هكذا قلوب هؤلاء تتنزل عليها الرحمة الإلهية والنور الإلهي ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ﴾ (الإسراء: ٢٠) فلا يؤثّر فيها شيء ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤).

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ٢ص ٢٧٨ كتاب الايمان والكفر، باب كبائر الذنوب، الحديث: ٥.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج ٢ص ٢٧٨ الحديث: ٦.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٢٦٨ الحديث: ١.

• وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أيضاً قال: «**إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً**»[1].

والمراد من القلب هنا ليس هذا الجسم الصنوبري الذي يقع على يسار صدر الإنسان، بل هي تلك اللطيفة الربانية الروحانية التي وجدت في الإنسان من خلال النفخ الإلهي: ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩). والذنب نكتة سوداء تُخرج الإنسان من النور إلى الظلمات ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة: ٢٥٧) ولا يعلم الإنسان أي ذنب من الذنوب له هذا الأثر فلابدّ أن يحذرها جميعاً.

• وعن الامام محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: **إن العبد يسأل الله الحاجة فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجل قريب أو إلى وقت بطيء، فيذنب العبد ذنباً فيقول الله تبارك وتعالى للملك: لا تقض حاجته واحرمه إيّاها، فإنه قد تعرّض لسخطي واستوجب الحرمان منّي**»[2].
ولعلّ حاجة العبد هي التوبة وقبولها من الله سبحانه، فبالذنب يخرج عن استحقاقها فلا يوفّق لها أبداً.

• وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: «**من همّ بسيّئة فلا يعملها** (نهي) **فإنه ربّما عمل العبد السيّئة فيراه الربّ تبارك**

---

(١) الأصول من الكافي: ج ٢ ص ٢٧١ الحديث: ١٣.
(٢) الأصول من الكافي: ج ٢ ص ٢٧١ الحديث: ١٤.

وتعالى فيقول: وعزّتي وجلالي لا أغفر لك بعد ذلك أبداً»[١].

من هنا نخلص إلى أن حفظ الإيمان مع ارتكاب الذنوب أمر صعب مستصعب بعيد المنال كثير الخطوب، لما تقدّم أن المعاصي تُضعف الإيمان وتقسي القلب وتجلب الشرك. وقد شبّه بعض المحققين الشفاعة والتوبة بالدواء، ولا يوجد عاقل يقدم على الابتلاء بالمرض بأمل الشفاء بالدواء. نعم إذا مرض فعليه أن يسعى للحصول على الدواء والشفاء. هذا مضافاً أن العاقل لا يرتكب المعصية وأثرها قطعي الثبوت معتمداً على الشفاعة وشمولها له احتمالي الثبوت، ولو فعل ذلك لكان مجنوناً، فإن العقل «**ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان**»[٢].

هذا كلّه إذا لم يعيَّن المجرم المشفوع له أو الجرم المشفوع فيه. وأما إذا عُيّن كلّ ذلك لكن صرّح بشموله على بعض جهات العذاب أو بعض أوقاته فلا يوجب تجرّي المجرمين قطعاً، لأن هذا لا يتنافى مع الدخول في النار وإن لم يخلدوا فيه. وهذا معناه «أن الذي يثبته القرآن من الشفاعة هو أن المؤمنين لا يخلدون في النار يوم القيامة بشرط أن يلاقوا ربّهم بالإيمان المرضيّ والدين الحق، فهو وعد وعده القرآن مشروطاً، ثم نطق بأنّ الإيمان من حيث بقائه على خطر عظيم من جهة الذنوب ولا سيّما الكبائر ولا سيما الإدمان والإصرار عليها، فهو شفا جرف الهلاك الدائم، وبذلك يتحصّل رجاء النجاة وخوف

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٢٧١ الحديث: ١٧.

(٢) **الكافي**: ج١، ص١١.

الهلاك، ويسلك نفس المؤمن بين الخوف والرجاء فيعبد ربّه رغبة ورهبة ويسير في حياته سيراً معتدلاً غير منحرف، لا إلى خمود القنوط ولا إلى كسل الوثوق»(١).

عظة أخلاقية

قد يخطر على بال الإنسان أحياناً بوسوسة الشيطان وهوى النفس أن المؤمن إذا لم يكن مخلّداً في النار فليرتكب من الذنوب ما يشاء وليستمتع بحياته كيفما يريد، وليست العاقبة إلا زمناً قلّ أو أكثر يكون في جهنّم ثم يعفى عنه ويخرج من النار إلى الجنة بالشفاعة.

ولكي يتّضح الخطأ والاشتباه الفادح الذي يقع فيه أصحاب هذه التوهّمات، نعرض بعض الروايات التي تصف نار جهنم وعذاباتها وحالات المعذّبين فيها، حيث وصف القرآن ذلك بقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ * وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ (الفجر: ٢٥-٢٦) أي أنه في ذلك اليوم لا يعذّب عذاب الله أحد من الخلق ولا يوثق وثاق الله أحد من الخلق، بمعنى أن عذابه ووثاقه تعالى يومئذ فوق عذاب الخلق ووثاقهم. وكيف يمكن تحمّل نار سجّرها جبّارها لغضبه كما وصفها أمير المؤمنين علي عليه السلام.

• روى الصدوق رحمه الله بإسناده عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: **بينا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم قاعداً إذ أتاه جبرئيل عليه السلام وهو كئيب حزين متغيّر اللون، فقال رسول الله صلى**

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ١٨٥.

الله عليه وآله: يا جبرئيل مالي أراك كئيباً حزيناً؟

فقال: يا محمد فكيف لا أكون كذلك وإنما وضعت منافيخ جهنّم اليوم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: وما منافيخ جهنّم يا جبرئيل؟

فقال: إن الله تعالى أمر بالنار فأوقِد عليها ألف عام حتى احمرّت، ثم أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضّت، ثم أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى اسودّت، وهي سوداء مظلمة، فلو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على أهل الدنيا لذابت الدنيا من حرّها.

ولو أن قطرة من الزقّوم والضريع قطّرت في شراب أهل الدنيا مات أهل الدنيا من نتنها.

قال: فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وبكى جبرئيل عليه السلام، فبعث الله إليهما ملكاً فقال: إن ربّكما يقرئكما السلام ويقول: إني قد أمنتكما من أن تذنبا ذنباً أعذّبكما عليه»[(١)].

• وبإسناده عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال:

لما نزلت هذه الآية ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ (الفجر: ٢٣) سُئل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أخبرني الروح الأمين أن الله لا إله غيره إذا جمع الأولين والآخرين أتى بجهنّم تقاد بألف زمام، أخذ بكلّ زمام ألف ملك من الغلاظ الشداد، لها هدّة وتغيّظ وزفير، وإنها لتزفر الزفرة، فلولا أن الله أخّرهم إلى الحساب لأهلكت الجميع. ثم يخرج منها عُنق

(١) **علم اليقين في أصول الدين**، تأليف: الحكيم المتألّه محمد بن المرتضى المدعوّ بالمولى محسن الكاشاني: ج ٢ ص ١٠٣٢، انتشارات بيدار، الباب الخامس عشر في صفة النار وأهلها.

محيط بالخلائق البرّ منهم والفاجر، فما خلق الله عبداً من عباده - ملك ولا نبي - إلا ينادي: يا ربّ نفسي نفسي، وأنت تقول: يا ربّ أُمّتي أُمّتي»(١).

• وبإسناد الصدوق عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما أسري به لم يمرّ بخَلْق من خلْق الله إلا رأى ما يحبّ من البِشر واللُطف والسرور، حتى مرّ بخلق من خلق الله فلم يلتفت إليه ولم يقل شيئاً فوجده قاطباً عابساً.

فقال: يا جبرئيل ما مررت بخلق من خلق الله إلا رأيت البشر واللطف والسرور منه إلا هذا، فمن هذا؟

قال: هذا مالك خازن النار، هكذا خلقه ربّه.

قال: فإني أحبّ أن تطلب إليه أن يريني النار.

فقال له جبرئيل: إن هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وقد سألني أن أطلب إليك أن تريه النار.

قال: فأخرج له عنقاً منها فرآها.

قال: فما افترّ رسول الله صلى الله عليه وآله ضاحكاً حتى مات (٢).

البيان الثاني: تشريع الشفاعة لأجل غايات تربوية

إن تشريع الشفاعة والاعتراف بها في النظام الإسلامي إنما هو

---

(١) **الأمالي**، للشيخ الصدوق: ص ١٧٦ المجلس: ٣٣ نقلاً عن: **علم اليقين في أصول الدين**: ج ٢ ص ١٠٣٣.

(٢) **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٢٨٤ كتاب العدل والمعاد، باب ٢٤ الحديث: ٩. وافترّ فلان ضاحكاً بتشديد الراء: أبدى أسنانه.

لأجل غايات تربوية تترتّب على ذلك التشريع والاعتقاد به، وذلك لأن الاعتقاد بالشفاعة المقيّدة بشروط معقولة سيوافيك بيانها من شأنه بعث الأمل في نفوس العصاة وأفئدة المذنبين، يدفعهم إلى العودة عن سلوكهم الإجرامي وإعادة النظر في منهج حياتهم ويمسكهم عن الاستمرار والتمادي في ما هم عليه من التمرّد والعصيان، وذلك لأنهم إذا رأوا أن الرجوع عن منتصف الطريق الباطل إلى طريق الصواب والحقّ سينقذهم مما يترتّب على أفعالهم السيّئة التي ارتكبوها مدة من عمرهم، اغتنموا الفرصة بتغيير وضعهم وتعديل سلوكهم إلى ما فيه رضا ربّهم.

وهذا الاعتقاد - بالرغم مما اعترض عليه من جانب بعضٍ بأنه يوجب الجرأة ويحيي روح التمرّد في العصاة والمجرمين - يتسبب في إصلاح سلوك المجرم ويقظته وإنابته والتخلّي عمّا يرتكبه من آثام ويقترفه من ذنوب.

وتظهر حقيقة الحال إذا لاحظنا مسألة التوبة التي اتّفقت عليها الأمّة ونصّ بها الكتاب الكريم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ (الزمر: ٥٣- ٥٤) فإنه لو كان باب التوبة موصداً في وجه العصاة والمذنبين، واعتقد المجرم بأن عصيانه مرة واحدة أو مرات سيخلّده في عذاب الله ولا مناص له منه، فلا شك أن هذا الاعتقاد يوجب التمادي في اقتراف السيّئات وارتكاب الذنوب، لأنه يعتقد بأنه لو غيّر وضعه وسلوكه في مستقبل أمره لا يقع ذلك مؤثّراً في مصيره وخلوده في عذاب الله، فلا وجه لأن يترك المعاصي ويغادر

اللّذة المحرّمة ويتحمّل عناء العبادة والطاعة، بل يستمرّ على وضعه السابق حتى يوافيه أجله.

وهذا بخلاف ما إذا وجد الجو مشرقاً والطريق مفتوحاً والنوافذ مشرعة واعتقد بأنه سبحانه سيقبل توبته إذا كانت نصوحاً، وإن رجوعه هذا سيغيّر مصيره في الآخرة وينقذه من تبعات أعماله وأليم العذاب عليها، فعند ذلك سيترك العصيان ويرجع إلى الطاعة ويستغفر لذنوبه ويطلب الإغضاء عن سيّئاته ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ (التحريم: ٨).

كذلك الاعتقاد بالشفاعة المحدودة، فإنه إذا اعتقد العاصي بأن أولياء الله سبحانه قد يشفعون في حقّه في شرائط خاصّة إذا لم يهتك الستر ولم يبلغ إلى حدّ لا تنفع معه شفاعة الشافعين، فعند ذاك سوف يعيد النظر في سيرته ويحاول تطبيق نفسه على شرائط الشفاعة حتى يستحقّها ولا يحرمها. نعم الاعتقاد بالشفاعة المطلقة المحرّرة من كلّ قيد من جانب الشفيع والمشفوع له، هو الذي يوجب التجرّي في العصيان، وهذه الشفاعة مرفوضة في منطق العقل والقرآن، وكأن المعترض قد خلط بين الشفاعة المحدودة والشفاعة المطلقة من كلّ قيد ولم يميّز بينهما وبين آثارهما.

فالشفاعة الموجبة للتجرّي ومواصلة العناد والتمرّد هي الاعتقاد بأن الأنبياء والأولياء سيشفعون في حقّه يوم القيامة على كلّ حال وفي جميع الشرائط وإن فعل ما فعل وارتكب ما ارتكب، وعند ذلك

سيستمرّ في عمله الإجرامي إلى آخر حياته رجاء تلك الشفاعة التي لا تخضع لضابط أو قانون ولا تتقيّد بقيد أو شرط.

وأما الشفاعة التي نطق بها القرآن وأقرّت بها الأحاديث واعترف بها العقل فهي الشفاعة المحدودة بشرائط في المشفوع له والشافع، ومجمل تلك الشرائط هو أن لا يقطع جميع علاقاته العبودية مع الله ووشائجه الروحية مع الشافعين ولا يصل تمرّده إلى حد القطيعة ونسف الجسور. فالاعتقاد بهذا النوع من الشفاعة مثل الاعتقاد بتأثير التوبة في الغفران حقيقة وأثراً.

ولعلّ في التشريعات الجنائية السائدة في المجتمعات البشرية ما يشبه ذلك أيضاً، حيث يسمح للمسؤولين بأن يعفوا عن السجناء أو يقلّلوا من مدة عقوباتهم إذا هم غيّروا سلوكهم وأظهروا الندامة والتوبة. وهذا القانون ليس من شأنه أن يبعث على الجرأة والعناد بل من شأنه أن يدفع السجين إلى أن يصلح نفسه ويعدّل سلوكه ويحقق في نفسه شرائط استحقاق العفو والتخفيف على أمل أن ينطبق عليه القانون ويشمله العفو.

وبهذا يتّضح أن مبدأ الشفاعة الذي نطق به القرآن الكريم، ليس فقط لا يؤدي إلى التجرّي والإصرار على التمرّد، بل هو من أهمّ الأسباب الداعية للإصلاح والتربية، لأن فيه حفظاً لروح الرجاء من الانخماد والركود، فإن الإنسان لا يستقيم سيره الحيوي إلا بالخوف والرجاء المتعادلين حتى يندفع عما يضرّه وينجذب إلى ما ينفعه، ولولا ذلك لهلك. من هنا يمكن أن يقال أن لازم عدم تشريع الشفاعة هو

الذي يلزم منه التجرّي ونقض الغرض لا أن تشريعها يستدعي ذلك.

نخلص مما اُفيد أن الشفاعة توقظ قريحة رجائها عند الإنسان، فلا يوجد مشاهدة ما يشاهد من آثامه وذنوبه قنوطاً من رحمة الله ويأساً من روح الله، وربما أوجب ذلك انقلاع الإنسان عن المعاصي وركوبه على صراط التقوى وصيرورته من المحسنين، واستغنائه عن الشفاعة بهذا المعنى.(١)

شفاعة أهل البيت لأتباعهم وشبهة التجرّي

وردت جملة من الروايات تشير إلى أن لأئمة أهل البيت عليهم السلام شفاعة في شيعتهم ومواليهم، من قبيل ما ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال: «**إذا كان يوم القيامة نشفع في المذنب من شيعتنا، فأمّا المحسنون فقد نجّاهم الله**»(٢).

فهنا قد يقال إن هذه الرواية وأمثالها وإن لم تطلق الشفاعة في حقّ الجميع، لكنّها عيّنت طائفة من الناس وهم الشيعة، مما قد يؤدّي إلى تجرّي هذه الطائفة لأنها تعلم بأنها ناجية مهما ارتكبت من ذنب. حينئذٍ تكون الشفاعة سبباً لنقض الغرض بالنسبة إلى هذه الجماعة.

---

(١) ينظر ما ذكر في البيان الثاني: **مفاهيم القرآن**: ج ٤ ص ٢١٩ تأليف جعفر السبحاني، مؤسسة النشر الإسلامي، **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ١٦٦، ج٤ ص ٢٤٨.

(٢) **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٥٩ باب الشفاعة، الحديث: ٧٧.

والجواب عن ذلك:

أولاً: إن التشيّع والولاء لأئمة أهل البيت عليهم السلام لا يتحقّق إلا بالاتباع والطاعة والانقياد لله تعالى كما وردت روايات كثيرة:

• عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: «**لا تذهب بكم المذاهب فوالله ما شيعتنا إلا من أطاع الله عزّ وجلّ**»(١). وعلّق المجلسي على هذا الحديث بقوله: «أي لا يذهب بكم الشيطان في المذاهب الباطلة من الأماني الكاذبة والعقائد الفاسدة بأن تجترؤا على المعاصي اتّكالاً على دعوى التشيّع والمحبّة والولاية من غير حقيقة، فإنه ليس شيعتهم إلا من شايعهم في الأقوال والأفعال، لا من ادّعى التشيّع بمحض المقال»(٢).

• عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن أبيه عن جدّه عن أبي جعفر الباقر عليهم السلام أنه قال لخيثمة: «**أبلغ شيعتنا أنا لا نغني من الله شيئاً، وأبلغ شيعتنا أنه لا ينال ما عند الله إلاّ بالعمل، وأبلغ شيعتنا أن أعظم الناس يوم القيامة حسرة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره، وأبلغ شيعتنا أنهم إذا قاموا بما أمروا أنهم هم الفائزون يوم القيامة**»(٣).

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ١ ص ٧٣ كتاب الإيمان والكفر، باب الطاعة والتقوى، الحديث: ١.

(٢) **مرآة العقول في شرح أخبار الرسول**، تأليف: العلامة شيخ الإسلام المولى محمد باقر المجلسي: ج ٨ ص ٤٨ دار الكتب الإسلامية.

(٣) **أمالي الشيخ الطوسي**، تأليف: شيخ الطائفة أبى جعفر محمد بن الحسن الطوسي: ج ١ ص ٣٨٠ منشورات مكتبة الداوري. قم - إيران.

• عن الإمام محمد الباقر عليه السلام أيضاً قال: يا جابر أيكتفي من ينتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت؟ والله ما شيعتنا إلا من اتّقى الله وأطاعه، وما كانوا يُعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشّع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبر بالوالدين والتعاهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن وكفّ الألسن عن الناس إلا من خير.

قال جابر: فقلت: يابن رسول الله ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة.

فقال: يا جابر لا تذهبنّ بك المذاهب حسب الرجل أن يقول: أُحبُّ عليّاً وأتوّلاه ثم لا يكون مع ذلك فعّالاً؟ فلو قال: إني أُحبُّ رسول الله، فرسول الله صلى الله عليه وآله خيرٌ من علي عليه السلام ثم لا يتّبع سيرته ولا يعمل بسنّته ما نفعه حبّه إيّاه شيئاً، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله. ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبُّ العباد إلى الله عزّ وجلّ وأكرمهم عليه أتقاهم وأعملهم بطاعته، يا جابر والله ما يتقرّب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة، وما معنا براءة من النار، ولا على الله لأحد من حجّة، من كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدوّ، وما تنال ولايتنا إلا بالعمل والورع»[1].

«قوله عليه السلام: ليس بين الله وبين أحد قرابة أي ليس بين الله وبين الشيعة قرابة حتى يسامحكم ولا يسامح غيركم مع كونكم مشتركين معهم في مخالفته تعالى، أو ليس بينه وبين علي عليه السلام

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٧٤ كتاب الكفر والإيمان، باب الطاعة والتقوى، الحديث: ٣.

قرابة حتى يسامح شيعة علي عليه السلام ولا يسامح شيعة الرسول. والحاصل: إن جهة القرب بين العبد وبين الله إنما هي بالطاعة والتقوى، ولذا صار أئمتكم أحبّ الخلق إلى الله، فلو لم تكن هذه الجهة فيكم لم ينفعكم شيء.

قوله عليه السلام: **وما معنا براءة من النار** أي ليس معنا صكّ وحكم ببراءتنا وبراءة شيعتنا من النار ولو عملوا بعمل الفجّار.

قوله عليه السلام: **ولا على الله لأحد من حجّة** أي ليس لأحد على الله حجّة إذا لم يغفر له بأن يقول: كنت من شيعة علي فلِمَ لم تغفر لي، لأن الله لم يحتم بغفران من ادّعى التشيّع بلا عمل، أو المعنى ليس لنا على الله حجّة في إنقاذ من ادّعى التشيّع من العذاب، ويؤيده (ما في بعض النسخ): **وما لنا على الله حجّة**.

قوله عليه السلام: **من كان لله مطيعاً** كأنه جواب عما يتوهم في هذا المقام أنهم عليهم السلام حكموا بأن شيعتهم وأولياءهم لا يدخلون النار، فأجاب عليهم السلام بأن **العاصي لله ليس بوليّ لنا، ولا تدرك ولايتنا إلا بالعمل بالطاعات والورع عن المعاصي**»[1].

نكتة أخلاقية

للورع أربع درجات:

الأولى: ورع التائبين: وهو ما يخرج به الإنسان من الفسق وهو المصحّح لقبول الشهادة في باب القضاء.

(١) **مرآة العقول في شرح أخبار الرسول**: ج ٨ ص ٥٢.

الثانية: ورع الصالحين: وهو الاجتناب عن الشبهات خوفاً منها ومن الوقوع في المحرّمات.

الثالثة: ورع المتقين: وهو ترك الحلال خوفاً من أن ينجرّ إلى الحرام، مثل ترك التحدّث بأحوال الناس مخافة أن ينجرّ إلى الغيبة.

الرابعة: ورع السالكين: وهو الإعراض عما سواه تعالى خوفاً من صرف ساعة من العمر فيما لا يفيد زيادة القرب منه تعالى وإن علم أنه لا ينجرّ إلى الحرام.

• وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام أيضاً قال: «**يامعشر الشيعة** (شيعة آل محمد) **كونوا النمرقة الوسطى، يرجع إليكم الغالي ويلحق بكم التالي**. فقال له رجل من الأنصار يقال له سعد: جُعلت فداك ما الغالي؟ قال: **قوم يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، فليس أولئك منّا ولسنا منهم.** قال: فما التالي؟ قال: **المرتاد** (أي الطالب من: ارتاد الرجل الشيء إذا طلبه) **يبلّغه الخير يوجر عليه.** ثم أقبل علينا فقال: **والله ما معنا من الله براءة ولا بيننا وبين الله قرابة ولا لنا على الله حجّة، ولا نتقرّب إلى الله إلا بالطاعة، فمن كان منكم مطيعاً لله تنفعه ولايتنا، ومن كان منكم عاصياً لله لم تنفعه ولايتنا، ويحكم لا تغترّوا، ويحكم لا تغترّوا**»[(١)].

قوله «عليه السلام»: «**ويحكم لا تغترّوا**» قال المازندراني في ذيل هذا المقطع من الحديث: «بالغين المعجمة في الموضعين من الاغترار بالولاية والشفاعة، وقد ذكرنا سابقاً أن الشفاعة قد لا تنال أحداً إلا بعد

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٧٥ الحديث: ٦.

تلبّثه في جهنّم زمناً طويلاً، فلا ينبغي ترك العمل والاغترار بها»[1].

من هنا يتّضح سبب استرجاع الإمام الصادق عليه السلام من كلام محمد بن مارد، قال: قلت لأبي عبدالله الصادق عليه السلام: حديث روي لنا أنك قلت: إذا عرفتَ (أي ولاية أهل البيت) فاعمل ما شئت؟ فقال: **قد قلت ذلك**، قال: قلت: وإن زنوا أو سرقوا أو شربوا الخمر، فقال لي: **إنا لله وإنّا إليه راجعون. والله ما أنصفونا أن نكون أخذنا بالعمل ووُضع عنهم، إنما قلت: إذا عرفت فاعمل ما شئت من قليل الخير وكثيره فإنه يُقبل منك**»[2].

لذا ميّزت الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بين الشيعي والموالي لهم:

• قال رجل للحسن بن علي عليه السلام: إني من شيعتكم، فقال الحسن بن علي عليه السلام: **يا عبد الله إن كنت لنا في أوامرنا وزواجرنا مطيعاً فقد صدقت، وإن كنت بخلاف ذلك فلا تزد في ذنوبك بدعواك مرتبة شريفة لست من أهلها، لا تقل: أنا من شيعتكم، ولكن قل: أنا من مواليكم ومحبّيكم ومعادي أعدائكم، وأنت في خير وإلى خير**»[3].

---

(١) **شرح جامع للأصول والروضة من الكافي**، تأليف: المولى محمد صالح المازندراني: ج ٨ ص ٢٣١ مع تعاليق علمية للعالم المتبحّر الميرزا أبي الحسن الشعراني. من منشورات المكتبة الإسلامية، طهران، شارع بوذرجمهري.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٤٦٤ كتاب الكفر والإيمان، باب أن الإيمان لا يضرّ معه سيئة، الحديث: ٥.

(٣) **بحار الأنوار**: ج ٦٨ ص ١٥٦ كتاب الإيمان والكفر، باب صفات الشيعة، الحديث: ١١.

• وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: قال رجل لرسول الله صلّى الله عليه وآله: يا رسول الله فلان ينظر إلى حرم جاره فإن أمكنه مواقعة حرام لم يرعَ منه، فغضب رسول الله صلّى الله عليه وآله وقال: ائتوني به، فقال رجل آخر: يا رسول الله إنه من شيعتكم ممن يعتقد موالاتكم وموالاة علي ويبرأ من أعدائكما، فقال رسول الله: لا تقل إنه من شيعتنا فإنه كذب، إن شيعتنا من شيّعنا وتبعنا في أعمالنا، وليس هذا الذي ذكرته في هذا الرجل من أعمالنا»[1].

• وقال الإمام الرضا عليه السلام: «إنما شيعة علي أبو ذر وسلمان والمقداد وعمار ومحمد بن أبي بكر الذين لم يخالفوا شيئاً من أوامره، ولم يركبوا شيئاً من فنون زواجره، فأما أنتم إذا قلتم إنكم شيعته، وأنتم في أكثر أعمالكم له مخالفون مقصّرون في كثير من الفرائض، متهاونون بعظيم حقوق إخوانكم في الله، فلو قلتم إنكم موالوه ومحبّوه والموالون لأوليائه والمعادون لأعدائه، لم أنكره من قولكم»[2].

ثانياً: إن حفظ هذا الولاء والاتباع إلى الحشر الأكبر الذي هو ظرف شمول الشفاعة – كما سيأتي – مع الإصرار على المعصية صعب مستصعب بعيد المنال؛ لذا قال بعض أعلام المحققين: «إن هذا المسكين يظنّ أن مجرد ادّعاء التشيّع وحبّ أهل بيت الطهارة والعصمة، يسوّغ له – والعياذ بالله – اقتراف كلّ محرّم من المحظورات الشرعية، ويرفع عنه قلم التكليف، إن هذا السيئ الحظ لم يتنبه بأن

---

(١) **بحار الأنوار**: ج ٦٨ ص ١٥٥ كتاب الإيمان والكفر، باب صفات الشيعة.

(٢) **بحار الأنوار**: ج ٦٨ ص ١٥٨ كتاب الإيمان والكفر، باب صفات الشيعة.

الشيطان قد ألبس الأمر عليه، ويُخشى عليه في نهاية عمره أن تسلب منه هذه المحبّة الجوفاء التي لا تجدي ولا تنفع ويحشر يوم القيامة صفر اليدين وفي صفوف نواصب أهل البيت عليهم السلام. إن ادّعاء المحبّة من دون دليل وبيّنة لا يكون مقبولاً»[١].

قال الإمام الصادق عليه السلام لبعض أصحابه: «**ينبغي لمن ادعى هذا الأمر في السرّ** (الباطن) **أن يأتي عليه ببرهان في العلانية**. قلت: وما هذا البرهان الذي يأتي به في العلانية؟ قال: **يحلّل حلال الله ويحرّم حرامه، ويكون له ظاهر يصدّق باطنه**».[٢]

إنه لا يمكن أن أكون صديقك وأضمر لك الحبّ والإخلاص ثم أقوم بكلّ ما هو مناقض لرغباتك وأهدافك. إن شجرة المحبّة تنتج وتثمر في الإنسان المحبّ العمل حسب درجة المحبة ومستواها، وإن لم تحمل تلك الشجرة هذه الثمرة فلا بد من معرفة أنها لم تكن محبّة حقيقية وإنما هي محبّة وهمية.

ثالثاً: إن هذه الروايات معارضة بما لا يقلّ عنها عدداً وقوّة:

منها: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «**اتقوا الله معاشر الشيعة فإن الجنّة لن تفوتكم وإن أبطأت بها عنكم قبائح أعمالكم**... قيل: فهل يدخل جهنم أحد من محبّيك ومحبّي علي عليه السلام قال: **من قذر نفسه وواقع المحرّمات وظلم المؤمنين والمؤمنات، وخالف ما رسم له من**

(١) **بحار الأنوار**: ج ٦٨ ص ١٦٤، باب صفات الشيعة، الحديث: ١٥.

(٢) **الأربعون حديثاً**، الإمام الخميني: ص ٥٩٠، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني قدس سره، الطبعة الثانية: ١٤٢٤هـ .

الشريعة جاء يوم القيامة قذراً طفساً، فيقال له: يا فلان لا تصلح لمرافقة الأخيار ولا لمعانقة الحور الحسان، ولا الملائكة المقرّبين، لا تصل إلى هناك إلا بأن يطهر عنك ما ههنا (يعني ما عليك من الذنوب) **فيدخل في الطبق الأعلى من جهنم فيعذّب ببعض ذنوبه...»**[١].

وعلّق المجلسي على هذه الأخبار بقوله: «وأما أصحاب الكبائر من الإمامية فلا خلاف بين الإمامية في أنهم لا يخلّدون في النار (لأنهم موحّدون) وأما هل يدخلون النار أم لا؟ فالأخبار مختلفة فيهم اختلافاً كثيراً، ومقتضى الجمع بينها أنه يحتمل دخولهم النار، وأنهم غير داخلين في الأخبار التي وردت أن الشيعي والمؤمن لا يدخل النار، لأنه قد ورد في أخبار أخر أن الشيعة من شايع عليّاً في أعماله، وأن الإيمان مركّب من القول والعمل»[٢].

وهذا معناه أن الشفاعة هنا لا تعني دائماً دفع العقاب أصلاً، بل قد تغيّر شدّته كمّاً أو كيفاً. وسيجيء ما يدلّ على أن شفاعتهم لا تشمل شيعتهم في عالم البرزخ، لذا قد يعذّبون بسوء أعمالهم.

في ضوء ذلك يتّضح أن هذه الروايات إما هي بصدد بيان شرط شمول شفاعة أهل البيت عليهم السلام للإنسان، فهو من قبيل شرط التوحيد الذي بدونه لا يشمل الإنسان العفو والغفران الإلهي. غير أن تحقّق هذا الشرط لا يعني تحقّق الشفاعة بالضرورة خارجاً، فلسانها لسان الروايات التي دلّت على أن شفاعة الرسول الأعظم صلّى الله عليه

---

(١) **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٣٥٢، باب من يخلد في النار، الحديث: ٢.

(٢) **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٣٦٣.

وآله إنما هي لأهل الكبائر من أمته كما سيجيء، لكن هذا لا يعني أيضاً تحقّق المقتضي ورفع المانع.

فائدة

كثرت الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام التي ذكرت صفات شيعتهم، نقف عند بعضها:

• قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أما المطيعون لنا فسيغفر الله ذنوبهم امتناناً إلى إحسانهم**. قيل: يا أمير المؤمنين، ومن المطيعون لكم؟ قال عليه السلام: **الذين يوحّدون ربّهم ويصفونه بما يليق به من الصفات، ويؤمنون بمحمد صلّى الله عليه وآله، ويطيعون الله في إتيان فرائضه وترك محارمه، ويحيون أوقاتهم بذكره وبالصلاة على نبيّه محمد وآله الطيبين، ويتّقون على أنفسهم الشحّ والبخل، ويؤدّون كلّ ما فرض الله عليهم من الزكاة ولا يمنعونها**»[1].

• عن نوف بن عبد الله البكالي قال: قال لي علي عليه السلام: **يا نوف خلقنا من طينة طيّبة وخلق شيعتنا من طينتنا، فإذا كان يوم القيامة أُلحقوا بنا**. فقال نوف: صف لي شيعتك يا أمير المؤمنين، فبكى لذكر شيعته وقال: **يا نوف شيعتي والله الحلماء، العلماء بالله ودينه، العاملون بطاعته وأمره، المهتدون بحبّه، أنضاء عبادة** (الأنضاء: جمع النضو بالكسر، وهو المهزول من الإبل وغيرها) **أحلاس زهادة** (أي ملازمون للزهد) **صُفر الوجوه من التهجّد، عمش العيون من البكاء، ذبل الشفاه من**

---

(١) **بحار الأنوار**: ج ٦٨ ص ١٦٣، باب صفات الشيعة، الحديث: ١٢.

الذكر، خمص البطون من الطوى، تعرف الربّانية في وجوههم والرهبانية في سمتهم، مصابيح كلّ ظلمة، شرورهم مكنونة، وقلوبهم محزونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، أنفسهم منهم في عناء، والناس منهم في راحة، أولئك شيعتي الأطيبون وإخواني الأكرمون»(١).

• عن محمد بن عمر بن حنظلة قال: قال أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام: «ليس من شيعتنا من قال بلسانه وخالفنا في أعمالنا وآثارنا، ولكن شيعتنا من وافقنا بلسانه وقلبه وعمل بأعمالنا، أولئك شيعتنا»(٢).

• عن أبي بصير قال: قال الصادق عليه السلام: «شيعتنا أهل الورع والاجتهاد وأهل الوفاء والأمانة، وأهل الزهد والعبادة، أصحاب إحدى وخمسين ركعة في اليوم والليلة، القائمون بالليل، الصائمون بالنهار، يزكّون أموالهم ويحجّون البيت ويجتنبون كلّ محرّم»(٣).

الشفاعة بين الخوف والرجاء

اتّضح مما سبق أن للشفاعة أثراً تربوياً في بقاء العلاقة مع الله تعالى، فإنّ العاصي والمذنب من الناس الذي يعلم بأن الله يتوب عليه إذا تاب، وأن شفاعة الشافعين قد تشمله إن استوفى ما يلزم من الشروط، فإن مثل هذا الإنسان يبقى بين الخوف والرجاء، بين رجاء العفو لكن

---

(١) بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ١٧٧، باب صفات الشيعة، الحديث: ٣٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ١٦٤، الحديث: ١٣.

(٣) بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ١٦٧، الحديث: ٢٣.

لا جزماً بحصوله بحيث يتجرّأ على محارم الله، وبين مخافة العذاب لكن لا يقيناً من وقوعه بحيث ييأس من رحمة الله.

وقد أشارت العديد من الآيات والروايات إلى هذه الحقيقة القرآنية، فمن الآيات قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ الله فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٧ – ٩٩). فمن اطمأن بالنجاة وعدم شمول العذاب والمكر الإلهي له فهو من الخاسرين؛ لأنه تعالى بيّن في الآيتين الأوليين أن الأمن من مكر الله نفسه مكر إلهي يتعقّبه العذاب الإلهي، فالآمنون من مكر الله خاسرون لأنهم ممكور بهم بهذا الأمن بعينه.

وفي قبال ذلك يقع قوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ الله إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧).

«الرَّوْح بالفتح فالسكون، النَفَس أو النَفْس الطيب، ويكنّى به عن الحالة التي هي ضد التعب وهي الراحة، وذلك أن الشدّة التي فيها انقطاع الأسباب وانسداد طرق النجاة تتصور اختناقاً وكظماً للإنسان، وبالمقابلة الخروج إلى فسحة الفرج والظفر بالعافية تنفسّاً ورَوْحاً؛ لقولهم: يفرّج الهمّ وينفّس الكرب، فالروح المنسوب إليه تعالى هو الفرج بعد الشدّة بإذن الله ومشيّته، وعلى من يؤمن بالله أن يعتقد أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا قاهر لمشيته ولا معقّب لحكمه. وليس له أن ييأس من روح الله ويقنط من رحمته فإنه تحديد لقدرته

تعالى، وفي معنى الكفر بإحاطته وسعة رحمته، كما قال تعالى حاكياً عن لسان يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقال حاكياً عن لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلاَّ الضَّالُّونَ﴾ (الحجر: ٥٦). وقد عُدّ اليأس من روح الله في الأخبار المأثورة من الكبائر الموبقة»[١].

وقد جمعت الآية المباركة ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ٩) بين كلا الأمرين بين الحذر من الآخرة وبين رجاء الرحمة الإلهية.

قال الغزالي: «إن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقرّبون إلى كلّ مقام محمود، ومطيّتان بهما يقطع من طرق الآخرة كلّ عقبة كؤود، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان - مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفاً بمكاره القلوب ومشاقّ الجوارح والأعضاء - إلا أزمّة الرجاء. ولا يصدّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم - مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات - إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف»[٢].

من هنا جاءت الروايات لتؤكّد ضرورة تحلّي المؤمن بالخوف والرجاء.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١١ ص ٢٣٤.

(٢) **إحياء علوم الدين**، تصنيف: الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي: ج ٤ ص ١٤٢، دار المعرفة، بيروت - لبنان.

• عن الحسن بن أبى سارة قال: سمعت جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: «**لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو**»[1].

• وعن الحارث بن المغيرة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: ما كان في وصية لقمان؟ قال: **كان فيها الأعاجيب وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خِفِ الله عزّ وجلّ خيفة لو جئته ببرّ الثقلين لعذّبك، وارجُ الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك**. ثم قال الصادق عليه السلام: **كان أبي يقول: إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا**»[2].

ظاهر هذا الخبر يدلّ على أنه ينبغي أن يكون الخوف والرجاء كلاهما كاملين في النفس، ولا تنافي بينهما، فإن ملاحظة سعة رحمة الله وغنائه وجوده ولطفه على عباده سبب للرجاء، والنظر إلى شدّة بأس الله وبطشه وما أوعد العاصين من عباده موجب للخوف، مع أن أسباب الخوف ترجع إلى نقص العبد وتقصيره وسوء أعماله وقصوره عن الوصول إلى مراتب القرب والوصال، وانهماكه فيما يوجب الخسران والوبال، وأسباب الرجاء تؤول إلى لطف الله ورحمته وعفوه وغفرانه ووفور إحسانه، وكلّ منهما في أعلى مدارج الكمال.

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٧١، كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء، الحديث: ١١.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٦٧، الحديث: ١.

كما أن الخبر دالّ على أنه لابدّ أن يكون العبد دائماً بين الخوف والرجاء، لا يغلب أحدهما على الآخر، إذ لو رجح الرجاء لزم الأمن لا في موضعه؛ قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ الله فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٩) ولو رجح الخوف لزم اليأس الموجب للهلاك كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧).

وبذلك يتّضح أنه لا ينبغي للإنسان المؤمن أن يمنّي نفسه بالعفو والمغفرة والشفاعة ونحوها من غير عمل يرجو به الخلاص والنجاة.

• قيل للإمام جعفر الصادق عليه السلام: إن قوماً يعملون بالمعاصي ويقولون نرجو، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت، فقال: **هؤلاء يترجّحون في الأماني**(أي مالت بهم عن الاستقامة)، **ليسوا راجين، إن من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه»**[1].

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٦٨، الحديث: ٥.

الإشكال السادس: ليس في القرآن نصّ قطعي في وقوع الشفاعة

هذا الإشكال ذكره صاحب تفسير المنار عن الإمام محمد عبده[1]، ويمكن تقريره بالبيان التالي:

إن العقل لو دلّ فإنما يدلّ على إمكان وقوع الشفاعة لا على فعلية وقوعها، على أن أصل دلالته ممنوع. وأما النقل فالآيات القرآنية في الشفاعة على طوائف ثلاث هي:

• طائفة نافية للشفاعة مطلقاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾ (البقرة: ٢٥٤) ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة: ٤٨).

• وطائفة نافية لمنفعة الشفاعة كقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثّر: ٤٨).

• وطائفة تفيد النفي بمثل قوله: ﴿إلاّ بإذنه﴾ (البقرة: ٢٥٥) وقوله: ﴿إلاّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ (الأنبياء: ٢٨) وقوله: ﴿إلاّ مِن بَعْدِ إذنه﴾ (يونس: ٣) ومثل هذا الاستثناء أي الاستثناء بالإذن والمشيّة معهود في أسلوب القرآن في مقام النفي القطعي؛ للإشعار بأن ذلك بإذنه ومشيّته سبحانه كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى * إلاّ مَا شَاءَ اللهُ﴾ (الأعلى: ٦ – ٧)،

---

(١) تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار: ج ١ ص ٢٦٩.

إذ من المحقّق أن النبيّ صلّى الله عليه وآله لا ينسى القرآن ولم ينسه، وإنما جاء هذا الاستثناء لإفادة بقاء القدرة الإلهية على إطلاقها، وأن هذه العطية وهي الإقراء بحيث لا ينسى لا ينقطع عنه سبحانه بالإعطاء بحيث لا يقدر بعدُ على إنسائك، بل هو باق على إطلاق قدرته له إن يشاء إنساءك متى شاء وإن كان لا يشاء ذلك.

وكذلك قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (هود: ١٠٨) فإنه من المعلوم أن الاستثناء الوارد في الآية غير متحقّق أبداً، فإنهم مخلّدون فيها. نعم يدلّ الاستثناء على الإمكان أي إمكان إخراجهم من الجنة معلناً بأن دخولهم الجنّة لا يلازم نفي القدرة الإلهية على إمكان إخراجهم منها، فيكون الاستثناء مسوقاً لإثبات قدرة الله المطلقة وأن قدرته سبحانه لا تنقطع عنهم بإدخالهم الجنة الخالدة، وسلطنته لا تنفد، وملكه لا يزول ولا يبطل، وأن الزمان بيده وقدرته، وإحاطته باقية على ما كانت عليه قبل، فله تعالى أن يخرجهم من الجنة وإن وعَدَ لهم البقاء فيها دائماً، لكن تعالى لا يخرجهم؛ لمكان وعده، والله لا يخلف الميعاد.

فكأنّ ما ذكر في هذه الآيات من التعليق على المشية الإلهية ردّ على ما ادّعاه الفكر اليهودي أن الله سبحانه عندما قدّر الأمور في علمه الذاتي منذ الأزل، فإن القلم قد جفّ بما قدّر، ولا يمكن لله نفسه أن يغيّر ما قدّر، كما يعبّر القرآن عن ذلك بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ (المائدة: ٦٤) حيث ترجع هذه الدعوى بالتحليل إلى تقييد القَدرة الإلهية وتحديدها، وهو ما يتعارض

مع إطلاقها ولا تناهيها، لذا قالت الآية: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أي أن هذا النظام الذي يحكم عالم الإمكان واقع تحت سلطته وسلطانه المطلق لا يخرج عن ملكه وقدرته شيء لا حدوثاً ولا بقاءً، وأن إرادة الله نافذة في الأشياء أزلاً وأبداً. لكن هذا لا يتنافى مع الإيمان بأن لله سبحانه سنناً تجري في الكون، وأن هناك قضاءً وتقديراً قضاه الله وقدّره في هذا العالم على مقتضى حكمته.

فكيفما كان الأمر فادّعاء المستشكل أنه ما المانع من أن تكون الآيات الواردة في الشفاعة خصوصاً ما اشتمل منها على استثناء من هذا القبيل، هي لبيان إمكان الشفاعة لا وقوعها.

جواب الإشكال السادس

والجواب عن هذا الإشكال هو أن يقال:

أما **الآية الأولى من الطائفة الأولى** وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤) فيمكن أن يجاب عنها:

أولاً: إن ظاهر الآية وإن كان مطلقاً يشمل كلّ أنواع وأقسام الشفاعة الدنيوية والأخروية، ولعلّنا لا نجد في القرآن آية أخرى تشابهها في ذلك، إلا أنه لا يمكن قبول هذا الظاهر، وإنما هي بصدد نفي الشفاعة المتعارفة في الحياة الدنيا؛ وذلك بقرينة قوله ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ﴾.

والمراد من البيع إما بمعنى الفدية كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لا

يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ (الحديد: ١٥) فكأنه قال: من قبل أن يأتي يوم لا تجارة فيه فتكتسب ما تفتدي به من العذاب، وإما بمعنى قدّموا لأنفسكم من المال الذي هو في ملككم قبل أن يأتي اليوم الذي لا يكون فيه تجارة ولا مبايعة حتى يكتسب شيء من المال.

والمراد من الخلّة: المودّة، حيث تتقطع جميع هذه الأسباب الدنيوية ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ (البقرة: ١٦٦) وكذلك الأنساب ﴿فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ (المؤمنون: ١٠١). والسبب في ذلك أن تلك النشأة تختلف في قوانينها الحاكمة عليها عن هذه النشأة ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة: ٦١) فيجيء الإنسان وحده ولا يكون معه شيء مما حصله في الدنيا.

أما الفروق بين الشفاعة المتعارفة بين الناس في الدنيا والشفاعة التي حاولنا إثباتها في الآخرة فهي:

• إن زمام الشفاعة الأخروية هي بيد الله سبحانه؛ ﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للهِ﴾ (الانفطار: ١٩) فهو الذي يبعث الشفيع - لقربه إلى المولى وكرامته وعلوّ منزلته عنده - حتى يشفع في حقّ المجرم الذي له قابلية شمول المغفرة الإلهية، فتكون النتيجة أن رحمته الواسعة ومغفرته العميمة تصل من طريق الشفيع إلى عباده، وعليه فالأمور كلّها بيده سبحانه وناشئة منه وراجعة إليه. وهذا على خلاف النظام السائد في الوساطات المتعارفة بين الحكّام في الحياة الدنيا، إذ المجرم فيها هو الذي يبعث الشفيع ليشفع عند الحاكم بحيث لولاه لما تقدّم الشفيع بالشفاعة والوساطة عند الحاكم. فالأمر هنا يبدأ من المجرم ويصل إلى الشفيع

وينتهي إلى الحاكم، على عكس النظام السائد في الشفاعة الأخروية.

• إن حقيقة الشفاعة الدنيوية ليست إلا نوع تفرقة في تطبيق القانون، حيث إن نفوذ الشفيع ومكانته عند الحاكم يوجبان مغلوبية إرادته وغالبية إرادة الشفيع، فتصبح النتيجة أن يجري القانون في حقّ الضعيف الذي لا يجد شفيعاً دون القويّ الذي يجد ذلك. وهذا بخلاف الشفاعة المصطلحة قرآنيّاً فإن الشفيع لا يحمّل إرادته على مشيئة الله ولا تخضع سنته الحكيمة لإرادة أحد وطلبه ولا يوجب التفرقة في التطبيق، بل غاية هذه الشفاعة هي جريان مغفرته وفيضه عن طريق أوليائه إلى عباده، فلو حرم البعض منها فليس ذلك لأجل نفاد رحمته التي وسعت كلّ شيء، بل لأجل عدم استحقاقه وقابليته لها. فعندما يقول الحقّ سبحانه ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وعندما يؤكد القرآن أن الشفاعة لا تتحقّق إلا بإذنه سبحانه للشفيع وارتضائه للمشفوع له، فليس ذلك إلاّ لأجل أن المرضيّ هو اللائق دون غيره، فلو حرم المشرك من شفاعة الأنبياء أو حرم بعض العصاة منها فليس ذلك إلاّ لعدم لياقتهم واستحقاقهم لهذا العطاء الإلهي، فيرجع الأمر في حيققته إلى عدم قابلية القابل لقبول الفيض لا لضيق في فاعلية الفاعل وجوده وإحسانه وفضله.

ثانياً: لو سلّمنا وفرضنا أن الآية كانت بصدد نفي الشفاعة المصطلحة في الآخرة، فهي مع ذلك مختصّة بالكافرين؛ وذلك لقرينة داخلية وهي قوله تعالى ﴿ولا خلة﴾ فإن الظاهر من هذه الكلمة انقطاع أواصر الصداقة يوم القيامة مطقاً من غير فرق بين المؤمن والكافر، مع

أن صريح القرآن الكريم هو انقطاعها بين الكفّار خاصّة؛ قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * الأخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٦ - ٦٧).

فإن الظاهر من الاستثناء وإن كان عدم العداوة بين المتقين إلا أن المتبادر من مجموع القرائن الداخلية والخارجية هو بقاء الخلّة الدنيوية مضافاً إلى انتفاء العداوة. قال الزمخشري في ذيل الآية: «تنقطع في ذلك اليوم كلّ خلّة بين المتخالين في غير ذات الله وتنقلب عداوة ومقتاً، إلا خلّة المتصادقين في الله، فإنّها الخلّة الباقية المزدادة قوّة إذا رأوا ثواب التحابّ في الله والتباغض في الله»[١].

وقال الطباطبائي: «الأخلاّء جميع خليل وهو الصديق حيث يرفع خلّة صديقه وحاجته، والظاهر أن المراد بالأخلاّء المطلق الشامل للمخالّة والتحابّ في الله كما في مخالّة المتقين أهل الآخرة، والمخالّة في غيره كما في مخالّة أهل الدنيا، فاستثناء المتقين متصل. والوجه في عداوة الأخلاّء غير المتقين أن من لوازم المخالّة إعانة أحد الخليلين الآخر في مهامّ أموره، فإذا كانت لغير وجه الله كان فيها الإعانة على الشقوة الدائمة والعذاب الخالد»[٢] كما قال تعالى حاكياً عن الظالمين يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُول سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إذ جَاءَنِي﴾ (الفرقان: ٢٧ - ٢٩) وفي الخبر عن سعد بن

(١) **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل**: ج ٤ ص ٢٦٣.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١٨ ص ١٢٠.

معاذ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: **إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام وقلّت الأنساب وذهبت الأخوّة إلا الأخوّة في ذلك وذلك قوله:** ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

في ضوء هذه القرينة فكما أن المنفيّ هو قسم خاصّ من المخالّة دون مطلقها، فالشفاعة أيضاً كذلك، فإن المنفيّ بحكم السياق قسم خاصّ من الشفاعة لا مطلق الشفاعة، وما في ذيل الآية وهو قوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يؤيّد بل يدلّ على أن النفي مختصّ بالكافرين، لذا قال الرازي: «وعلى هذا التقدير تصير الآية دالّة على إثبات الشفاعة في حقّ الفسّاق»[2].

أما **الآية الثانية** من الطائفة الأولى وهي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة: ٤٨).

من الحقائق التاريخية التي يجدها المتتبّع لتاريخ أهل الملل الوثنيّة - كقدماء المصريين واليونان وغيرهم - أنهم كانوا يعتقدون أن الحياة الآخرة نوع امتداد للحياة الدنيوية، حيث كانوا يقدّمون إلى آلهتهم المزعومة أنواع القرابين والهدايا للصفح عن جرائمهم أو الإمداد في حوائجهم، أو يستشفعون بها، أو يفدون المجرمين بفداء يدفع بدلاً وجزاءً عنهم لتخليصهم من العقاب، أو يستنصرون بنفس أو سلاح حتى أنهم كانوا يدفنون مع الأموات أنواع الزخرف والزينة، ليكون

---

(١) **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**: ج ٧ ص ٣٨٨.

(٢) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٦ ص ١٧٥.

معهم ما يتمتّعون به في آخرتهم، ومن أنواع السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم، وربما ألحدوا معه من الجواري من يستأنس بها ومن الأبطال من يستنصر به الميت، وتوجد اليوم في المتاحف بين الآثار الأرضية عتائق كثيرة من هذا القبيل.

ولقد دخل في الإسلام أقوام يحملون أوزاراً مما كانوا عليه من الوثنيّة ربما تلوّنت لوناً بعد لون، جيلاً بعد جيل. وقد أبطل القرآن جميع هذه الآراء الواهية والأقاويل الكاذبة وأتى بنيانها من القواعد، حيث بيّن أن ذلك اليوم، يوم تتقطع فيه الأسباب ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ (البقرة: ١٦٦) وتبطل منفعة الأنساب: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١) لذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (الأنعام: ٩٤) وتتحوّل فيه سنّة هذه الحياة من انطلاق الإنسان في اختياره يدفع عن نفسه بالعدل والفداء ويستعين على المدافعة بالشفاعة عند السلاطين والأمراء، وقد يوجد له فيها أنصار ينصرونه بالحقّ وبالباطل على السواء، فيكون له في ذلك اليوم شأن آخر مع ربّه تضمحلّ فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاصه في عمله قبل حلول أجله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (يونس: ٣٠).

عند ذلك يتّضح أن رابطة التأثير والتأثر بين الأسباب الظاهرية

ومسبباتها منقطعة زائلة، فلا تملك نفس لنفس شيئاً فلا تقدر على دفع شرّ عنها ولا جلب خير لها: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾ (الانفطار: ١٩) أي هو المالك للأمر ليس لغيره من الأمر شيء إلا بإذنه ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (المؤمن: ١٦).

فهذا أصل قرآنيّ يتفرّع عليه كلّ واحد من تلك الأقاويل والأوهام؛ لذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (الدخان: ٤١) وقال: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ الله مِنْ عَاصِمٍ﴾ (غافر: ٣٣) وقال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ (الصافات: ٢٤ – ٢٦) ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر: ١٨) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ (يونس: ١٨).

ومن أوضح أولئك الذين خاطبهم الله بهذا الأصل هم اليهود الذين كانوا يعتقدون أنهم أبناء الله وأحبّاؤه ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ (المائدة: ١٨) ويؤمنون بأن الأواصر القومية القائمة بينهم وبين أنبيائهم هي التي تنجيهم وتدخلهم الجنّة: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ (البقرة: ١١١) أي قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، وإلا فمن الواضح أن اليهود لا تقول في النصارى أنها تدخل الجنة ولا النصارى في اليهود، لأن كلّ واحد من

الفريقين يكفّر الآخر. وقد بلغت مغالاتهم في هذا المجال إلى درجة أنهم زعموا أن النار لا تمسّهم إلا أيّاماً معدودة ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠) وكذلك كانوا يعتقدون بأن أنبياءهم وأسلافهم سوف يشفعون لهم وينجّونهم من العذاب سواء كانوا عاملين بشريعتهم أم عاصين متجاوزين.

من هنا حاول القرآن إبطال جميع هذه المدّعيات والأوهام:

• فقال في دعواهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ١١١ - ١١٢) والأماني: جمع أمنية وهي ما يتمنّاه المرء ولا يدركه.

• وأجاب عن زعمهم أنهم لا يدخلون النار إلا أيّاماً معدودة بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ الله عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى الله مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٨٠) أي هل عهد الله إليكم ذلك ووعد به فكانَ حقّاً لكم عنده لأن الله لا يخلف العهد؟

قال الطبري: «لما قالت اليهود ما قالت من قولها: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ قال الله لنبيه: قل يا محمد لمعشر اليهود: ﴿ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ الله عَهْداً﴾ أي أأخذتم بما تقولون من ذلك من الله ميثاقاً؟ فالله لا ينقض ميثاقه ولا يبدّل وعده وعقده، أم تقولون على الله الباطل جهلاً وجرأة عليه»[1]. والاستفهام للإنكار؛ لأنه لا يجوز أن يجعل تعالى

---

(١) **تفسير الطبري المسمّى جامع البيان في تأويل القرآن**، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري: ج ١ ص ٤٢٧، مركز الكتاب العلمي، القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ.

حجة رسوله صلّى الله عليه وآله في إبطال قولهم أن يستفهمهم، بل المراد التنبيه على طريقة الاستدلال وهي أنه لا سبيل إلى معرفة هذا التقدير إلا بالسمع، فلمّا لم يوجد الدليل السمعي وجب ألا يجوز الجزم بهذا القول. والحاصل أنه لابدّ من أحد الأمرين؛ إذ لا واسطة بينهما، إما اتّخاذ عهد عند الله وهو لا يكون إلا باتباع شريعته اعتقاداً وائتماراً وانتهاءً وتخلّقاً، وإما القول على الله بغير علم، ولما لم يكن الأول حاصلاً جزماً؛ لعدم الدليل عليه، تعيّن أنكم تكذبون على الله بجهلكم وغروركم.

• وأما اعتقادهم بأن أنبياءهم وأسلافهم سيشفعون لهم وينجّوهم من العذاب فقد ردّ عليه القرآن بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرائِيلَ اذكُرُوا نعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة: ٤٧ – ٤٨).

قال الطبري في ذيل هذه الآية: «إن الله عزوجل خاطب أهل هذه الآية بما خاطبهم به فيها لأنهم كانوا من يهود بني إسرائيل وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه وسيشفع لنا عنده آباؤنا، فأخبرهم الله جلّ وعزّ أن نفساً لا تجزي عن نفس شيئاً في القيامة، ولا يقبل منها شفاعة أحد فيها حتى يُستوفى لكلّ ذي حقّ منها حقّه. فآيسهم جلّ ثناؤه مما كانوا أطمعوا فيه أنفسهم من النجاة من عذاب الله – مع تكذيبهم بما عرفوا من الحقّ وخلافهم أمر الله في أتباع محمد صلّى الله عليه [وآله] وما جاءهم من عنده – بشفاعة آبائهم

وغيرهم من الناس كلّهم، وأخبرهم أنه غير نافعهم عنده إلا التوبة إليه من كفرهم والإنابة من ضلالهم، وجعْل ما سنّ فيهم من ذلك إماماً لكلّ من كان على مثل منهاجهم، لئلا يطمع ذو إلحاد في رحمته. وهذه الآية وإن كان مخرجها عاماً في التلاوة فإن المراد بها خاصّ في التأويل»(١).

وقال الزمخشري: «كانت اليهود تزعم أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم فأويسوا»(٢). وقال الطوسي: «إن نفي الشفاعة في هذه الآية يختصّ باليهود من بني إسرائيل لأنهم ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه، وأن آباءهم يشفعون لهم فآيسهم الله من ذلك، فأخرج الكلام مخرج العموم والمراد به الخصوص»(٣).

هذه كلمات أعلام التفسير من الفريقين وهي تكشف جميعاً أن هدف الآية ومرماها إلى نفي الشفاعة التي كانت لدى اليهود، ولعلّ هذا هو الذي يثبته وحدة السياق في الآية أيضاً. ومعه فلا مجال لادعاء أن الآية بصدد نفي الشفاعة مطلقاً، وقريب من هذه الآية ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ (البقرة: ١٢٢ - ١٢٣).

---

(١) **تفسير الطبري**: ج ١ ص ٣٠٦.

(٢) **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**: ج ١ ص ١٣٦.

(٣) **التبيان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ٢١٤.

قال الطبري: «وهذه الآية ترهيب من الله جلّ ثناؤه للذين سلفت عظته إياهم بما وعظهم به في الآية قبلها، يقول الله لهم: واتقوا - يا معشر بني إسرائيل المبدّلين كتابي وتنزيلي المحرّفين تأويله عن وجهه المكذّبين برسولي محمد صلّى الله عليه [وآله] وسلم - عذاب يوم لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئاً، ولا تغني عنها غناءً أن تهلكوا على ما أنتم عليه من كفركم بي، وتكذيبكم رسولي فتموتوا عليه، فإنه يوم لا يقبل من نفس فيما لزمها فدية، ولا يشفع فيما وجب عليها من حقّ لها شافع، ولا هم ينصرها ناصر من الله إذا انتقم منها بمعصيتها إياه. وقد مضى البيان عن كلّ معاني هذه الآية في نظيرتها قبل (الآية ٤٨) فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع»[١].

ثم إنه لو تنزّلنا عن كلّ ما قلناه في الجواب عن الاستدلال بهذه الطائفة على نفي الشفاعة مطلقاً كما ذكر المستشكل، وقبلنا دلالتها على ذلك فهي إنما تدلّ بالعموم والإطلاق، فيمكن تقييد إطلاقها وتخصيص عمومها بآيات الطائفة الثانية والثالثة التي سيأتي الحديث عنها، مضافاً إلى أدلّة أخرى يمكن الوقوف عليها في لاحق الأبحاث.

والجواب عن الطائفة الثانية وهي من قبيل قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر: ٤٨) وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (الشعراء: ١٠٠ - ١٠١).

أما **الآية الأولى** وهي قوله: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ فهي واردة في سياق نفي الشفاعة عن طائفة خاصّة من المجرمين، وهم

---

(١) **تفسير الطبري**: ج ١ ص ٥٧١.

الذين قالت عنهم الآيات السابقة على هذه الآية ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ (المدثر: ٤٣ - ٤٧) هذه الآيات واقعة في سورة المدثّر وهي من السور النازلة بمكة في بدء البعثة كما ترشد إليه مضامين الآيات الواقعة فيها، ولم يشرع يومئذ الصلاة والزكاة بالكيفية الموجودة اليوم، فالمراد بالصلاة في قوله ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ التوجّه إلى الله تعالى بالخضوع العبودي، وبإطعام المسكين مطلق الإنفاق على المحتاج في سبيل الله، دون الصلاة والزكاة المعهودتين في الشريعة الإسلامية، والخوض هو الغور في ملاهي الحياة وزخارف الدنيا الصارفة للإنسان عن الإقبال على الآخرة وذكر الحساب يوم الدين، أو التعمّق في الطعن في آيات الله المذكّرة ليوم الحساب المبشّرة المنذرة، ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ والمراد به اليقين الحاصل بحقيقة يوم الجزاء بمشاهدة آيات الآخرة ومعاينة الحياة البرزخية حين الموت وبعده.

ومن الواضح أن التلبس بهذه الصفات الأربع وهي ترك الصلاة لله تعالى وترك الإنفاق في سبيل الله والخوض وتكذيب يوم الدين، يؤدي إلى انهدام أركان الدين. فمن الطبيعي جداً أن لا تنفعهم شفاعة الشافعين؛ لما سيأتي من الشرائط التي لابدّ من توافرها في المشفوع له.

وبهذا تكون الآية من قبيل ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا

رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٠ - ٥٣) حيث صرّحت الآية بعدم الشفيع للكفّار يوم القيامة.

هذا مضافاً إلى أننا ذكرنا فيما سبق أن التعبير ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ أو ﴿مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ يثبت الشفاعة ولا ينفيها؛ وذلك:

• إن الشفاعة مضافة لا مجرّدة مقطوعة عن الإضافة، ففرق بين أن يقول القائل: «فلا تنفعهم الشفاعة» وبين أن يقول «فلا تنفعهم شفاعة الشافعين» فإن المصدر المضاف يُشعر بوقوع الفعل في الخارج، بخلاف المقطوع عن الإضافة.

• الإتيان بصيغة الجمع يدلّ على ذلك أيضاً، كقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ونظائرها، ولولا ذلك لكان الإتيان بصيغة الجمع - وله مدلول زائد على مدلول المفرد - لغواً زائداً في الكلام.

قال الطبري في ذيل هذه الآية: «فما يشفع لهم الذين شفّعهم الله في أهل الذنوب من أهل التوحيد، فتنفعهم شفاعتهم، وفي هذه الآية

دلالة واضحة على أن الله تعالى ذكره مشفّعٌ بعضَ خلقه في بعض»[١]. وقال الرازي: «احتج أصحابنا (الأشاعرة) على ثبوت الشفاعة للفسّاق بمفهوم هذه الآية، وقالوا: إن تخصيص هؤلاء بأنهم لا تنفعهم شفاعة الشافعين يدلّ على أن غيرهم تنفعهم شفاعة الشافعين»[٢]. وقال الزمخشري: «لو شفع لهم الشافعون جميعاً من الملائكة والنبيّين وغيرهم لم تنفعهم شفاعتهم، لأن الشفاعة لمن ارتضاه الله وهم مسخوط عليهم، وفيه دليل على أن الشفاعة تنفع يومئذ»[٣].

وأما **الآية الثانية** وهي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ فهي أيضاً تدلّ على ثبوت الشفاعة لا نفيها، كما تقدّم. فلو كان المراد مجرّد النفي لكان حقّ الكلام أن يقال: فما لنا من شفيع ولا صديق حميم. فالإتيان في حيّز النفي بصيغة الجمع يدلّ على وقوع شفاعة من جماعة وعدم نفعها في حقّهم، مضافاً إلى أن قوله تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعد قوله: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ المسوق للتحسّر هو تمنٍّ واقع في حيّز التحسّر، ومن المعلوم أن التمنّي في حيّز التحسّر إنما يكون بما يتضمّن ما فقده ويشتمل على ما تحسّر عليه، فيكون معنى قولهم: فلو أن لنا كرّة، أي يا ليتنا نردّ فنكون من المؤمنين حتى ننال الشفاعة من الشافعين كما نالها المؤمنون. لذا أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس

---

(١) **تفسير الطبري**: ج ١٢ ص ٣١٩.

(٢) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٣٠ ص ١٨٦.

(٣) **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل**: ج ٤ ص ٦٥٥.

في قوله: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ إلى الدنيا يعنون رجعة، ﴿فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى تحلّ لنا الشفاعة كما حلّت لهؤلاء»[1].

والجواب عن **الطائفة الثالثة**، وهي التي أفادت النفي بمثل قوله ﴿إلاّ بإذنه﴾ (البقرة: ٢٥٥) وقوله: ﴿إلاّ لِمَن ارْتَضَى﴾ (الأنبياء: ٢٨) هو:

أولاً: إنه لا يمكن قياس المقام بما ذكر من الآيتين لأنه مع الفارق. أما **الآية الأولى** وهي قوله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى * إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾ فلأن حمل الاستثناء فيها على الوقوع والتحقّق يتنافى مع ما دلّت عليه الأدلّة القطعية المتضافرة من أن النبيّ صلّى الله عليه وآله لا ينسى ما أوحي إليه من القرآن، لذا ورد عن ابن عباس قال: كان النبيّ صلّى الله عليه وآله يستذكر القرآن مخافة أن ينساه، فقيل له: كفيناك ذلك ونزلت ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾[2].

وأما **الآية الثانية** وهي قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ حيث جاء في ذيلها ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ولازمه أن لا يكون الاستثناء مشيراً إلى تحقّق الوقوع؛ فإنه لا يلائم كون الجنة عطاءً غير مقطوع بل مشيراً إلى إمكان الوقوع، والمعنى أنّ أهل الجنة فيها أبداً إلا أن يخرجهم الله

---

(١) **تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله والصحابة والتابعين**، تأليف: الإمام الحافظ عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم: ج ٨ ص ٢٧٨٧ تحقيق: أسعد محمد الطيب. المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ.

(٢) **الدر المنثور**: ج ٨ ص ٤٨٣.

منها، لكن العطية دائمية وهم غير خارجين والله غير شاء ذلك أبداً.

ثانياً: أن هناك قرائن داخلية في آيات الشفاعة دالّةً على وقوع الاستثناء وهي:

الأولى: قال سبحانه: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ (الأنبياء: ٢٨) سياق الآيات السابقة على هذه الآية يُظهر أن الشفاعة متحقّقة من هؤلاء يوم القيامة لكن لا مطلقاً وإنما لمن ارتضاه الحقّ تعالى؛ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٦ – ٢٨).

هذا مضافاً إلى أن التعبير عن رضاه بالفعل الماضي يدلّ على تحقّق ذلك الرضا في حقّ المشفوع له، ورضاه سبحانه لا ينفك عن إذنه للشفعاء، لأن إعلان الرضا بالنسبة إلى المشفوع له بلا صدور إذن منه سبحانه للشفيع يعدّ أمراً لغواً.

الثانية: وقال: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦) حيث أخبرت الآية عن شفاعة من شهد بالحقّ ممن كانوا تسبغ عليهم صفة الألوهية كالمسيح والملائكة، ومن الواضح جداً أن الاستثناء يدلّ على تملّك من شهد بالحقّ لأمر الشفاعة بإذن منه سبحانه، وتملّكه هذا يكشف عن تحقّق المراتب المتقدّمة عليه من إذنه سبحانه له وارتضائه لمن يستحقّها؛ لذا قال الطباطبائي: «والآية مصرّحة بوجود الشفاعة»[1]. وقال الزمخشري:

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١٨ ص ١٢٧.

«ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله، ولكن من «شهد بالحق» وهو توحيد الله وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان وإخلاص، هو الذي يملك الشفاعة»[(١)].

الثالثة: وقال: ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ (مريم: ٨٧) أي «لا يملك هؤلاء الكافرون بربّهم يا محمد يوم يحشر الله المتقين إليه وفداً الشفاعة حين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض عند الله، فيشفع بعضهم لبعض ﴿إلاَّ مَنِ اتَّخَذ﴾ منهم ﴿عند الرحمن﴾ في الدنيا ﴿عهداً﴾ بالإيمان به وتصديق رسوله والاقرار بما جاء به والعمل بما أمر به»[(٢)]. ومن الواضح أن الاستثناء ظاهر في تملّك من اتّخذ عند الرحمن عهداً أمر الشفاعة، وتمليكه سبحانه إياهم لا ينفكّ عن إذنه ورضاه.

«وإن شئت قلت: إن تمليك الشفاعة من جانب الله لفريق خاصّ، دالّ بالملازمة العرفية على أن هذا التمليك لأجل الاستفادة منه وتنفيذه فى مواضع خاصّة، وحمله على تجرّد التمليك من دون أن يقترن بالإذن أبداً تفسير للآية بغير الوجه المعقول، إذ أية فائدة لهذا التمليك الذي لا يتلوه الإذن أبداً، فإن هذا أشبه شيء بتمليك الشيء للإنسان والمنع عن الاستفادة منه بوجه من الوجوه.

لكن قد يقال: إن الشفاعة علّقت في الآية على اتّخاذ العهد عند الرحمن، وهناك آيات دلّت على أنه لم يتّخذ أحد عند الله عهداً كمثل

---

(١) **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل:** ج ٤ ص ٢٦٨.

(٢) **تفسير الطبري:** ج ٨ ص ٣٨١.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً﴾ (البقرة: ٨٠) وقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ (مريم: ٧٨) فيكون تعليق تمليك الشفاعة على أمر لم يتحقّق خارجاً.

إلا أن هذا الاعتراض لا يمكن الموافقة عليه، لأن سياق هذه الآيات كاشف عن أن الهدف هو نفي اتّخاذ العهد في حقّ جماعة خاصّة. أما الآية الأولى فلأنها وردت لنفي دعوى اليهود الواردة في قولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ فردّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾. وأما الآية الثانية فلأنها واردة أيضاً في مورد خاصّ وهو الذي يحكي عنه سبحانه بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾ (مريم: ٧٧) فردّ عليه سبحانه بقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾.

ومع هذا السياق الواضح في الآيتين هل يصحّ أن يقال إنه لا عهد بين الله سبحانه وبين أحد من عباده مطلقاً، مع أنه يصرّح بوجود مثل هذا العهد إذ يقول: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥) وقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه: ١١٥) إلى غير ذلك من الآيات»[1].

---

(١) **مفاهيم القرآن**: ج ٤ ص ٢٤٣.

الإشكال السابع:

أن آيات الشفاعة من المتشابهات

إن ما نطق به القرآن في الشفاعة يعدّ من الآيات المتشابهة، لأنه ينفيها تارة ويثبتها أخرى، وربما تأتي مقيّدة وأخرى مطلقة، ومقتضى الأدب الديني هو الإيمان بها وإرجاع علمها إلى الله تعالى. قال الشيخ محمد عبده: «فما ورد في إثبات الشفاعة يكون على هذا من المتشابهات، وفيه يقضي مذهب السلف بالتفويض والتسليم، وأنها مزيّة يختصّ الله بها من يشاء يوم القيامة، عبّر عنها بهذه العبارة «الشفاعة» ولا نحيط بحقيقتها مع تنزيه الله جلّ جلاله عن المعروف من معنى الشفاعة في لسان التخاطب العرفي»[1].

وهذا الذي اختاره هنا ينسجم مع ما ذكره في مباحث المحكم والمتشابه في ذيل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران: ٧) حيث قال: إن المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه من أحوال الآخرة. وورود المتشابه بهذا المعنى في القرآن ضروري، لأن من أركان الدين ومقاصد الوحي الإخبار بأحوال الآخرة، فيجب الإيمان بما جاء به

(١) تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار: ج ١ ص ٢٦٩.

الرسول من ذلك على أنه الغيب كما نؤمن بالملائكة والجنّ، ونقول إنه لا يعلم من تأويل ذلك أي حقيقة ما تؤول إليه هذه الألفاظ إلا الله، والراسخون في العلم وغيرهم في هذا سواء، وإنما يعرف الراسخون ما يقع تحت حكم الحسّ والعقل فيقفون عند حدّهم ولا يتطاولون إلى معرفة حقيقة ما يخبر به الرسل عن عالم الغيب، لأنهم يعلمون أنه لا مجال لحسّهم ولا لعقلهم فيه وإنما سبيله التسليم فيقولون ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾. فعلى هذا يكون الوقف على لفظ الجلالة لازماً، وإنما خصّ الراسخين بما ذكر لأنهم الذين يفرّقون بين المرتبتين ما يجول فيه علمهم وما لا يجول فيه. ومن المحال أن يخلو الكتاب من هذا النوع فيكون كلّه محكماً بالمعنى الذي يقابل المتشابه.

وأما المحكمات فهي الأصل الذي دعا الناس إليه ويمكنهم أن يفهموها ويهتدوا بها وعنها، يتفرّع غيرها وإليها يرجع. فإن اشتبه علينا شيء نردّه (المتشابه) إليها (المحكمات) وليس المراد بالرد أن نؤوله بل أن نؤمن بأنه من عند الله وأنه لا ينافي الأصل المحكم الذي هو أمّ الكتاب وأساس الدين الذي أمرنا أن نأخذ به على ظاهره الذي لا يحتمل غيره إلا احتمالاً مرجوحاً. مثال هذه المتشابهات قوله تعالى: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: ٥) وقوله: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١٠) وهذا رأي جمهور المفسّرين»[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار: ج ٣ ص ١٤٦، ١٤٧.

جواب الإشكال

والجواب عن هذا الإشكال بما يتّضح به الكلام - ولو إجمالاً - في حقيقة المحكم والمتشابه في القرآن هو أن يقال: أُطلق الإحكام والتشابه في القرآن بإطلاقين:

الأول: وصف القرآن نفسه بأن كلّ ما فيه فهو محكم؛ قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ (هود: ١) وكذلك وصف نفسه بأنه متشابه قال: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر: ٢٣).

أما الإحكام فهو مأخوذ من مادّة حكم تفيد معنى كون الشيء بحيث يمنع ورود ما يفسده أو يبعّضه أو يخلّ أمره عليه، ومنه الإحكام والتحكيم والحكم بمعنى القضاء، والحكمة بمعنى المعرفة التامة والعلم الجازم النافع. ففي الجميع شيء من معنى المنع والإتقان. قال الراغب: «حكم: أصله منعَ منعاً لإصلاحٍ، ومنه سُميت اللجام حَكَمَة الدابة»[1].

والمراد من الإحكام بقرينة ذكر التفصيل الذي جاء بعده ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ بيان حال من حالات الكتاب كان عليها قبل النزول وهي كونه واحداً لم يطرأ عليه التجزّي والتبعّض بعدُ بتكثّر الآيات؛ فهو إتقانه قبل وجود التبعّض. وبتعبير القرآن الكريم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٣ - ٤) حيث أشارت إلى أن هذا الكتاب الذي

---

(١) **المفردات في غريب القرآن**: ص ١٢٦، مادة «حكم».

بأيدينا له مرتبتان، مرتبة هو فيها «علي حكيم» ومرتبة هو فيها «عربي مبين».

والمراد من كونه «عليّاً» على ما يعطيه مفاد الآية السابقة «أنه رفيع القدر والمنزلة من أن تناله العقول، وبكونه «حكيماً» أنه هناك محكم غير مفصّل ولا مجزّى إلى سور وآيات وجمل وكلمات كما هو كذلك بعد جعله قرآناً عربياً. وهذان النعتان أعني كونه «عليّاً حكيماً» هما الموجبان لكونه وراء العقول البشرية، فإن العقل في فكرته لا ينال إلا ما كان من قبيل المفاهيم والألفاظ أولاً وكان مؤلفاً من مقدّمات تصديقية يترتب بعضها على بعض كما في الآيات والجمل القرآنية، وأما إذا كان الأمر وراء المفاهيم والألفاظ وكان غير متجزّ إلى أجزاء وفصول فلا طريق للعقل إلى نيله. فمحصّل معنى الآيتين: أن الكتاب عندنا في اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع وإحكام لا تناله العقول لذينك الوصفين، وإنما أنزلناه بجعله مقروّاً عربياً رجاء أن يعقله الناس»[(١)].

ويدلّ على هذه المرتبة الثانية التي تستند إلى الأولى قوله تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ (الإسراء: ١٠٦) فقد كان القرآن غير مفروق الآيات ثم فرّق ونزّل تنزيلاً وأوحي نجوماً.

«وبالجملة فالمحصل من الآيات الشريفة أن وراء ما نقرأه ونعقله من القرآن أمراً هو من القرآن بمنزلة الروح من الجسد والمتمثّل من المثال وهو الذي يسميه تعالى بالكتاب الحكيم، وهو الذي تعتمد

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١٨ ص ٨٤.

وتتكي عليه معارف القرآن المنزّل ومضامينه، وليس من سنخ الألفاظ المفرّقة المقطّعة ولا المعاني المدلول عليها بها»[١].

وأما المتشابه الذي وقع وصفاً للكتاب كلّه فالمراد به كون آيات هذا الكتاب ذات نسق واحد من حيث جزالة النظم وإتقان الأسلوب وبيان الحقائق والحكم والهداية إلى صريح الحقّ كما تدلّ عليه القيود المأخوذة في الآية ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (الزمر: ٢٣).

الثاني: قسّم القرآن الكريم الآيات إلى قسمين وهما المحكم والمتشابه حيث قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧). ومن الواضح أن الإحكام هنا غير الإحكام الذي وصف به الكتاب كلّه، كما أن التشابه هنا غير التشابه الذي وصف به جميع الكتاب.

«وقد وصفت المحكمات بأنها ﴿أم الكتاب﴾ والأمّ بحسب أصل معناها ما يرجع إليها الشيء، وليس إلا أن الآيات المتشابهة ترجع إليها، فالبعض من الكتاب وهي المتشابهات ترجع إلى بعض آخر وهي المحكمات. ومن هنا يظهر أن الإضافة في قوله ﴿أم الكتاب﴾

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ٣ ص ٥٤.

ليست لامية كقولنا: أم الأطفال، بل هي بمعنى «من» كقولنا: نساء القوم وقدماء الفقهاء ونحو ذلك، فالكتاب يشتمل على آيات هي أم آيات أخر»(١).

والتشابه والمتشابه لغة هو أن يكون أحد الشيئين مشابهاً للآخر بحيث يعجز الذهن عن التمييز؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ (البقرة: ٧٠) ومنه يقال: اشتبه عليّ الأمران إذا لم يفرّق بينهما، ثم لما كان من شأن المتشابهين عجز الإنسان عن التمييز بينهما سُمي كلّ ما لا يهتدي الإنسان إليه بالمتشابه إطلاقاً لاسم السبب على المسبب.

وبمقتضى قاعدة أن المعنى الاصطلاحي لأيّ مفردة لا يأتي بعيداً عن المعنى اللغوي لها، يكون المراد من التشابه هنا «هو كون الآية بحيث لا يتعيّن مرادها لفهم السامع بمجرد استماعها، بل يتردّد بين معنىً ومعنىً حتى يرجع إلى محكمات الكتاب فتعيّن هي معناها وتبيّنها بياناً، فتصير الآية المتشابهة عند ذلك محكمة بواسطة الآية المحكمة، والآية المحكمة محكمة بنفسها»(٢). قال الرازي: «لما كانت المحكمات مفهومة بذواتها والمتشابهات إنما تصير مفهومة بإعانة المحكمات، لا جرم صارت المحكمات كالأمّ للمتشابهات»(٣). وهذا

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ٣ ص ٢٠.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ٣ ص ٢١.

(٣) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٧ ص ١٥٠.

وهنا نكتة أشار إليها الرازي في هذا الموضع لا تخلو عن فائدة، قال: «وقيل إن ما جرى في الإنجيل من ذكر الأب وهو أنه قال: إن الباري القديم المكوّن للأشياء الذي به قامت الخلائق وبه ثبتت إلى أن يبعثها، فعبّر عن هذا المعنى

هو معنى الأمومة في قوله: ﴿هن أم الكتاب﴾ حيث يتضمّن عناية زائدة على معنى الأصل، فإن في هذه اللفظة أعني لفظة الأم عناية بالرجوع الذي فيه انتشاء واشتقاق وتبعّض فلا تخلو اللفظة عن الدلالة على كون المحكمات هي المفسّرة للمتشابهات ودليلاً عليها بمقتضى قاعدة أن القرآن بعضه يبيّن بعضاً وبعضه أصل يرجع إليه البعض الآخر، ولازمه أن تكون المتشابهات ذات مداليل ترجع إلى المحكمات.

ويمكن توضيح هذا الأصل القرآني من خلال بعض الأمثلة:

• قال تعالى: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه: ٥) حيث يشتبه المراد منه على السامع أول ما يسمعه، فإذا رجع إلى مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) وقوله: ﴿سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الصافات: ١٥٩) استقرّ الذهن على أن المراد به التسلّط على الملك والإحاطة على الخلق دون التمكّن والاعتماد على المكان المستلزم للتجسّم المستحيل على الله سبحانه؛ لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في جواب السائل عن قوله: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: «**بذلك وصف نفسه، وكذلك هو مستولٍ على العرش باينٌ من خلقه من غير أن يكون العرش حاملاً له ولا أن يكون العرش حاوياً له ولا أن يكون العرش ممتازاً له، ولكنا نقول: هو حامل العرش وممسك العرش**

بلفظ الأب من جهة أن الأب هو الذي حصل منه تكوين الابن، ثم وقع في الترجمة ما أوهم الأبوّة الواقعة من جهة الولادة، فكان قوله: ﴿مَا كَانَ لله أَن يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ (مريم: ٣٥) محكماً لأن معناه متأكد بالدلائل العقلية القطعية، وكان قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (النساء: ١٧١) من المتشابهات التي يجب ردّها إلى ذلك المحكم.

ونقول من ذلك ما قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ فثبتنا من العرش والكرسي ما ثبّته ونفينا أن يكون العرش أو الكرسي حاوياً، وأن يكون عزّ وجلّ محتاجاً إلى مكان أو إلى شيء مما خلق بل خلقه محتاجون إليه»(١).

فقوله عليه السلام: «فثبّتنا من العرش والكرسي ما ثبّته...» إشارة إلى طريقة أهل البيت عليهم السلام في تفسير الآيات المتشابهة من القرآن، مما يرجع إلى أسمائه وصفاته وأفعاله وآياته الخارجة عن الحس، وذلك بإرجاعها إلى المحكمات ونفي ما تنفيه المحكمات من ساحة قدسه، وإثبات ما ثبت بالآية، وهو أصل المعنى المجرّد عن شائبة النقص والإمكان التي نفتها المحكمات.

• وقال تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٣) فإنها آية متشابهة وبإرجاعها إلى قوله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ (الأنعام: ١٠٣) يتبيّن أن المراد بها نظرة ورؤية من غير سنخ البصر الحسّي، وقد قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ إلى أن قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (النجم: ١١ - ١٨) فأثبت للقلب رؤية تخصّه، وليس هو الفكر فإن الفكر إنما يتعلّق بالتصديق والمركّب الذهني، والرؤية إنما تتعلّق بالمفرد العينيّ، فيتبيّن أنه توجّه من القلب ليست بالحسّية المادّية ولا بالعقلية الذهنية.

والأمر على هذه الوتيرة في سائر المتشابهات.

وبهذا يتحصّل أن المراد من المحكمات هي الآيات المتضمّنة

---

(١) بحار الأنوار، ج٣، ص٢٩.

للأصول المسلّمة من القرآن، وبالمتشابهات الآيات التي تتعيّن وتتّضح معانيها بتلك الأصول.

في ضوء ذلك يتبيّن أنه لا يوجد في القرآن آية لا تنطق بمعناها «بل ما من آية إلا وفيها دلالة على المدلول: إما مدلول واحد لا يرتاب فيه العارف بالكلام أو مداليل يلتبس بعضها ببعض، وهذه المعاني الملتبسة لا تخلو عن حقّ المراد بالضرورة وإلا بطلت الدلالة، وهذا يتنافى مع الآيات الدالّة على أن القرآن نور وهدىً وتبيان وبيان ومبين ونحو ذلك. وهذا المعنى الواحد الذي هو حقّ المراد لا محالة لا يكون أجنبياً عن الأصول المسلّمة في القرآن كوجود الصانع وتوحيده وبعثة الأنبياء وتشريع الأحكام والمعاد ونحو ذلك، بل هو موافق لها وهي تستلزمه وتنتجه وتعيّن المراد الحقّ من بين المداليل المتعدّدة المحتملة»[١].

إذا اتّضح ذلك نقول: حتى لو سلّمنا أن الآيات التي تكلّمت عن الشفاعة هي من المتشابهات - وإن كان ما تقدّم في جواب الإشكال السادس ينفي أيّ إبهام والتباس في فهم هذه الآيات - فإنه قد تبيّن هنا أن المتشابهة من الآيات تصير بإرجاعها إلى المحكمات محكمات مثلها، وهو أمر ميسور كما هو واضح.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ٣ ص ٢٢.

الإشكال الثامن:
إن الشفاعة تتنافى مع وجوب السعي

فحوى هذا الإشكال أن الشفاعة تتنافى مع قاعدة ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إلاَّ مَا سَعَى﴾.

من الحقائق الأساسية التي عرض لها القرآن الكريم أنه جعل مصير كلّ انسان قيد عمله ورهن سعيه؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأوْفَى﴾ (النجم: ٣٩ - ٤١) واللام في قوله: «للإنسان» للملك الحقيقي الذي يقوم بصاحبه قياماً باقياً ببقائه يلازمه ولا يفارقه بالطبع وهو الذي يكتسبه الإنسان بصالح العمل أو طالحه من خير أو شرّ. روي عن قيس بن عاصم عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنه قال: «**يا قيس، إن مع العزّ ذلاً، ومع الحياة موتاً، ومع الدنيا آخرة، وإن لكلّ شيء رقيباً وعلى كلّ شيء حسيباً، وإن لكلّ أجل كتاباً، وإنه لابدّ لك من قرين يدفن معك وهو حيّ وتدفن معه وأنت ميّت، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً ألأمك، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه ولا تسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً فإنه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه، وهو فعلك**»[1].

وأما ما يراه الإنسان مملوكاً لنفسه وهو في ظرف الحياة

---

(١) **جامع السعادات**، للشيخ الجليل محمد مهدي النراقي: ج ١ ص ٤٩ منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان .

الاجتماعية من مال وبنين وجاه ومقام وغير ذلك من زخارف الحياة الدنيا وزينتها، فكلّ ذلك من الملك الاعتباري الوهميّ الذي يصاحب الإنسان ما دام في دار الغرور ويودّعه عندما ينتقل إلى دار الخلود وعالم الآخرة. ولما كانت الرابطة بين المالك والمملوك في هذا النوع من الملك بالوضع والاعتبار نرى ما نرى فيه من جواز التغيّر والتحوّل، فمن الجائز أن ينتقل هذا النوع من الملك من إنسان إلى آخر بالبيع والهبة وسائر أسباب التنقل، بخلافه في الملك الحقيقي فإن الرابطة حقيقية غير قابلة للتغيّر والزوال إلا عن طرقها التكوينية والوجودية.

وكيفما كان فمحصل معنى الآية أنه لا يملك الإنسان ملكاً يعود إليه أثره من خير أو شرّ أو نفع أو ضرّ إلا ما جدّ في من عمل، فله ما قام بفعله بنفسه، وأما ما قام به غيره من عمل فلا يلحق بالإنسان أثره خيراً أو شرّاً.

وكذلك قوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ فالمراد بالسعى ما سعى فيه من العمل، وبالرؤية المشاهدة وظرف المشاهدة يوم القيامة؛ بدليل تعقيبه بالجزاء، فالآية قريبة من قوله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إلاَّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ (يونس: ٥٢) وقوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور: ٢١) وقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ (آل عمران: ٣٠) وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧ – ٨).

فهذه الآيات وكثير غيرها تجعل الجزاء رهن العمل والسعي وأنه

هو نتيجة ذلك، فكيف يجتمع هذا الأصل القرآني مع الاعتقاد وتأثيره في رفع العقوبة أو في ارتفاع الدرجة.

ولعله يمكن توسعة دائرة الإشكال ليشمل موارد أخرى أشار إليها القرآن الكريم لا تنسجم مع هذا الأصل القرآني:

منها: أن من الحسنات ما يوجب لحوق مثلها بالغير؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الطور: ٢١) وكذلك بعض السيّئات كظلم أيتام الناس يوجب نزول مثله على أيتام نسل الظالم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ (النساء: ٩).

ومنها: أن من الحسنات ما يدفع سيّئات صاحبها إلى غيره ويجذب حسنات الغير إليه، كما أن من السيّئات ما يدفع حسنات صاحبها إلى الغير ويجذب سيّئاته إليه، وهذا من عجيب الأمر في باب الجزاء والاستحقاق؛ قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٧). قال الطباطبائي: «إن الله سبحانه يميّز في هذا النظام الجاري الشرّ من الخير والخبيث من الطيّب ويركم الخبيث بجعل بعضه على بعض ويجعل ما اجتمع منه وتراكم في جهنم، وهي الغاية التي تسير إليها قافلة الشرّ والخبيث يحلّها الجميع وهي دار البوار، كما أن الخير والطيب إلى الجنة، والأولون هم الخاسرون كما أن الآخرين هم الرابحون المفلحون، والآية تشير إلى قانون كلي إلهي وهو إلحاق فرع كلّ شيء بأصله»[١].

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ٩ ص ٧٤.

ومنها: أن من المعاصي ما ينقل مثل سيّئات الغير إلى الإنسان لا عينها؛ قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (النحل: ٢٥) وقال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (العنكبوت: ١٣). وكذا من الطاعات ما ينقل مثل حسنات الغير إلى الإنسان لا عينها؛ قال تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ (يس: ١٢).

ومنها: أن من المعاصي ما ينقل حسنات فاعلها إلى غيره كالقتل؛ قال تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ (المائدة: ٢٩) وقد ورد هذا المعنى في الغيبة والبهتان وغيرهما في الروايات المأثورة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام.

ومن الواضح أن هذا النظام الحاكم على الجزاء في النشأة الأخرى حيث يجازى الإنسان بفعل غيره خيراً أو شرّاً ويسند الفعل إلى غير فاعله ويجعل الفعل غير نفسه ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ (الفرقان: ٧٠) لا ينسجم مع النظام الحاكم في عالمنا المشهود «حيث إن فعل الأكل مثلاً من حيث إنه مجموع حركات جسمانية فعلية وانفعالية، إنما يقوم بفاعله نحو قيام يعطيه الشبع مثلاً، ولا يتخطّاه إلى غيره ولا ينتقل عنه إلى شخص آخر دونه، وكذا إذا ضرب زيد عمراً كانت الحركة الخاصّة ضرباً لا غير وكان زيدٌ ضارباً لا غير، وكان عمرو مضروباً لا غير، إلى غير ذلك من الأمثلة.

لكن هذه الأفعال بحسب نشأة السعادة والشقاوة على غير هذه الأحكام، فربما بدّل الفعل من غير نفسه، وربما نقل الفعل وأسنده إلى غير فاعله، وربما أعطي للفعل غير حكمه، إلى غير ذلك من الآثار المخالفة لنظام هذا العالم الجسماني»(١).

الجواب

ويمكن أن يجاب عن ذلك بجوابين:

الأول: جواب عام يشمل هذه الموارد جميعاً، بيانه: إن الله تكلّم مع الناس في دعوتهم وإرشادهم بلسان أنفسهم وجرى في مخاطباته إيّاهم وبياناته لهم مجرى العقول الاجتماعية وتمسّك بالأصول والقوانين الدائرة في عالم العبودية والمولوية، فعدّ نفسه مولى والناس عبيداً والأنبياء رسلاً إليهم، وواصلهم بالأمر والنهي والبعث والزجر والتبشير والإنذار والوعد والوعيد وسائر ما يلحق بهذا الطريق من عذاب ومغفرة وغير ذلك.

وهذه طريقة القرآن الكريم في تكليمه للناس، فهو يصرّح أن الأمر أعظم مما يتوّهمه الناس أو يُخيّل إليهم، غير أنه شيء لا تسعه حواصلهم وحقائق لا تحيط بها أفهامهم، ولذلك نُزّل منزلة قريبة من أُفق إدراكهم لينالوا ما شاء الله أن ينالوه من تأويل هذا الكتاب العزيز، وسينكشف على الإنسان ما هو مستور عنه اليوم يوم تبلى السرائر كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ٢ ص ١٧٤، بتصرّف.

نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٣).

وبهذا الذي ذكرنا يرتفع الاختلاف المتراءى بين هذه الآيات المشتملة على هذه الأحكام وبين أمثال قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ (النجم: ٣٩) وقوله: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: ١٦٤) وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس: ٤٤).

وبهذا يتّضح أن ما يجري على الإنسان يوم القيامة من الجزاء، خيراً كان أو شرّاً، بفعل نفسه أو بفعل غيره هو الحق؛ قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (الزمر: ٦٩ - ٧٠) فقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يدلّ أو يُشعر بأن توفية كلّ نفس ما عملت إنما هي على حسب ما يعلمه الله سبحانه ويحاسبه من أفعالهم، لا على حسب ما يحاسبونه من عند أنفسهم.

الثاني: جواب خاصّ بالشفاعة في المقام، نقضاً وحلاًّ:

أما **النقض**: فإن القرآن يصرّح بأن دعاء الغير سبب لمغفرة الذنوب؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (غافر: ٧) فلو كان ما ذكره المستشكل صحيحاً فكيف يكون دعاء حملة

العرش موجباً للمغفرة، وكذا استفادة المؤمن بعد موته من استغفار المؤمنين له والأعمال الصالحة التي تهدى إليه مثوباتها، وكذا من سنّ سنّة حسنة فله ثوابها وثواب من عمل بها، ومن سنّ سنّة سيّئة كان له وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وأما **الحلّ**: فإن الانتفاع من شفاعة الشفعاء يوم القيامة لأهل الكبائر، فهو في الحقيقة للسعي الجميل الذي قام به المشفوع له، وتعدّ من آثاره وتوابعه؛ إذ لولا عمله وسعيه وجدّه واجتهاده في الإيمان بالله سبحانه وإقامة الفرائض والاجتناب عن المحرّمات في الجملة لما نالته شفاعة الأولياء؛ فالسعي الذي قام به طيلة حياته على وجه حفظ به علاقاته مع الله سبحانه ومع أوليائه هو المصحّح للشفاعة والموجب لمغفرته بدعاء الشفيع.

الفصل الرابع

شرائط المشفوع لهم

إن الضابطة الكليّة التي يجب الالتفات إليها هنا أن القرآن الكريم لم يحدّد شخصاً معيّناً أو جماعة معيّنة أو ذنباً معيّناً تشمله الشفاعة على نحو التحديد، لأن لازم مثل ذلك هو نقض الغرض الذي من أجله أنزلت الشرائع وبلّغها الأنبياء والرسل إلى الناس، وإلا لو أحرز الإنسان التخلّص عن الجزاء وتبعة المخالفة والعصيان بشفاعة أو غيرها للزم أن يكون هذا المبدأ هادماً للإنسانية ومؤخراً للمدنية كما مرّ.

ولعمري لا الإسلام يثبت الشفاعة بالمعنى الذي ينسب إلى المسيحية من أن المسيح فدى الناس في معاصيهم بصلبه فأتباعه يتّكلون عليه في تخليصهم من يد القضاء يوم القيامة، ولا الشفاعة التي يثبتها تؤثّر الأثر الذي زعموه لها. نعم أثبت القرآن من الشفاعة هذا المعنى وهو أن المؤمنين لا يخلدون في النار يوم القيامة بشرط أن يلاقوا ربّهم بالإيمان المرضيّ والدين الحق، فهو وعد وعده القرآن مشروطاً، ثم نطق بأن الإيمان من حيث بقائه على خطر عظيم من جهة الذنوب ولاسيما الكبائر، وهذا لازمه أن الإنسان على شفا جرف

الهلاك الدائم، وبذلك يتحصل رجاء النجاة وخوف الهلاك، ويسلك المؤمن بين الخوف والرجاء فيعبد ربّه رغبة ورهبة ويسير في حياته سيراً معتدلاً غير منحرف لا إلى خمود القنوط ولا إلى كسل الوثوق.

في ضوء هذه الحقيقة فإن القرآن عَرّف من تشملهم الشفاعة نحو تعريف لا يخلو من الإبهام والإجمال من خلال بيان الشروط والضوابط التي تنطبق عليهم لئلا يؤدي ذلك إلى الأمن من الجزاء والعقوبة التي يستحقّها المذنب. من هنا قلنا فيما مرّ أن وعد الشفاعة أو تبليغها إنما يستلزم تجرّي الناس على المعصية وإغراءهم على التمرّد والمخالفة إذا تحقّق شرطان:

• تعيين المجرم بنفسه أو نعته أو تعيين الذنب الذي تقع فيه الشفاعة تعييناً لا يقع فيه لبس بنحو الإنجاز من دون تعليق بشرط جائز.

• تأثير الشفاعة في جميع أنواع العقاب وأوقاته بأن تقلعه من أصله قلعاً.

هنا قد يقال: إذا كانت الشفاعة لا تتحقّق إلا بهذه الشرائط فكيف ينسجم ذلك مع قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ (النساء: ٣١) فإن هذه الآية وإن لم تعيّن شخصاً ما أو جماعة إلا أنها بيّنت أن الإنسان باجتنابه الكبائر تغفر له الصغائر، فما عليه إلا أن يشخّص الكبائر بمعونة الآيات والروايات فيجتنبها، وبعد ذلك له أن يرتكب الصغائر كيفما يشاء اعتماداً على الوعد الإلهي بمغفرتها، وما هذا إلا نقض للغرض الإلهي فيما يرتبط بالصغائر خاصّة. من هنا ذهب كثير من الأعلام إلى القول

«إن الله تعالى لم يميّز جملة الكبائر عن جملة الصغائر، لأنه تعالى لمّا بيّن في هذه الآية أن الاجتناب عن الكبائر يوجب تكفير الصغائر، فإذا عرف العبد أن الكبائر ليست إلا هذه الأصناف المخصوصة عرف أنه متى أحرز عنها صارت صغائر مكفّرة، فكان ذلك إغراءً له بالإقدام على تلك الصغائر، والإغراء بالقبيح لا يليق بالجملة. أما إذا لم يميّز الله تعالى كلّ الكبائر عن كلّ الصغائر ولم يعرف في شيء من الذنوب أنه صغيرة ولا ذنب يقدم عليه إلا ويجوّز كونه كبيرة، فيكون ذلك زاجراً له عن الإقدام عليه.

والحاصل: إن هذه القاعدة تقتضي أن لا يبيّن الله تعالى في شيء من الذنوب أنه صغيرة، وأن لا يبيّن أن الكبائر ليست إلا كذا وكذا، فإنه لو بيّن لكان ما عداها صغيرة، فحينئذ تصير الصغيرة معلومة، ولكن يجوز أن يبيّن في بعض الذنوب أنه كبيرة»[1].

والحقّ أن تمييز جملة الكبائر عن جملة الصغائر لا يبعث على التجرّي ولا نقض الغرض، لأنها تدعو إلى ترك الكبائر بلا شك، وارتكاب الصغيرة من جهة أنها صغيرة والتهاون في أمرها والإصرار عليها يعدّ مصداقاً من مصاديق الطغيان والاستهانة بأمر الله سبحانه وهو من أكبر الكبائر. قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**إن رسول الله صلّى الله عليه وآله نزل بأرض قرعاء (أي لا نبات فيها) فقال لأصحابه: ائتوا بحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب. قال: فليأت كلّ إنسان بما قدر عليه، فجاءوا به حتى رموا بين يديه**

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ج ١٠ ص ٦٢.

بعضه على بعض، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: هكذا تجتمع الذنوب ثم قال: إياكم والمحقّرات من الذنوب، فإن لكلّ شيء طالباً ألا وإن طالبها يكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين».

وعن عبد الله بن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار**». وعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٥) قال: «**الإصرار هو أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدّث نفسه بتوبة فذلك الإصرار**»[(١)].

نعم هذه الآية تعد تكفير السيّئات من جهة أنّها سيّئات لا يخلو الإنسان (المخلوق على الضعف المبني على الجهالة) من ارتكابها بغلبة الجهل والهوى عليه. فمساق هذه الآية مساق قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ (الزمر: ٥٣ - ٥٤) فكما لا يصحّ أن يقال في هذه الآية التي تعِد غفران الذنوب جميعاً أنها تغري إلي المعصية بفتح باب التوبة، فكذا لا يمكن أن يقال في الآية محلّ الكلام، بل أمثال هذه الخطابات الإلهية إحياء للقلوب الآيسة بالرجاء.

وبهذا يتّضح أن الآية ليست بصدد المنع عن معرفة الكبائر وتمييزها عن جملة الصغائر؛ حتى يلزم من ذلك «اتقاء جميع

---

(١) يمكن مراجعة هذه النصوص في: **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٢٨٨ كتاب الإيمان والكفر، باب الإصرار على الذنب.

المعاصي مخافة الوقوع في الكبائر والابتلاء بارتكابها، فإن ذلك معنىً بعيد عن مساق الآية، بل المستفاد منها أن المخاطبين هم يعرفون الكبائر ويميّزون الموبقات من النهي المتعلّق بها، ولا أقلّ من أن يقال: إن الآية تدعو إلى معرفة الكبائر حتى يهتمّ المكلّفون في الاتقاء منها كلّ الاهتمام من غير تهاون في جنب غيرها؛ فإن ذلك التهاون كما عرفت إحدى الكبائر الموبقة، وذلك أن الإنسان إذا عرف الكبائر وميّزها وشخّصها عرف أنها حرمات لا يغمض من هتكها بالتكفير إلا عن ندامة قاطعة وتوبة نصوح، ونفس هذا العلم مما يوجب تنبّه الإنسان وانصرافه عن ارتكابها»[١].

المرضيّ عند الله تعالى

الشرط الأساسي الذي بيّنه القرآن الكريم لمستحقّ الشفاعة هو ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ (الأنبياء: ٢٨) فلا تنال شفاعة الشافعين أحداً إلا من ارتضاه الله سبحانه، فمن هو المرضيّ عند الله حقاً؟

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ (النور:٥٥) حيث بيّن أن هناك ديناً ارتضاه الله لعباده، ثم بيّن أن ذلك الدين هو الإسلام؛ قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلامَ دِيناً﴾

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ٤ ص ٣٢٥.

(المائدة: ٣) فإذا اعتقد الإنسان بهذا الدين المرضيّ عند الله تعالى يكون مرضيّاً عنده أيضاً. ولست الآن بصدد الدخول في بحث ما إذا كان الإسلام المرضيّ عند الله يتقوّم بالإمامة والولاية التي قالت بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام كما هو صريح الآية المباركة حيث جعلت الدين المرضيّ بعد إكمال الدين وإتمام النعمة، لأنه بحث كلامي موكول إلى غير هذه الدراسة(١).

---

(١) وقع الكلام بين أعلام المفسّرين أنه بماذا كمل الدين وتمّت النعمة؟ وما الذي حدث حتى ينقطع رجاء الكفار والمشركين بالقضاء على هذا الدين؟

- فذهب بعضهم إلى أن المراد باليوم في قوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ هو زمان ظهور الإسلام ببعثة النبي صلى الله عليه وآله ودعوته، فيكون المراد أن الله أنزل إليكم الإسلام وأكمل لكم الدين وأتمّ عليكم النعمة وأيأس منكم الكفار.
- وبعض إلى أن المراد باليوم هو ما بعد فتح مكة حيث أبطل الله فيه كيد مشركي قريش وأذهب شوكتهم وهدم فيه بنيان دينهم وكسر أصنامهم، فانقطع رجاؤهم أن يقوموا على ساق ويضادّوا الإسلام ويمانعوا نفوذ أمره وانتشار صيته.
- وبعض إلى أن المراد باليوم ما بعد نزول البراءة من الزمان حيث انبسط الإسلام على جزيرة العرب تقريباً وعفت آثار الشرك، وماتت سنن الجاهلية، فما كان المسلمون يرون في معاهد الدين ومناسك الحج أحداً من المشركين، وصفا لهم الأمر وأبدلهم الله بعد خوفهم أمناً يعبدونه ولا يشركون به شيئاً.

هذه بعض الاحتمالات التي ذُكرت في الآية.

وما ينبغي أن يقال في ذلك كما أشرنا إليه مفصّلاً في مباحث الإمامة، أن قوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ﴾ يدلّ على أن الكفار قد كان لهم مطمع في دين المسلمين وهو الإسلام وكانوا يرجون زواله بنحو منذ عهد وزمان، وأن أمرهم ذلك كان يهدّد الإسلام حيناً بعد حين وكان الدين منهم على

خطر يوماً بعد يوم، وأن ذلك كان من حقّه أن يحذر منه ويخشاه المؤمنون، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٩) فقوله: ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ﴾ تأمين منه سبحانه للمؤمنين مما كانوا فيه على خطر ومن تسرّبه على خشية.

والكفّار لم يكونوا يتربّصون بالمسلمين إلا لدينهم ولم يكن يضيق صدورهم وينصدع قلوبهم إلا من جهة أن الدين يذهب بسؤددهم وشرفهم واسترسالهم في اقتراف كلّ ما تهواه طباعهم وتألفه وتعتاد به نفوسهم، ويختم على تمتعهم بكلّ ما يشتهون بلا قيد وشرط.

فقد كان الدين هو المبغوض عندهم دون أهل الدين إلا من جهة دينهم الحق، فلم يكن في قصدهم إبادة المسلمين وإخفاء جمعهم بل إطفاء نور الله وتحكيم أركان الشرك المتزلزلة المضطربة به، وردّ المؤمنين كفاراً كما مرّ في قوله: ﴿لَو يَرُدُّونَكُم... كُفّاراً﴾ قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ الله بِأَفْواهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف: ٨ – ٩) ولذلك لم يكن لهم همّ إلا أن يقطعوا هذه الشجرة الطيّبة من أصلها ويهدموا هذا البنيان الرفيع من أسّه بتفتيت المؤمنين وتسرية النفاق في جماعتهم وبثّ الشبهة والخرافات بينهم لإفساد دينهم.

وكانت لهم محاولات مختلفة في القضاء على هذا الدين كما أشار إليه القرآن الكريم وجاء في أسباب النزول، إلا أن آخر ما كانوا يرجونه – بعد فشل كل المحاولات السابقة – أنه سيموت بموت هذا القائم بأمره ولا عقب له، فإنهم كانوا يرون أنه ملك في صورة النبوة وسلطنة في لباس الدعوة والرسالة، فلو مات أو قتل لانقطع أثره ومات ذكره وذكر دينه على ما هو المشهود عادة من حال السلاطين والجبابرة والطغاة أنهم مهما بلغ أمرهم من التعالي والتجبّر وركوب رقاب الناس فإن ذكرهم يموت بموتهم، وسننهم وقوانينهم الحاكمة بين الناس وعليهم، تدفن معهم في قبورهم، يشير إلى رجائهم هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر﴾ (الكوثر: ٣) على ما ورد في أسباب النزول.

= فقد كانت هذه وأمثالها أماني تمكّن الرجاء من نفوسهم وتطمعهم في إطفاء نور الدين، وتزيّن لأوهامهم أن هذه الدعوة الطاهرة ليست إلا أحدوثة ستكذبها المقادير ويقضي عليها ويعفو أثرها مرور الأيام والليالي، لكن ظهور الإسلام تدريجاً على كلّ ما نازله من دين وأهله وانتشار صيته واعتلاء كلمته بالشوكة والقوة، قضى على هذه الأماني فيئسوا من إفساد عزيمة النبي صلى الله عليه وآله وإيقاف همّته عند بعض ما كان يريده وتطميعه بمال أو جاه.

قوة الإسلام وشوكته أيأستهم من جميع تلك الأسباب (أسباب الرجاء) إلا واحداً وهو أنه صلىالله عليه وآله مقطوع العقب لا ولد له يخلفه في أمره ويقوم على ما قام عليه من الدعوة الدينية فسيموت دينه بموته، وذلك أن من البديهي أن كمال الدين من جهة أحكامه ومعارفه وإن بلغ ما بلغ لا يقوى بنفسه على حفظ نفسه، وأن سنّة من السنن المحدثة والأديان المتّبعة لا تبقى على نضارتها وصفائها لا بنفسها ولا بانتشار صيتها ولا بكثرة المنتحلين بها، كما أنها لا تنمحي ولا تنطمس بقهر أو جبر أو تهديد أو فتنة أو عذاب أو غير ذلك إلا بموت حملتها وحفظتها والقائمين بتدبير أمرها.

من جميع ما تقدم يظهر أن تمام يأس الكفّار إنما كان يتحقّق عند الاعتبار الصحيح بأن ينصب الله لهذا الدين من يقوم مقام النبي صلى الله عليه وآله في حفظه وتدبير أمره وإرشاد الأمة القائمة به، فيتعقب ذلك يأس الذين كفروا من دين المسلمين لما شاهدوا خروج الدين عن مرحلة القيام بالحامل الشخصي إلى مرحلة القيام بالحامل النوعي، ويكون ذلك إكمالاً للدين بتحويله من صفة الحدوث إلى صفة البقاء، وإتماماً لهذه النعمة.

وليس يبعد أن يكون قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ١٠٩) باشتماله على قوله ﴿حتى يأتي﴾ إشارة إلى هذا المعنى.

وهذا يؤيد ما ورد من الروايات عن طرق الفريقين أن الآية نزلت يوم غدير خمّ وهو اليوم الثامنعشر من ذي الحجة سنة عشر من الهجرة في أمر ولاية علي عليه السلام، وعلى هذا فترتبط الفقرتان أوضح الارتباط.

ثم إنك بعدما عرفت معنى اليأس في الآية تعرف أن «اليوم» في قوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الذينَ كَفَرُوا مِنْ دِينكُم﴾ ظرف متعلق بقوله: «يئس» وأن التقديم للدلالة على تفخيم أمر اليوم وتعظيم شأنه؛ لما فيه من خروج الدين من مرحلة القيام بالقيّم الشخصي إلى مرحلة القيام بالقيّم النوعي، ومن صفة الظهور والحدوث إلى صفة البقاء والدوام.

وأما قوله: ﴿فَلا تَخْشَوْهُم وَاخْشَوْن﴾ فالنهي إرشاديّ لا مولويّ، معناه أن لا موجب للخشية بعد يأس الذين كنتم في معرض الخطر من قبلهم، ومن المعلوم أن الإنسان لا يهمّ بأمر بعد تمام اليأس من الحصول عليه ولا يسعى إلى ما يعلم ضلال سعيه فيه، فأنتم في أمن من ناحية الكفّار ولا ينبغي لكم مع ذلك الخشية منهم على دينكم فلا تخشوهم واخشوني. ومن هنا يظهر أن المراد بقوله: ﴿وَاخْشَوْن﴾ بمقتضى السياق أن اخشوني فيما كان عليكم أن تخشوهم فيه لولا يأسهم من الدين ونزعه من أيديكم، وهذا نوع تهديد للمسلمين كما هو ظاهر ولهذا لم نحمل الآية على الامتنان.

ويؤيد ما ذكرنا أن الخشية من الله سبحانه واجب على أيّ تقدير من غير أن يتعلّق بوضع دون وضع وشرط دون شرط، فلا وجه للإضراب من قوله: ﴿فَلا تَخْشَوْهُم﴾ إلى قوله ﴿وَاخْشَوْن﴾ لولا أنها خشية خاصّة في مورد خاصّ.

فالآية لمكان قوله ﴿فَلا تَخْشَوْهُم وَاخْشَوْن﴾ لا تخلو عن تهديد وتحذير لأن فيه أمراً بخشية خاصّة دون الخشية العامة التي تجب على المؤمن على كل تقدير وفي جميع الأحوال، فلننظر في خصوصية هذه الخشية والسبب الموجب لوجوبها والأمر بها؟

لا إشكال في أن الفقرتين – أعني قوله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ﴾ وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتي﴾ في الآية مرتبطتان مسوقتان لغرض واحد كما عرفت، فالدين الذي أكمله اليوم والنعمة التي أتمّها اليوم – وهما أمر واحد بحسب الحقيقة – هو الذي كان يطمع فيه الكفّار ويخشاهم فيه المؤمنون، فأيأسهم الله منه وأكمله وأتمّه، ونهاهم عن أن يخشوهم فيه، فالذي←

الرضا بين الاعتقاد والعمل

قلنا إن أمر الشفاعة يدور مدار الرضا الإلهي، وإن هذا الرضا يدور مدار الاعتقاد بالإسلام لأنه الدين المرضيّ عند الله، في ضوء ذلك فهل

← أمرهم بالخشية من نفسه فيه هو ذاك بعينه وهو أن ينزع الله الدين من أيديهم ويسلبهم هذه النعمة الموهوبة.

وقد بيّن الله سبحانه أن لا مسبب لسلب النعمة إلا الكفر بها وهدّد الكفور أشدّ التهديد؛ قال تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٥٣) وقال: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ (البقرة:٢١١) وضرب مثلاً كلّيا لنعمه وما يؤول إليه أمر الكفر بها فقال: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذاقَهَا اللهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢).

فمحصل الآية يؤذن بأن دين المسلمين في أمن من جهة الكفّار مصون من الخطر المتوجّه من قبلهم وأنه لا يتسرّب إليه شيء من طوارق الفساد والهلاك إلا من قبل المسلمين أنفسهم، وأن ذلك إنما يكون بكفرهم بهذه النعمة التامّة ورفضهم هذا الدين الكامل المرضيّ، ويومئذ يسلبهم الله نعمته ويغيّرها إلى النقمة ويذيقهم لباس الجوع والخوف، وقد فعلوا وفعل.

ومن أراد الوقوف على مبلغ صدق هذه الآية فيما أخبرت به من الغيب، فعليه أن يتأمل فيما استقرّ عليه حال العالم الإسلامي اليوم ثم يرجع إلى الوراء ليحلّل الحوادث التاريخية حتى يحصل على أصول القضايا وأعراقها.

ولآيات الولاية في القرآن ارتباط تام بما في هذه الآية من التحذير والإيعاد، ولم يحذّر الله العباد عن نفسه في كتابه إلا في باب الولاية فقال فيها مرة بعد مرة: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه﴾ (آل‌عمران: ٢٨ ، ٣٠).

يمكن مراجعة هذا المبحث تفصيلاً في: **تفسير الميزان**: ج ٥ ص ١٦٧ – ١٨٢.

يشترط في المرضيّ عنه أن يكون كذلك اعتقاداً وسلوكاً أو يكفي فيه أن يكون مرضيّاً عنه اعتقاداً وديناً وإن كان من حيث السلوك والعمل قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً؟

وقبل الإجابة على هذا التساؤل لابدّ أن نذكّر أن الشفاعة المتحدّث عنها هنا هي الشفاعة المصطلحة أي الرافعة للعقاب لا الدافعة له ولا هي لزيادة الثواب، وأنها لا تنفع من استهان بأمر الله سبحانه واستهزأ بالتوبة والندامة، ومن الواضح أن اقتراف المعصية بالاعتماد على الشفاعة تساهل وتهاون في أمر الله سبحانه، وهو من الكبائر الموبقة القاطعة لسبيل الشفاعة قطعاً.

حينئذ نقول: لا يمكن أن يكون المراد من الارتضاء في قوله تعالى: ﴿إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ هو المرضيّ اعتقاداً وعملاً وإلا لكان الإنسان - على حدّ تعبير الروايات - من المحسنين، فلا يكون محتاجاً إلى الشفاعة المصطلحة لأنه من السالبة بانتفاء الموضوع. نعم إذا كان مرضيّاً عند الله اعتقاداً وديناً، وخلط في سلوكه - على حد تعبير القرآن - عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، فهو الذي يكون مورداً للشفاعة؛ قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٢) أي من الأعراب جماعة آخرون مذنبون لا منافقون مثل غيرهم بل اعترفوا بذنوبهم لهم عمل صالح وعمل آخر سيّئٌ خلطوا هذا بذاك، من المرجوّ أن يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم.

وفي قوله: ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ إيجاد الرجاء في نفوسهم

لتكون واقعة بين الخوف والرجاء من غير أن يحيط بها اليأس والقنوط، وفي قوله: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ترجيح جانب الرجاء.

ومن الواضح أن هذا العمل السيّئ الباقي إلى يوم القيامة لا محالة هو من الكبائر، إذ لو كان الذنب من الصغائر فقط لكان مكفّراً عنه؛ لما تقدّم في قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ (النساء: ٣١) وهذا ما أكّدته الروايات الواردة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم أفضل الصلاة والسلام.

• عن الحسين بن خالد عن الإمام علي بن موسى الرضا عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين علي صلوات الله عليهم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي، ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي**، ثم قال صلى الله عليه وآله: **إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي، فأما المحسنون فما عليهم من سبيل.**

قال الحسين بن خالد: فقلت للرضا عليه السلام: يابن رسول الله فما معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾؟ قال: **لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه**»[1].

• وعن محمد بن أبي عمير قال: سمعت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يقول: «**لا يُخلِّد الله في النار إلا أهل الكفر والجحود وأهل الضلال وأهل الشرك، ومن اجتنب الكبائر من المؤمنين لم يُسأل عن الصغائر، قال الله تبارك وتعالى:** ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ

---

(١) **عيون أخبار الرضا عليه السلام**: ج ١ ص ١٢٤، الباب: ١١ الحديث: ٣٥.

عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾.

قال: فقلت له: يابن رسول الله فالشفاعة لمن تجب من المؤمنين؟ فقال: حدّثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي فأمّا المحسنون منهم فما عليهم من سبيل.

قال ابن أبي عمير: فقلت له: يابن رسول الله فكيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله تعالى ذكره يقول: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ ومن يرتكب الكبائر لا يكون مرتضى به؟

فقال: يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلا ساءه ذلك وندم عليه، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله: كفى بالندم توبة. وقال: من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن، فمن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له الشفاعة وكان ظالماً، والله تعالى ذكره يقول: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾.

فقلت له: يابن رسول الله وكيف لا يكون مؤمناً من لم يندم على ذنب يرتكبه؟ فقال: يا أبا أحمد ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم أنه سيعاقب عليها إلا ندم على ما ارتكب، ومتى ندم كان تائباً مستحقّاً للشفاعة، ومتى لم يندم عليها كان مصرّاً، والمصرّ لا يغفر له لأنه غير مؤمن بعقوبة ما ارتكب، ولو كان مؤمناً بالعقوبة لندم، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله: لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار.

وأما قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ فإنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه، والدين: الإقرار بالجزاء على الحسنات

والسيّئات، فمن ارتضى الله دينه ندم على ما ارتكبه من الذنوب لمعرفته بمعاقبته في القيامة»[1].

قوله عليه السلام: (**وكان ظالماً**) فيه تعريف الظالم يوم القيامة، وكأنه إشارة إلى ما عرّفه به القرآن حيث يقول: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَةِ كافِرُونَ﴾ (الأعراف: ٤٤ - ٤٥). وقد فسّر الظالمين الذين ضربت عليهم باللعنة بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَةِ كافِرُونَ﴾ فهم الكافرون المنكرون للآخرة الذين يصدّون عن سبيل الله ويصرفون غيرهم عن سلوك الصراط المستقيم، فهؤلاء هم المعاندون للحقّ المنكرون للمعاد، ومثلهم لا يسوءه اقتحام محارم الدين إما بجحد جميع المعارف الحقّة والتعاليم الدينية وإما بالاستهانة لأمرها وعدم الاعتناء بالجزاء والدين يوم الجزاء والدين، فيكون قوله بهاستهزاءً بأمره وتكذيباً له.

وقوله عليه السلام: (**ومتى ندم كان تائباً مستحقّاً للشفاعة**) ليس المراد التوبة المصطلحة لأنها بنفسها شفيعة منجية كما سيأتي، وإنما المقصود الرجوع إلى الله تعالى وإلى الدين فيكون مرضيّاً مستحقّاً للشفاعة.

---

(١) **البرهان في تفسير القرآن**، تأليف: العلامة المحدّث السيد هاشم البحراني: ج ٥ ص ٢١٨،الحديث: ٥ حقّقه وعلّق عليه لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

وقوله عليه السلام: (**وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله: لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار**) تمسّكه عليه السلام به من جهة أن الإصرار وهو عدم الانقباض بالذنب والندم عليه يخرج الذنب عن شأنه الذي له إلى شأن آخر وهو تكذيب المعاد والظلم بآيات الله فلا يغفر، لأن الذنب إنما يغفر إما بتوبة أو بشفاعة متوقّفة على دين مرضيّ ولا توبة هناك ولا دين مرضيّاً.

• وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه في قوله: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ قال: **قول لا إله إلا الله.** (١)

• وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ قال: **الذين ارتضاهم لشهادة أن لا إله إلا الله.** (٢)

• وعن أبي ذر قال: «صلّى رسولُ الله صلّى الله عليه [وآله] وسلم ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإنَّهُمْ عِبادُكَ وَإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: **إني سألت ربي عزّ وجلّ الشفاعة لأمّتي فأعطانيها، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله عزّ وجلّ شيئاً**».(٣)

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ٥ ص ٦٢٤.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ٥ ص ٦٢٤.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ج ٥ ص ١٤٩، وبهامشه منتخب كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، دار الفكر.

إشكال وجواب

قد يقال: إن قوله تعالى: ﴿يحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٩٦) فلو أخذ بعمومه وإطلاقه لكان من خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، مشمولاً في الآية لأنه فاسق، وكلّ فاسق فهو غير مرضيّ عنه بمقتضى ظاهر هذه الآية، وإذا كان غير مرضيّ عنه فلا تشمله الشفاعة؛ لقوله ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾.

إلا أن التحقيق في آية سورة التوبة يتطّلب تحديد المراد من الفاسقين فيها، فهل هم عموم من صدر منه الفسق أم خصوص المنافقين؟ فإذا كان المراد من (الفاسقين) في الآية مطلق من صدرت منه المعصية فيقع التنافي بينها وبين قوله ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ وقوله: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾. وأما إذا كان المراد من «الفاسقين» فيها خصوص المنافقين فلا تنافي ولا تعارض بينها وبين الآيات الدالّة على شمول الشفاعة لمن كان صحيح الاعتقاد وإن خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، لأن المنافق لا تشمله الشفاعة؛ لعدم كونه مسلماً حقيقة وواقعاً، وإن كان يحكم بإسلامه ظاهراً، فلم يحرز فيه أنه مرضيّ الدين عند الله تعالى.

والرجوع إلى الآيات السابقة واللاحقة على هذه الآية يثبت أنها في حقّ المنافقين خاصّة؛ قال تعالى: ﴿وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ

أَغْنياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ * الأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٩٠ – ٩٧).

قال الرازي في ذيل هذه الآيات: «اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال المنافقين الذين كانوا في المدينة ابتدأ في هذه الآية ﴿وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرابِ﴾ بشرح أحوال المنافقين من الأعراب»(١). وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ لأنهم ولنفاقهم لم يخرجوا مع الرسول صلى الله عليه وآله إلى الحرب والجهاد ﴿قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ علّة للمنع من الاعتذار لأن غرض المعتذر أن يصير عذره مقبولاً، فإذا علم بأن القوم يكذّبونه لأنهم منافقون وكاذبون وليس لقولهم ولا لاعتذارهم واقع، وجب عليه تركه ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ﴾ علّة لانتفاء التصديق، لأنه تعالى لما أطلع رسوله على ما في ضمائرهم من الخبث والمكر والنفاق امتنع أن يصدّقهم الرسول عليه الصلاة والسلام في تلك الأعذار ﴿وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ج ١٦ ص ١٢٦.

تُرَدُّونَ إلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ للجزاء بما ظهر منكم من الأعمال. ووضع الوصف موضع الضمير لتشديد الوعيد، فإن علمه سبحانه بجميع أعمالهم الظاهرة والباطنة وإحاطته بأحوالهم البارزة والكامنة مما يوجب الزجر العظيم.

وقيل في تقديم الغيب على الشهادة: «لتحقيق أن نسبة علمه تعالى المحيط إلى سائر الأشياء السر والعلن واحدة على أبلغ وجه وآكده، كيف لا وعلمه تعالى بمعلوماته منزّه عن أن يكون بطريق حصول الصورة، بل وجود كلّ شيء وتحقّقه في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى، وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأمور البارزة والكامنة»[1]. ﴿فينبئكم﴾ عند ردّكم إليه ووقوفكم بين يديه ﴿بما كنتم تعملون﴾ أي بما تعملون على الاستمرار في الدنيا من الأعمال السيّئة السابقة واللاحقة.

﴿سَيَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ﴾ تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبة وترويجاً لها، ﴿إذا انْقَلَبْتُمْ﴾ من سفركم ﴿إلَيْهِمْ﴾، والانقلاب هو الرجوع والانصراف مع زيادة معنى الوصول والاستيلاء ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فلا تعاتبوهم وتصفحوا عما فرط منهم صفح رضا كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾. ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لكن لا إعراض رضا كما طلبوا بل إعراض اجتناب ومقت كما ينبئ عنه التعليل بقوله سبحانه: ﴿إنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ لا أن أعمالهم رجس فقط فإنه صريح في أن المراد بالإعراض إما الاجتناب عنهم لما يفهم من القذارة الروحانية وإما ترك استصلاحهم بترك المعاملة المقصود منها التطهير بالحمل على التوبة،

---

(١) روح المعاني: ج ٧ ص ٤.

وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير. ﴿وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فكيف يكون مثل هؤلاء من المرضيّ عنهم عند الله تعالى.

﴿يحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ﴾ قال الطبري: «يحلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون اعتذاراً بالباطل والكذب، فإن أنتم أيها المؤمنون رضيتم عنهم وقبلتم معذرتهم إذ كنتم لا تعلمون صدقهم من كذبهم فإن رضاكم عنهم غير نافعهم عند الله، لأن الله يعلم من سرائر أمرهم ما لا تعلمون ومن خفيّ اعتقادهم ما تجهلون وأنهم على الكفر مقيمون وأنهم هم الفاسقون يعنى أنهم الخارجون من الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية»[1]. والمراد من الآية نهي المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وآكده، فإن الرضا عمن لا يرضى عنه الله تعالى مما لا يكاد يصدر عن المؤمن.

قال الحافظ ابن أبي حاتم في تفسيره في ذيل قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ إذَا انْقَلَبْتُمْ إلَيْهِمْ...﴾ الآية: «لما خرج رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم خلّف عليّاً بعده ولم يخرج به معه، فخاض الناس فقالوا: إنما خلّفه لسخطه. فأدركه عليٌّ في الطريق فأخبره بما قال المنافقون، فقال النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم لعليّ (رضي الله عنه): **إن موسى لما ذهب إلى ربّه استخلف هارون وإني أستخلفك بعدي أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**. قال: بلى يا رسول الله، فلما رجع استقبله عليٌّ فأردفه

---

(١) تفسير الطبري: ج ٦ ص ٤٥٠.

النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم خلفه وقال: **لعن الله المنافقين والمخالفين**، فدخل النبيّ صلى اللهعليه [وآله] وسلم المدينة وعليٌّ قائم خلفه يلعن المنافقين، وقال النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم للمؤمنين: **لا تكلّموهم ولا تجالسوهم فأعرضوا عنهم كما أمركم الله عزّ وجلّ**»(١).

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ قال: هي وما بعدها إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ في المنافقين(٢). وقال الآلوسي في روح المعاني: «والآية نزلت على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلاً أمر النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة أن لا يجالسوهم ولا يكلّموهم فامتثلوا»(٣). وعن مقاتل أنها نزلت في عبد الله بن أبيّ (رأس المنافقين) حلف للنبي صلى الله عليه وآله أن لا يتخلّف عنه أبداً وطلب إلى النبيّ بأن يرضى عنه وأصحابه فلم يفعل.(٤)

---

(١) **تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله والصحابة والتابعين**: ج ٦ ص ١٨٦٥، الحديث: ١٠٢٠٧.

(٢) **الدر المنثور في التفسير المأثور**: ج ٤ ص ٢٢٥.

(٣) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: ج ٧ ص ٦.

(٤) **تفسير مقاتل بن سليمان**: ج ٢ ص ١٩١، دراسة وتحقيق: د. عبد الله محمود شحاته، دارإحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٤٢٣.

شواهد قرآنية

هناك جملة من القواعد التي أشار إليها القرآن الكريم لإثبات أن الشفاعة تشمل من كان مرضيَّ الدين والاعتقاد وإن كان قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً.

الشاهد الأول: قسّم القرآن الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف؛ قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً * فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ *أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (الواقعة: ٧ – ١١) وهؤلاء هم الذين أشارت إليهم الآية في قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذنِ اللهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر: ٣٢) ثم بيّن القرآن مآل كلّ صنف من هذه الأصناف:

● أما السابقون المقرّبون فقد قال تعالى في وصفهم: ﴿فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ (الواقعة: ٨٨ – ٨٩) وذكر من مقاماتهم في الآخرة أنهم فوق الأبرار، والأبرار هم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ * وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (المطففين: ٢٢ – ٢٨) حيث أشارت الآية الأخيرة أن المقرّبين يشربون التسنيم صرفاً، كما أن مفاد قوله: ﴿وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ أنه يمزج بها ما في كأس الأبرار من الرحيق المختوم. ويدلّ ذلك على:

أولاً: أن التسنيم أفضل من الرحيق المختوم الذي يزيده لذّة بمزجها.

ثانياً: إن المقرّبين أعلى درجة من الأبرار الذين تصفهم الآيات. قال الرازي: «وأقول هذا يدلّ على أن الأنهار متفاوتة في الفضيلة، فتسنيم أفضل أنهار الجنة، والمقرّبون أفضل أهل الجنة، والتسنيم في الجنة الروحانية هو معرفة الله ولذّة النظر إلى وجه الله الكريم، والرحيق هو الابتهاج بمطالعة عالم الموجودات، فالمقرّبون لا يشربون إلا من التسنيم أي لا يشتغلون إلا بمطالعة وجهه الكريم، وأصحاب اليمين يكون شرابهم ممزوجاً، فتارة يكون نظرهم إليه وتارة إلى مخلوقاته»[1].

وقد ذكرت الروايات الواردة عن الفريقين بعض مصاديق المقرّبين:

• أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ قال: يوشع بن نون سبق إلى موسى ومؤمن آل يس سبق إلى عيسى، وعلي بن أبي طالب سبق إلى رسول الله»[2].

• وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ قال: نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون، وحبيب النجار ذكر في يس، وعلي بن أبيطالب، وكلّ رجل منهم سابق في أمّته، وعليٌّ أفضلهم سبقاً»[3].

• وأما أصحاب المشأمة فهم من الهالكين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ج ٣١ ص ٩١.

(٢) تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله... ج١٠ ص٣٣٢٩، ح ١٨٧٧٣.

(٣) الدر المنثور في التفسير المأثور: ج ٨ ص ٧.

مِنْ يَحْمُومٍ * لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ * وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً وَعِظاماً أَ إِنّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآباؤُنَا الأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الواقعة: ٤١ – ٥٦).

قال الرازي في ذيل هذه الآيات: «وفيها لطيفة وهي أنه أشار في الآيات الثلاث وهي قوله: ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أَوَآباؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ إلى الأصول الثلاثة، فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ من حيث الاستعمال يدلّ على ذمّهم بإنكار الرسل؛ إذ المترف متكبّر بسبب الغنى فينكر الرسالة، والمترفون كانوا يقولون: ﴿أَبَشَراً مِنّا واحِداً نَتَّبِعُهُ﴾ (القمر: ٢٤). وقوله: ﴿وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ إشارة إلى الشرك ومخالفة التوحيد، وفيه مبالغات من وجوه:

أحدها: قوله ﴿وَكانُوا يُصِرُّونَ﴾ وهو آكد من قول القائل: إنهم قبل ذلك أصرّوا لأن اجتماع لفظي الماضي والمستقبل يدلّ على الاستمرار؛ فقولنا: (فلان كان يحسن إلى الناس) يفيد كون ذلك عادة له.

ثانيها: لفظ الإصرار؛ فإن الإصرار مداومة المعصية والغلول ولا يقال في الخير (أصرّ).

ثالثها: الحنث؛ فإنه فوق الذنب، فإن الحنث لا يكاد في اللغة يقع على الصغيرة والذنب يقع عليها.

وقوله: ﴿وَكانُوا يَقُولُونَ أَإذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ إشارة إلى إنكار الحشر والنشر»[1]. وقوله: ﴿ثُمَّ إنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ من تمام كلام النبيّ صلى الله عليه وآله يخبرهم عما ينتهي إليه حالهم يوم القيامة. وفي خطابهم بالضالين المكذّبين إشارة إلى ملاك شقائهم وخسرانهم يوم البعث وهو ضلالهم عن طريق الحقّ واستقرار ذلك في نفوسهم باستمرارهم على تكذيبهم وإصرارهم على الحنث. ولو كانوا ضالّين فحسب من غير تكذيب لكان من المرجوّ أن ينجوا ولا يهلكوا.

ومن الواضح أن من كان هذا حاله فلا تنفعه شفاعة الشافعين.

• وأما أصحاب الميمنة فقد وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَماءٍ مَسْكُوبٍ * وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إنْشاءً * فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً * عُرُباً أَتْراباً * لِأَصْحابِ الْيَمِينِ﴾ (الواقعة: ٢٧ – ٣٨) إلا أن هؤلاء ليسوا على مستوى المقرّبين السابقين من حيث ارتضاء الاعتقاد والسلوك وإلا لما كانوا قسماً في قبالهم، فلابدّ أن يكونوا من أصحاب الاعتقاد الحق، لكن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً ثم نجوا بفضل الله ورحمته يوم القيامة.

ويمكن أن نقف في القرآن على شواهد تثبت أن أصحاب اليمين هم الفائزون بالشفاعة وهم المرضيّون ديناً واعتقاداً وإن لم تكن

---

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٢٩ ص ١٤٩.

أعمالهم جميعاً مرضيّاً عنها؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ * فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر: ٣٨ – ٤٨).

قال الزمخشري: «رهينة ليست بتأنيث رهين في قوله: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ لتأنيث النفس، لأنها لو قصدت لقيل: رهين؛ لأنَّ فَعيلاً بمعنى مفعول يستوي فيه المذكّر والمؤنث، وإنما هي بمعنى الرهن كالشتيمة بمعنى الشتم، كأنه قيل: كلّ نفس بما كسبت رهين»(١).

وكأن العناية في عد كلّ نفس رهينة أن لله عليها حقّ العبودية بالإيمان والعمل الصالح فهي رهينة محفوظة محبوسة عند الله حتى توفي دينه وتؤدي حقّه تعالى، فإن آمنت وصلحت فكّت وأطلقت، وإن كفرت وأجرمت وماتت على ذلك كانت رهينة محبوسة دائماً، وهذا غير كونها رهين عملها ملازمة لما اكتسبت من خير وشرّ، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور: ٢١).

﴿إلاَّ أَصْحابَ الْيَمِينِ﴾ وهم الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم يوم القيامة، وقد عرفت أنهم أصحاب العقائد الحقّة والأعمال الصالحة من متوسّطي المؤمنين. ووجه تسميتهم بأصحاب اليمين في مقابل أصحاب الشمال وربما سموا أصحاب الميمنة في مقابل أصحاب المشأمة، وهو من الألفاظ التي اصطلح عليه القرآن، مأخوذ من إيتاء

---

(١) **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل**: ج ٤ ص ٦٥٤.

الإنسان يوم القيامة كتابه بيمينه أو شماله؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً * وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٧١- ٧٢).

والحاصل: إن الله سبحانه بيّن في هذه الآيات «أن كلّ نفس مرهونة يوم القيامة بما كسبت من الذنوب، مأخوذة بما أسلفت من الخطايا إلا أصحاب اليمين فقد فكّوا من الرهن وأطلقوا واستقرّوا في الجنان، ثم ذكر أنهم غير محجوبين عن المجرمين الذين هم مرهونون بأعمالهم، مأخوذ عليهم في سقر، يتساءلون عنهم سلوكهم في النار، وهم يجيبون بالإشارة إلى عدة صفات ساقتهم إلى النار، وفرّع على هذه الصفات بأنه لم ينفعهم لذلك شفاعة الشافعين.

ومقتضى هذا البيان كون أصحاب اليمين غير متّصفين بهذه الصفات التي يدلّ الكلام على كونها هي المانعة عن شمول الشفاعة، وإذ كانوا غير متّصفين بهذه الصفات المانعة عن شمول الشفاعة وقد فكّ الله تعالى نفوسهم عن رهانة الذنوب والآثام دون المجرمين المحرومين من الشفاعة المسلوكين في سقر، فهذا الفكّ والإخراج إنما هو بالشفاعة، فأصحاب اليمين هم المشفّعون بالشفاعة، وفيالآيات تعريف أصحاب اليمين بانتفاء الأوصاف المذكورة عنهم.

بيان ذلك: إن الآيات واقعة في سورة المدثّر وهي من السور النازلة بمكّة في بدء البعثة كما ترشد إليه مضامين الآيات الواقعة فيها ولم يشرع يومئذ الصلاة والزكاة بالكيفية الموجودة اليوم. فالمراد في

قوله ﴿لم نَكُ مِنَ المُصَلِّين﴾ التوجّه إلى الله بالخضوع العبودي، فلا يضرّه اختلاف الصلاة كمّاً وكيفاً باختلاف الشرائع السماوية الحقّة. والمراد بقوله: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ الإنفاق على فقراء المجتمع بما يقوم به صلبهم ويرتفع به حاجتهم، دون الصلاة والزكاة المعهودتين في الشريعة الإسلامية. ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ﴾ الخوض هو الغور في ملاهي الحياة وزخارف الدنيا الصارفة للإنسان عن الإقبال على الآخرة وذكر يوم الحساب، أو التعمّق في الطعن في آيات الله المذكّرة ليوم الحساب المبشّرة المنذرة.

وبالتلبّس بهذه الصفات الأربع وهي ترك الصلاة لله وترك الإنفاق في سبيل الله والخوض وتكذيب يوم الدين ينهدم أركان الدين، وبالتلبّس بها تقوم قاعدته على ساق، فإن الدين هو الاقتداء بالهداة الطاهرين بالإعراض عن الإخلاد إلى الأرض والإقبال إلى يوم لقاء الله، وهذان هما ترك الخوض وتصديق يوم الدين ولازم هذين عملاً التوجّه إلى الله بالعبودية والسعي في رفع حوائج المجتمع وهذان هما الصلاة والإنفاق في سبيل الله.

فالدين يتقوّم بحسب جهتي العلم والعمل بهذه الخصال الأربع، وتستلزم بقية الأركان كالتوحيد والنبوة استلزاماً هذا»[1].

فائدة: عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إن الله عزّ وجلّ قسّم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً وذلك قوله عزّ وجلّ في ذكر أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وأنا خير أصحاب**

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن:** ج ١ ص ١٦٩، ج ٢٠ ص ٩٧.

اليمين، ثمّ قسّم القسمين أثلاثاً فجعلني فيخيرها ثُلثاً لقوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله جلّ ثناؤه ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣). أنا وأهل بيتي مطهرون منالذنوب»(١).

الشاهد الثاني: قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طه: ١٠٩) بتقريب أن الآية أشارت إلى أن الشفاعة تنفع من كان قوله مرضيّاً عند الله تعالى من دون اشتراط العمل معه. غير أن القول هنا ليس هو الألفاظ المجرّدة وإلا لكان المنافق مرضيّاً عند الله تعالى أيضاً، بل لابدّ من حكاية القول عن الإيمان والاعتقاد الثابت، وهذا ما أشار إليه تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ * تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ * يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: ج ٢٢ ص ١٣ دار إحياء التراثالعربي - بيروت، **البرهان في تفسير القرآن**: ج ٧ ص ٤١٠.

الثَّابـِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾ (إبراهيم: ٢٤- ٢٧).

المستفاد من هذه الآيات أن المراد بالكلمة الطيبة التي شبّهت بشجرة طيّبة من صفتها كذا وكذا، هو الاعتقاد الحقّ الثابت، فإنه تعالى ذكر بعد هذا وهو كالنتيجة المأخوذة من التمثيل: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ﴾ والقول هي الكلمة، ولا كلّ كلمة بما هو لفظ بل بما هي معتمدة على اعتقاد وعزم يستقيم عليه الإنسان ولا يزيغ عنه عملاً.

وقد تعرض تعالى لما يقرب من هذا المعنى في مواضع من كلامه كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الاحقاف: ١٣) وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ (حم السجدة: ٣٠). ومن الواضح أن المراد من القول في الآيتين هو الإقرار والشهادة بانحصار الربوبيّة في الله سبحانه وتوحّده فيها. وكذلك قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠) حيث إن المراد بالكلم الطيب ليس مجرّد اللفظ بل بما أن له معنىً طيّباً، فالمراد به الاعتقادات الحقّة التي يسعد الإنسان بالإذعان لها وبناء عمله عليها، والمتيقّن منها كلمة التوحيد التي ترجع إليها سائر الاعتقادات الحقّة.

«وهذا القول والكلمة الطيّبة هو الذي يرتّب تعالى عليه تثبيته في الدنيا والآخرة أهله، وهم الذين آمنوا ثم يقابله بإضلال الظالمين ويقابله بوجه آخر بشأن المشركين، وبهذا يظهر أن المراد بالممثّل هو

كلمة التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله حقّ شهادته.

فالقول بالوحدانية والاستقامة عليه هو حقّ القول الذي له أصل ثابت محفوظ عن كلّ تغيّر وزوال وبطلان وهو الله عزّ اسمه أو أرض الحقائق، وله فروع نشأت ونمت من غير عائق يعوقه عن ذلك من عقائد حقّة فرعية وأخلاق زاكية وأعمال صالحة يحيي بها المؤمن حياته الطيبة ويعمر بها العالم الإنساني حقّ عمارته، وهي التي تلائم سير النظام الكوني الذي أدّى إلى ظهور الإنسان بوجوده المفطور على الاعتقاد الحقّ والعمل الصالح.

ويجري ما يقابله في الكلمة الخبيثة وما مثّلت به حرفاً بحرف، فإنما هي كلمة الشرك مثّلت بشجرة خبيثة مفروضة اقتلعت من فوق الأرض ليس لها أصل ثابت وما لها من قرار، وإذ كانت خبيثة فلا أثر لها إلا الضرّ والشر»[1].

والخلاصة أن المراد من القول هو الكلم الطيّب، والكلم الطيّب هو الاعتقاد الحقّ، فلا يكفي أن يكون لفظ الإنسان مرضيّاً عند الله تعالى بل لابد أن يكون هذا اللفظ والقول حاكٍ عن اعتقاد ثابت راسخ في النفس، لكي يثبت الارتضاء لصاحبه عنه وتشمله الشفاعة وإن خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً. قال الرازي: «المعتزلة قالوا: الفاسق غير مرضيّ عند الله تعالى فوجب أن لا يشفع الرسول في حقّه لأن هذه الآية دلّت على أن المشفوع له لابدّ وأن يكون مرضيّاً عند الله. واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة في حقّ الفسّاق،

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١٢ ص ٥١.

لأن قوله: ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ يكفي في صدقه أن يكون الله قد رضي له قولاً واحداً من أقواله، والفاسق قد ارتضى الله تعالى قولاً واحداً من أقواله وهو شهادة أن لا إله إلا الله، فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له، لأن الاستثناء من النفي إثبات»[١].

الشاهد الثالث: قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً * لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ (مريم: ٨٥ – ٨٧). دلالة الآية على المقام مبنيّ على كون المراد ممن يملك الشفاعة في الآية هو الذي ينال الشفاعة، وعلى هذا نقول: الناس إزاء الشفاعة على طوائف ثلاث:

• طائفة المتّقين ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً﴾ ولا تحتاج هذه الطائفة إلى الشفاعة لأنها مرضيّة عند الله قولاً وفعلاً، اعتقاداً وسلوكاً. في تفسير القمي بإسناده عن عبد الله بن شريك العامري عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: **سأل علي عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله عن تفسير قوله:** ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ **قال: يا علي إن الوفد لا يكون إلا ركباناً، أولئك رجال اتقوا الله فأحبّهم واختصّهم ورضي أعمالهم فسمّاهم المتّقين، ثمقال: يا علي أما والذي فلق الحبّة وبرأ النسمة إنهم ليخرجون من قبورهم وبياض وجوههم كبياض الثلج، عليهم ثياب بياضها كبياض اللبن»**[٢]. وفي الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي عن النبيّ صلى

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٢٢ ص ١٠٣.

(٢) **تفسير القمي**: أبي الحسن علي بن إبراهيم القمي: ج ٢ ص ٥٣، صحّحه وعلّق

الله عليه وآله قال: «**أما والله ما يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقاً، ولكنهم يؤتون بنوق من الجنة لم تنظر الخلائق إلى مثلها، رحالها الذهب وأزمّتها الزبرجد، فيقعدون عليها حتى يقرعوا باب الجنة**»[1].

• طائفة المجرمين الذين لا عهد لهم عند الرحمن ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إلى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾ يدلّ على أنهم يساقون إلى النار بإهانة واستخفاف كأنهم نعَم عطاش تُساق إلى الماء، والورد اسم للعطاش لأن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش. وفي تعليق السوق إلى جهنم بوصف الإجرام إشعار بالعلّية، ونظيره تعليق الحشر إلى الرحمن في الآية السابقة بوصف التقوى. وهؤلاء يدخلون جهنم ولا شافع لهم.

• طائفة المجرمين الذين لهم عهد عند الله تعالى: ﴿إلاَّ مَن اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ فهؤلاء يملكون الشفاعة التي استثني منها أصحاب الطائفة الثانية، ولازم ذلك أن ليس كلّ مجرم محتوم له النار؛ قال تعالى: ﴿إنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها ولا يَحْيى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ (طه: ٧٤ - ٧٦) حيث بيّنت حكم طائفتين من الناس، طائفة المجرمين الكافرين وطائفة المؤمنين الذين عملوا الصالحات، وبقيت طائفة ثالثة لم تذكر ولم يذكر حكمها وهي الطائفة المجرمة التي آمنت

عليه وقدّم له العلامة السيد طيب الموسوي الجزائري. منشورات مكتبة الهدى، مطبعة النجف، ١٣٨٧هـ.

(١) الدر المنثور في التفسير المأثور: ج ٥ ص ٥٣٩.

لكنها خلطت عملاً صالحاً وآخر سيّئاً والتي اتّخذت عند الله عهداً.

قال الطباطبائي: «فمن لم يكن مؤمناً قد عمل صالحاً فهو مجرم، سواء كان لم يؤمن أو كان قد آمن ولم يعمل صالحاً، فمن المجرمين من كان على دين الحقّ لكنه لم يعمل صالحاً وهو الذي قد اتّخذ عند الله عهداً؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (يس: ٦٠ - ٦١) فقوله: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ عهد بمعنى الأمر، وقوله: ﴿هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ عهد بمعنى الالتزام؛ لاشتمال الصراط على الهداية إلى السعادة والنجاة. فهؤلاء قوم من أهل الإيمان يدخلون النار لسوء أعمالهم ثم ينجون منها بالشفاعة، وإلى هذا المعنى يلوح قوله تعالى: ﴿وَقالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠)».[1]

وقال الرازي: «قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ والتقدير أن هؤلاء لا يستحقّون أن يشفع لهم غيرهم إلا إذا كانوا قد اتّخذوا عند الرحمن عهداً التوحيد والنبوة، فوجب أن يكون داخلاً تحته. ومما يؤكد قولنا ما روي عن ابن مسعود أنه عليه السلام قال لأصحابه ذات يوم: **أيعجز أحدكم أن يتخذ كلّ صباح ومساء عند الله عهداً؟** قالوا: وكيف ذلك؟ قال: **يقول كلّ صباح ومساء: اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقرّبني من الشرّ وتبعّدني من الخير، وإني لا أثق إلا**

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ١٧١.

برحمتك، فاجعل لي عهداً توفّينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع ووضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين لهم عند الرحمن عهداً؟ فيدخلون الجنة. فظهر بهذا الحديث أن المراد من العهد كلمة الشهادة، وظهر وجه دلالة الآية على أن الشفاعة لأهل الكبائر»[١].

ولا يخفى أن هناك روايات أخرى وردت من طرق الفريقين تبيّن أن المراد من العهد شيء آخر، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرّني، ومن سرّني فقد اتّخذ عند الرحمن عهداً، ومن اتّخذ عند الرحمن عهداً فلا تمسه النار إن الله لا يخلف الميعاد». وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً، جاء وله عند الله عهد أن لا يعذّبه، ومن جاء قد انتقص منها شيئاً فليس له عند الله عهد، إن شاء رحمه وإن شاء عذّبه»[٢]، إلا أن هذه الروايات من قبيل بيان المصداق كما هو واضح.

فتحصّل إلى هنا أن هذه الشواهد جميعاً تدلّ على أن مورد الشفاعة - أعني المشفوع لهم يوم القيامة - هم الذين يدينون بدين الحقّ من أصحاب الكبائر، وهم الذين ارتضى الله دينهم.

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ج ٢١ ص ٢١٦.

(٢) الدر المنثور في التفسير المأثور: ج ٥ ص ٥٤٢.

الفصل الخامس

الشفعاء

مقدمة في آثار الذنوب

عرفت أن الشفاعة تنقسم إلى تكوينية وتشريعية، ولكلّ منهما شفعاء. أما شفعاء الشفاعة التكوينية فهي كلّ الأسباب التي جعلها الله تعالى وسائط بينه وبين الأشياء؛ لقاعدة **أبى الله أن يجري الأشياء إلا بأسباب**، فالماء والهواء والطعام وكلّ الوجودات والأسباب الوسطية التي تقع بينه تعالى وبين تحقّق المسبّب خارجاً هي شافع على مستوى التكوين، حيث إن التأثير وإن كان له تعالى إذ لا مؤثّر في الوجود إلا هو، لأنه المالك للخلق والإيجاد على الإطلاق، إلا أن هذا لا يتنافي مع وجود علل وأسباب جعلها الله سبحانه بمقتضى حكمته تتوسّط بينه وبين غيره لنشر رحمته التي لا تنفد ونعمته التي لا تحصى إلى خلقه وصنعه.

أما شفعاء الشفاعة التشريعية فهم على قسمين، ولكي يتّضح السبب في ذلك لابدّ من الوقوف على مقدّمة حاصلها: إن القرآن الكريم والروايات الواردة عن النبيّ الأكرم وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام، ذكرت للذنوب والمعاصي آثاراً مترتّبة عليها في الدنيا والآخرة. أما الآثار المترتّبة عليها في النشأة الأخرى فهو العقاب الإلهي

بما له من درجات مختلفة وفي مواقف متعددة؛ من الاحتضار إلى البرزخ، ثم في الحشر الأكبر؛ من الميزان وتطاير الكتب، ثم عند الصراط المستقيم ثم الحوض، ثم آخر هذه المواقف هو الموقف المرتبط بالجحيم ونار جهنم. وأما الآثار المترتّبة على الذنوب في النشأة الدنيا فهي على قسمين فردية واجتماعية.

الآثار الفردية للذنوب في الدنيا

• قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ (طه: ١٢٤). قال الراغب في المفردات: «العيش: الحياة المختصة بالحيوان، وهو أخصّ من الحياة لأن الحياة تقال في الحيوان وفي الباري تعالى وفي المَلَك، ويشتقّ منه المعيشة لما يتعيّش منه؛ قال: ﴿نحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ (الزخرف:٣٢)»[1].

«والضنك هو الضيق من كلّ شيء، ويستوي فيه المذكّر والمؤنث، يقال: مكان ضنك ومعيشة ضنك، وهو في الأصل مصدر ضَنُك يضنك من باب شرف يشرف، أي ضاق»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْري﴾ يقابل قوله في الآية السابقة ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ ولَا يَشْقى﴾ (طه: ١٢٣) وكان مقتضى المقابلة أن يقال: ومن لم يتبع هداي، وإنما عدل عنه إلى ذكر الإعراض عن الذكر ليشير به إلى علّة الحكم، لأن نسيانه تعالى والإعراض

---

(١) **المفردات في غريب القرآن**: ص ٣٥٣، مادة: عيش.

(٢) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٢٢ ص ١١٢.

عن ذكره هو السبب لضنك العيش والعمى يوم القيامة، وليكون توطئة لما سيذكر من نسيانه تعالى يوم القيامة مَن نسيه في الدنيا.

وقوله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ أي ضيّقة، وذلك أن من نسي ربّه وانقطع عن ذكره لم يبقَ له إلا أن يتعلّق بالدنيا ويجعلها مطلوبه الوحيد الذي يسعى له ويهتمّ بإصلاح معيشته والتوسّع فيها والتمتّع بها. والمعيشة التي أوتيها في الدنيا لا تسعه سواء كانت قليلة أو كثيرة لأنه كلّما حصل منها واقتناها لم يرض نفسه وانتزعت إلى تحصيل ما هو أزيد وأوسع من غير أن يقف منها على حدّ، فهو دائماً في ضيق صدر وحنق مما وجد، متعلّق القلب بما وراءه مع ما يهجم عليه من الهمّ والغم والحزن والقلق والاضطراب والخوف بنزول النوازل وعروض العوارض من موت ومرض وعاهة وحسد حاسد وكيد كائد وخيبة سعي وفراق حبيب.

• وقال تعالى: ﴿بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤) قال الراغب في المفردات: «الرَّيْن: صَدأٌ يعلو الشيء الجلي؛ قال: ﴿بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ﴾ أي صار ذلك كصدأ على جلاء قلوبهم فعمي عليهم معرفة الخير من الشر»[1]. فكون ما كانوا يكسبون وهو الذنوب ريناً على قلوبهم هو حيلولة الذنوب بينهم وبين أن يدركوا الحقّ على ما هو عليه.

ويظهر من الآية: أولاً: «إن للأعمال السيّئة نقوشاً وصوراً في النفس تنتقش وتتصوّر بها.

---

(١) **المفردات في غريب القرآن**: ص ٢٠٨، مادة: رَيَن.

ثانياً: إن هذه النقوش والصور تمنع النفس أن تدرك الحقّ كما هو وتحول بينها وبينه.

ثالثاً: إن للنفس بحسب طبعها الأولي صفاءً وجلاءً تدرك به الحقّ كما هو وتميّز بينه وبين الباطل وتفرّق بين التقوى والفجور»[١]؛ قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها * فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ (الشمس:٧، ٨).

• وإذا حصل الرين والصدأ على القلب عمي القلب؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

• وقال أيضاً: ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠) يمكن أن يكون الخطاب في الآية عامّاً منحلاً إلى خطابات جزئية تخصّ الأفراد أيضاً، فيكون كلّ ما يصيب الإنسان من مصيبة في نفسه أو ماله أو ولده أو عرضه وما يتعلّق به مستنداً إلى معصية أتى بها وسيّئة عملها ويعفو الله عن كثير منها.

والمستفاد من الآية أمور:

الأول: إن الخطاب في الآية لعامّة الناس من المؤمن والكافر، وهو الذي يفيده السياق وتؤيده الآية التالية: ﴿وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (الشورى: ٣١).

الثاني: إن المراد بما كسبته الأيدي المعاصي والسيّئات دون مطلق

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن:** ج ٢٠ ص ٢٣٤.

الأعمال.

الثالث: إن المراد من المصائب التي تصيب الإنسان إنما هي آثار الأعمال في الدنيا؛ لما بين الأعمال وبينها من الارتباط الوجودي، دون جزاء الأعمال في الآخرة.

«وبهذا يندفع ما قيل إن مقتضي الآية مغفرة ذنوب المؤمنين جميعاً، فإنها ما بين ما يُجزون عليها بإصابة المصائب وما يعفى عنها.

وجه الاندفاع: أن الآية مسوقة لبيان ارتباط المصائب بالمعاصي وكون المعاصي ذوات آثار دنيوية سيّئة، منها ما يصيب الإنسان ولا يخطئ ومنها ما يعفى عنه فلا يصيب لأسباب صارفة وحكم مانعة كصلة الرحم والصدقة ودعاء المؤمن والتوبة وغير ذلك مما وردت به الأخبار، وأما جزاء الأعمال فالآية غير ناظرة إليه. على أن الخطاب في الآية يعمّ المؤمن والكافر كما تقدّمت الإشارة إليه، ولا معنى لتبعّضها في الدلالة فتدلّ على المغفرة في المؤمن وعدمها في الكافر»[(١)].

ويؤيّد ذلك ما ورد عن هشام بن سالم عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال: «**أما أنه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب، وذلك قول الله عزّ وجلّ في كتابه:** ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ قال: ثم قال: **وما يعفو الله أكثرمما يؤاخذ به**»[(٢)].

أما الأحاديث فقد أكّدت أن للذنوب آثاراً في هذه الحياة الدنيا،

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١٨ ص ٦٠.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٢٦٩، كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب، حديث: ٣.

لذا حثّت الأدعية الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام على طلب العفو والغفران من مثل هذه الذنوب «يا أقدر القادرين اغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم واغفر لي الذنوب التي تورث الندم واغفر لي الذنوب التي تورث السقم واغفر لي الذنوب التي تهتك العصم واغفر لي الذنوب التي تردّ الدعاء واغفر لي الذنوب التي تحبس قطر السماء واغفر لي الذنوب التي تعجّل الفناء واغفر لي الذنوب التي تجلب الشقاء واغفر لي الذنوب التي تظلم الهواء واغفر لي الذنوب التي تكشف الغطاء واغفر لي الذنوب التي لا يغفرها غيرُك يا الله»[1].

وقد وردت في الروايات بيان بعض هذه الذنوب.

عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: «الذنوب التي تغيّر النعم: البغي على الناس والزوال عن العادة في الخير واصطناع المعروف وترك الشكر؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١). والذنوب التي تنزل النقم: عصيان العارف بالبغي والتطاول على الناس والاستهزاء بهم والسخرية منهم. والذنوب التي تنزل البلاء: ترك إغاثة الملهوف ومعاونة المظلوم وتضييع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والذنوب التي تُديل الأعداء: المجاهرة بالظلم وإعلان الفجور وإباحة المحظور وعصيان الأخيار والاتباع للأشرار.

والذنوب التي تعجّل الفناء: قطيعة الرحم واليمين الفاجرة والأقوال الكاذبة والزنا وسدّ طرق المسلمين وادّعاء الإمامة بغير حق. والذنوب

---

(١) **مفاتيح الجنان**، الحاج الشيخ عباس القمي: ص ٢٥٦، دعاء عرفة. تعريب: السيد محمد رضا النوري النجفي.

التي تحبس غيث السماء: جور الحكّام في القضاء وشهادة الزور وكتمان الشهادة ومنع الزكاة والقرْض والماعون وقساوة القلب على أهل الفقر والفاقة وظلم اليتيم والأرملة وانتهار السائل وردّه بالليل. والذنوب التي تردّ الدعاء: سوء الأمنية وخُبث السريرة والنفاق مع الإخوان وترك التصديق بالإجابة وتأخير الصلوات المفروضات حتى تذهب أوقاتها وترك التقرب إلى الله عزّ وجلّ بالبرّ والصدقة، واستعمال البذاء والفحش في القول. والذنوب التي تقطع الرجاء: اليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله والثقة بغير الله والتكذيب بوعد الله عزّ وجلّ. والذنوب التي تكشف الغطاء: الاستدانة بغير نيّة الأداء والإسراف في النفقة على الباطل والبُخل على الأهل وذوي الأرحام وسوء الخُلق وقلّة الصبر واستعمال الضجر والكسل والاستهانة بأهل الدين. والذنوب التي تورث الندم: قتل النفس التي حرّم الله؛ قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ (الإسراء: ٣٣) وقال عزّ وجلّ في قصة قابيل حين قتل هابيل فعجز عن دفنه ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة: ٣١) وترك صلة الرحم حتى يستغنوا وترك الصلاة حتى يخرج وقتها وترك الوصيّة وردّ المظالم، ومنْع الزكاة حتى يحضر الموت وينغلق اللسان. والذنوب التي تدفع القِسم (النصيب والحظ): إظهار الإفتقار والنوم عن العتمة وعن صلاة الغداة واستحقار النعم وشكوى المعبود عزّ وجلّ. والذنوب التي تهتك العصم: شرب الخمر واللعب بالقمار وتعاطي ما يُضحك الناس من اللغو والمِزاح وذكر عيوب الناس ومجالسة أهل الريب»[1].

---

(١) البرهان في تفسير القرآن: ج ٦ ص ١٦١.

الآثار الاجتماعية للذنوب في الدنيا

لا تقتصر الآيات القرآنية على بيان التبعات السلبية للفجور في الحياة الفردية للإنسان، بل تتجاوزها إلى ما هو أعمق غوراً وأوسع أثراً، حيث تثبت أن هناك رابطة بين فجور الإنسان وإفساده في الأرض وبين ظهور الكوارث والأمراض ونحوهما.

• قال تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ (سبأ: ١٥ – ١٧).

• وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (فصلت: ١٧).

• وربما كانت أشمل آية دلّت على هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

• وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦).

فهذه الآيات ونظائرها تشير إلى أن الحوادث الكونية لها نحو ارتباط

وتبعية للأعمال الإنسانية، فإذا جرى النوع الإنساني على طاعة الله سبحانه وسلك الطريق الذي يرتضيه فإنه يستتبع نزول الخيرات وانفتاح أبواب البركات، أما إذا انحرف عن صراط العبودية وتمادى في الغيّ والضلال وفساد النيّات وشناعة الأعمال، فإن ذلك يوجب ظهور الفساد في البر والبحر وهلاك الأمم بانتشار الظلم وارتفاع الأمن وبروز الحروب وسائر الشرور الراجعة إلى الإنسان وأعماله، وكذا تظهر المصائب والحوادث الكونية المبيدة كالسيل والزلزلة والصاعقة والطوفان وغير ذلك.

وهذا معناه أن المجتمع الإنساني إذا انغمر في الرذائل والسيّئات وخرج عن الطريق الذي أودعه الله في فطرته ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ (الروم: ٣٠) أذاقه الله وبال أمره وأدّى ذلك إلى إهلاكه وإبادته؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَما كانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ﴾ (المؤمن:٢١).

وهذه من السنن الإلهية التي أكّدها القرآن في مواضع كثيرة وبيّن أنها لا تقبل التبديل والتحويل؛ قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً * اسْتِكْباراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر:٤٢ – ٤٣).

وقد أكّدت جملة وافرة من الروايات هذه الحقيقة القرآنية:

• عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**خمس إن أدركتموهن فتعوّذوا منهن: لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان. ولم يمنعوا الزكاة إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا. ولم ينقضوا عهد الله ورسوله إلا سلّط الله عليهم عدوّهم وأخذوا بعض ما في أيديهم. ولم يحكموا بغير ما أنزل الله إلا جعل الله عزّ وجلّ بأسهم بينهم**»[(١)].

• وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «**إذا فشت أربعة ظهرت أربعة: إذا فشا الزنا ظهرت الزلزلة، وإذا فشا الجور في الحكم احتبس القطر، وإذا خفرت الذمة** (أخفر الذمة: لم يفِ بها) **أُديل** (الإدالة: الغلبة) **لأهل الشرك من أهل الإسلام، وإذا منعت الزكاة ظهرت الحاجة**»[(٢)].

سؤال وجواب

قد يطرح هنا تساؤل مفاده: إذا كانت أعمال الإنسان من خير وشرّ هي السبب في وجود البلايا والمصائب والمحن التي تصيب الإنسان، سواء منها ما كان يعود إلى الإنسان كوقوع الحروب وارتفاع الأمن أو لا يعود إليه كاختلال الأوضاع الجوية والأرضية وما يصاحبها من الزلازل والأمطار المخرّبة والأمراض والأوبئة ونحوها، فهذا معناه

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٣٧٣، كتاب الإيمان والكفر، باب في عقوبات المعاصي العاجلة، الحديث: ١.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٤٤٨، باب في تفسير الذنوب، الحديث: ٣.

إبطال دور العوامل والأسباب الطبيعية في وجود تلك الحوادث، وهذا ما لا يمكن قبوله لا عقلاً ولا تجربة، بل هو مخالف لظاهر جملة من الآيات الواردة في المقام.

والإجابة: إن هذا الكلام ناشئ عن سوء فهم وعدم تدبّر في الحقائق القرآنية، فإن القائلين بأن الأعمال حسنة كانت أو سيّئة هي التي تستتبع من الحوادث ما يناسبها ويسانخها خيراً أو شرّاً، لا يريدون بقولهم إبطال دور العلل الطبيعية وإنكار تأثيرها ولا تشريك الأعمال الإنسانية مع العوامل المادّية بنحو يكون لكلّ منهما جزء التأثير، كما أن الإلهيين لا يريدون بإثبات الصانع إبطال قانون العلّية والمعلولية العام وإثبات الاتفاق والصدفة في الوجود أو تشريك الصانع مع العلل الطبيعية واستناد بعض الأمور إليه تعالى والبعض الآخر إلى تلك العلل بل مرادهم – كما مرّ توضيحه – إثبات علّة في طول علّة وعامل معنوي فوق العوامل المادّية وإسناد التأثير إلى كلتا العلّتين لكن بالترتيب.

وهذا من قبيل ما ذكره القرآن الكريم من إسناد التدبير إلى الله تعالى تارة حيث قال: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّماء إِلَى الأَرْضِ﴾ (السجدة: ٥) وإسناد التدبير إلى الملائكة أخرى ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ (النازعات: ٥) أو نسب التوفّي إلى الله تعالى مرّة ﴿الله يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (الزمر: ٤٢) وإلى ملك الموت أخرى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ (السجدة: ١١) وإلى الرسل وهم الملائكة ثالثة ﴿حَتَّى إذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام: ٦١) فإن مثل هذه الإسنادات المتعددة في الموضوع الواحد – وله نظائر كثيرة

في القرآن – ليست عَرْضية وإنما هي طولية، بمعنى أن السبب القريب سبب للحادث، والسبب البعيد سبب للسبب.

وإلا فإن القرآن كما يثبت استناد الحوادث إلى أسبابها المادّية والطبيعية كذلك يصدّق استنادها إلى الملائكة، ومن الواضح أنه ليس لشيء من هذه الأسباب الطولية استقلالية قباله تعالى، بنحو إذا استند إلى غيره سبحانه يكون مانعاً من الاستناد إلى السبب الحقيقي الذي من ورائها ﴿وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (البروج: ٢٠) كذلك في المقام فإن استناد الحوادث إلى عللها الطبيعية لا يمنع من استنادها إلى أسباب معنوية مرتبطة بأفعال الإنسان في طول هذه العلل ولا ينافي توسّط هذه الأسباب الطولية في إيجاد تلك الحوادث من أن تستند إليه تعالى، لأنه السبب الوحيد لها جميعاً على ما يقتضيه توحيد الربوبيّة.[١]

النتيجة

في ضوء الحقيقة المتقدّمة التي وقفنا عليها يتّضح أن حاجة الإنسان إلى الشفاعة التشريعية لا تختص بالنشأة الأخرى، وإنما تمتدّ لتشمل هذه النشأة أيضاً، لأن الآثار المترتّبة على فجور الإنسان ومعاصيه لا تختصّ بتلك النشأة وإنما ترافق الإنسان في كلّ مراحل حياته الدنيوية أيضاً. من هنا تنبثق الحاجة إلى الشفاعة في الدنيا لكي تهيّأ الأرضية للانتفاع بشفاعة الشافعين في الأخرى.

---

(١) يمكن مراجعة تفصيل هذه المقدمة في كتاب: **التقوى في القرآن**، السيد كمال الحيدري: ص ٨١، ١١٩، الطبعة الرابعة: ١٤٢٣، دار فراقد.

(١)
شفعاء الشفاعة التشريعية في الدنيا

شفعاء الشفاعة التشريعية الواقعة في عالم التكليف هم:

١ . الملائكة

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (المؤمن: ٧) أي يسألون الله سبحانه أن يغفر للذين آمنوا. قال الزمشخري: «ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم. وفيه تنبيه على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون أدعى شيء إلى النصيحة وأبعثه على إمحاض الشفقة وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن، فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان ولا بين سماويّ وأرضيّ قط، ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض»[1].

(١) **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل**: ج ٤ ص ١٥٣.

فإن قلت: كيف يجتمع قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ مع قوله سبحانه ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الشورى: ٥).

قلنا: إن الاستغفار في حقّ المؤمنين هو بالرفع أي التجاوز عن سيّئاتهم، ولمن في الأرض بالدفع، وتوضيحه: أن سؤال الملائكة المغفرة لأهل الأرض إنما هو بحصول سببها وهو سلوك سبيل العبودية بالاهتداء بهداية الله سبحانه، وهذا مرجعه إلى سؤال أن يشرّع لهم ديناً يغفر لمن تديّن به منهم. فالمعنى: والملائكة يسألون الله سبحانه أن يشرع لمن في الأرض من طريق الوحي ديناً يدينون به فيغفر لهم بذلك. «ويشهد على هذا المعنى وقوع الجملة في سياق بيان صفة الوحي، وكذا تعلّق الاستغفار بمن في الأرض؛ إذ لا معنى لطلب المغفرة منهم لمطلق أهل الأرض حتى لمن قال: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾ (البقرة: ١١٦) فالمتعيّن حمل سؤال المغفرة على سؤال سببها وهو تشريع الدين لأهل الأرض ليغفر لمن تديّن به»[1].

قال الآلوسي في ذيل قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتهم من ترتيب الأمور المقرّبة إلى الطاعة، كالمعاونة في بعض أمور المعاش ودفع العوائق واستدعاء تأخير العقوبة طمعاً في إيمان الكافر وتوبة الفاسق، وهذا يعمّ المؤمن والكافر»[2].

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١٨ ص ١١.

(٢) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: ج ١٤ ص ٢٠.

٢ . الأنبياء

في القرآن الكريم العديد من الآيات التي أشارت إلى أن الأنبياء سألوا الاستغفار لأممهم في الدنيا؛ منها: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء: ٦٤) الآية ظاهرة في أنه إذا انضمّ إلى استغفار الإنسان استغفار الرسول صلى الله عليه وآله لكانت التوبة مقبولة جزماً، لأنه تعالى لما ذكر عنهم الاستغفار قال بعده ﴿لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾.

لكن لقائل أن يقول: أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح لكانت توبتهم مقبولة، فما الفائدة في ضمّ استغفار الرسول إلى استغفارهم؟

«قلنا: الجواب عنه من وجهين:

الأول: إن القوم لما لم يرضوا بحكم الرسول ظهر منهم ذلك التمرّد فإذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرّد، وما ذاك إلا بأن يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وآله ويطلبوا منه الاستغفار.

الثاني: لعلهم إذا تابوا بالتوبة أتوا بها على وجه الخلل، فإذا انضمّ

إليها استغفار الرسول صارت مستحقّة للقبول»[١].

ولعلّ هذا من أوضح مصاديق ابتغاء الوسيلة في هذه النشأة؛ قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥) ومن الواضح ليس المراد من الوسيلة الأسباب الدنيوية الموصلة للإنسان إلى غاياته المادّية إذ ليس هذا أمراً خفياً على الإنسان حتى يُحثّ عليه، كما أنه ليس من الأمور التي يكسل عنها الإنسان حتى يحضّ عليه، بل المراد التوسّل بالأسباب الموصلة إلى الأمور المعنوية، وليس خافياً أن أهمّ وسيلة لذلك هو التوسّل بدعاء واستغفار سيد الأنبياء والمرسلين ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣).

ومنها قوله تعالى: ﴿قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ * قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يوسف: ٩٧ - ٩٨) إنما أخّر الاستغفار لهم كما هو مدلول قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ - كما في بعض الأخبار - إلى وقت يستجاب فيه الدعاء؛ عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وآله سُئل: لم أخّر يعقوب بنيه عن الاستغفار؟ قال: «**أخّرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب**»[٢].

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ج ١٠ ص ١٣٠.

(٢) الدر المنثور في التفسير المأثور: ج ٤ ص ٥٨٤.

٣ .التوبة

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا شفيع أنجح من التوبة**»[١].

تختصّ شفاعة التوبة بهذه النشأة وهي أفضل شفيع للإنسان. أما اختصاصها بهذه النشأة دون الآخرة، فلأن التوبة هي الرجوع الاختياري عن السيّئة إلى الطاعة والعبودية، ولا يتحقّق هذا إلا في ظرف الاختيار وهي الحياة الدنيا، أما فيما لا اختيار للعبد في انتخاب كلّ من طريقي الصلاح والطلاح والسعادة والشقاوة فلا مسرح للتوبة فيه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيب فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾ (النساء: ١٧ – ١٨) حيث يظهر من تقييد قوله: ﴿قالَ إِنِّي تُبْتُ﴾ بقوله: «الآنَ» أن حضور الموت ومشاهدة هذا القائل سلطان الآخرة هما الموجبان له أن يقول: تبت، سواء ذكره أولم يذكره. فالمعنى إني تائب لما شاهدت الموت الحقّ والجزاء الحقّ، وقد قال تعالى في

---

(١) **شرح العالم الرباني كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني «قدّس سره» على المائة كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام**، ويليه شرحان على تلك الكلمات بعينها: ص ١٩٩، الكلمة: ٣٩ منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية – قم المقدسة.

نظيره حاكياً عن المجرمين يوم القيامة: ﴿وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ١٢) فهذه توبة لا تقبل من صاحبها لأن اليأس من الحياة الدنيا وهول المطّلع هما اللذان أجبراه على أن يندم على فعله ويعزم على الرجوع إلى ربّه ولات حين رجوع حيث لا حياة دنيوية ولا خيرة عملية.

وأما كونها أفضل شفيع للإنسان مع وجود غيرها من الشفعاء كالملائكة والأنبياء عليهم السلام، فلأن غيرها محدّد بحدود معيّنة لا تتعداها. فلا يتصور في الوجود شافع فوق أشفع الشافعين تبارك وتعالى، ومع ذلك فإن شفاعته يوم القيامة لا تشمل من يموت مشركاً؛ لقوله تعالى وقوله الحق: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ (النساء: ٤٨). وأما ما دون أشفع الشافعين من الشفعاء فإن لشفاعتهم - كما عرفت - شروطاً وحدوداً لا يتعدّونها، فهم لا يستغفرون إلا لمن ارتضى الله دينه ولا يشفعون إلا لمن كان بينه وبين الله عهداً.

من هنا خاطب الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله بشأن المنافقين ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٨٠) ولا يعني ذلك أن الرسول صلى الله عليه وآله كان يستغفر للكفار والمنافقين، وإنما على فرض أنه صلى الله عليه وآله استغفر لهم فإن استغفاره لن ينفعهم؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾ (التوبة: ١١٣) وأما استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه مع أنه من المشركين فقد أجاب عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٤).

وأما التوبة فإنها شافعة للإنسان حتى من الشرك والكفر والنفاق، وهذا ما يستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣) وما يتراءى من تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ (النساء: ٤٨) إذ أخرجت هذه الآية الشرك، فقد رفعته الآية اللاحقة لقوله: ﴿قُلْ لِعِبادي...﴾ حيث قالت: ﴿وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ (الزمر: ٥٤) حيث يتبين أن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً لكن من خلال الإنابة والتوبة والرجوع إليه، وبدون التوبة والإنابة لا مجال لغفران الذنوب جميعاً؛ لما مرّ أن المغفرة الحاصلة بالشفاعة لا تنال الشرك بنصّ القرآن في آيات كثيرة.

هكذا يتّضح أن دور التوبة بشرائطها أعظم بمراتب من دور غيرها من الشفعاء، لكنها من ناحية أخرى أضيق ظرفاً من شفاعة الشفعاء الآخرين، لأنها مختصّة بهذه النشأة ولا يمتدّ تأثيرها إلى الدار الآخرة كما تقدّم.

فائدة أخلاقية

عرفت أن التوبة هي الرجوع الاختياري عن السيّئة إلى الطاعة والعبودية. وتفصيل هذا الإجمال بإيجاز هو: إن النفس في بدء فطرتها خالية من كلّ أنواع الكمال والجمال والنور والبهجة كما أنها تكون خالية أيضاً من أضداد هذه الصفات المذكورة؛ قال تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨) فكأن النفس صفحة نقيّة من كلّ رسم ونقش لا توجد فيها الكمالات الروحية ولا تتّصف بالنعوت المضادّة لها، لكن قد أودع فيها نور الاستعداد والأهلية لنيل أيّ مقام رفيع أو وضيع؛ ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها * فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٦ - ٩) وأنشئت فطرتها على الاستقامة وعجنت طينتها بالأنوار الذاتية؛ قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ (الروم: ٣٠).

وعندما تجترح النفس سيّئة تحصل في القلب ظلمة وسواد، وكلما ازدادت المعاصي تضاعفت الظلمة والسواد إلى أن يغشى الظلام والسواد القلب كلّه وينطفئ نور الفطرة ويبلغ مرتبة الشقاء الأبدي. عن ابن بكير عن زرارة عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: **ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب** (أي إذا لجّ ودام على فعله) **زاد ذلك السواد حتى يغطّي البياض، فإذا تغطّى البياض لم يرجع**

صاحبه إلى خير أبداً[١]، وهو قول الله عزّ وجلّ ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤).

وهذا معناه أن الإنسان إذا انتبه قبل أن يستوعب الظلام والسواد القلب كلَّه ثم اجتاز منزلة اليقظة ودخل على منزل التوبة واستوفى حظوظ هذا المنزل حسب الشرائط التي سنأتي على ذكرها، زالت الحالات الظلماتية والكدورات الطبيعية وعاد إلى الحالة الفطرية النورية الأصيلة والروحانية الذاتية، وكأنما تنقلب النفس إلى صفحة خالية من جميع الكمالات وأضدادها، كما ورد في الحديث الشريف المشهور: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»[٢].

وإذا كان كذلك فورود الإنسان منازل الكرامة والاستقرار في مستقرّ السعادة يتوقف على انصرافه عما هو فيه من مهبط الشقاء ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى﴾ (طه: ١١٧) وانقلاعه عنه برجوعه إلى ربّه، وهو توبته إليه في أصل السعادة وهو الإيمان، وفي كلّ سعادة فرعية وهي كلّ عمل صالح، والرجوع عن أصل الشقاء وهو الشرك بالله سبحانه وعن فروعات الشقاء وهي سيّئات الأعمال بعد الشرك.

فالتوبة بمعنى الرجوع إلى الله والانخلاع عن ألوان البُعد والشقاء يتوقّف عليها الاستقرار في دار الكرامة بالإيمان، والتنعّم بأقسام نعم الطاعات والقربات. وبعبارة واضحة: يتوقف القرب من الله تعالى ودار

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٢٧٣، كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب، الحديث: ٢٠.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٤٣٥، باب التوبة، الحديث: ١٠.

كرامته على التوبة من الشرك ومن كلّ معصية؛ قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور:٣١) فالتوبة بمعنى الرَجوع إلى الله تعمّ التوبتين جميعاً، بل تعمّهما وغيرهما على ما سيجيء إن شاء الله تعالى.

توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالى

لما كان الإنسان في مسيره الاختياري إلى ربّه فقيراً كلّ الفقر في ذاته صفر الكفّ بحسب نفسه كما قال تعالى: ﴿ياأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى الله وَالله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥) وقال: ﴿وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَياةً وَلا نُشُوراً﴾ (الفرقان: ٣) كانَ محتاجاً في هذاالرجوع أيضاً (أعني التوبة) إلى عناية من ربّه بأمره وإعانة منه له في شأنه، فيحتاج رجوعه إلى ربّه بالعبودية والمسكنة إلى رجوع من ربّه إليه بالتوفيق والإعانة وهو توبة الله سبحانه لعبده المتقدّمة على توبة العبد إلى ربّه كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ الله إلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ الله هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨) وكذلك الرجوع إلى الله سبحانه يحتاج إلى قبوله بمغفرة الذنوب وتطهيره من القذارات وألوان البعد، وهذه هي التوبة الثانية من الله سبحانه المتأخرة عن توبة العبد إلى ربّه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ وَكانَ الله عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٧).

والحاصل: إن توبة العبد محفوفة بتوبتين من الربّ تعالى، حيث إنه يرجع تعالى إلى العبد بالتوفيق وإفاضة رحمة الهداية وهي التوبة الأولى منه، فيهتدي العبد إلى الاستغفار وهو توبته، فيرجع تعالى إليه بقبول توبته وغفران ذنوبه وهي التوبة الثانية منه تعالى. وإذا تأملت حقّ التأمّل وجدت أن التعدّد في توبة الله سبحانه إنما عرض لها من حيث قياسها إلى توبة العبد، وإلا فهي توبة واحدة هي رجوع الله سبحانه إلى عبده بالرحمة، ويكون ذلك عند توبة العبد رجوعاً إليه قبلها وبعدها.

توبة الأنبياء

لما كان القرب والبُعد من الله تعالى أمرين نسبيين، أمكن أن يتحقّق البُعد في مقام القرب بنسبة بعض مواقفه ومراحله إلى بعض، ويصدق حينئذٍ معنى التوبة على رجوع بعض المقرّبين من عباد الله الصالحين من موقفه الذي هو فيه إلى موقف أرفع منه وأقرب إلى ربّه كما يشهد به ما يحكيه تعالى من توبة الأنبياء وهم معصومون بنصّ كلامه[1] كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٣٧) وقوله تعالى: ﴿وَإِذ يَرْفَعُ إبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنا مَناسِكَنا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧- ١٢٨) وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

---

(١) يمكن مراجعة كتاب: **عصمة الأنبياء في القرآن** (محاضرات: السيد كمال الحيدري) بقلم: محمود نعمة الجياشي.

(الأعراف: ١٤٣) وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ (التوبة: ١١٧).

قبول التوبة من الله لعبده فضل منه تعالى

إن التوبة من الله سبحانه لعبده أعمّ من المبتدئة واللاحقة فضل منه كسائر النعم التي يتنعّم بها خلقه من غير إلزام وإيجاب عليه تعالى من غيره، وليس معنى وجوب قبول التوبة عليه عقلاً إلا ما يدلّ عليه أمثال قوله تعالى: ﴿قَابِلِ التَّوْبِ﴾ (غافر: ٣) وقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ (النور: ٣١) وقوله: ﴿إن الله يحبّ التوابين﴾ (البقرة: ٢٢٢) وقوله: ﴿فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ (النساء: ١٧) من الآيات المتضمّنة لتوصيفه تعالى بقبول التوبة والنادبة إلى التوبة والداعية إلى الاستغفار والإنابة وغيرها، المشتملة على وعد القبول؛ بالمطابقة أو الالتزام، والله سبحانه لا يخلف الميعاد، وحسب هذا الوعد أوجب على نفسه ذلك حيث قال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ (النساء: ١٧) فيجب عليه تعالى قبول التوبة لعباده، لكن لا على أن لغيره أن يوجب عليه شيئاً أو يكلّفه بتكليف سواء سمى ذلك الغير بالعقل أو نفس الأمر أو الواقع أو الحقّ أو شيئاً آخر، تعالى عن ذلك وتقدّس بل على أنه تعالى وعد عباده أن يقبل توبة التائب منهم وهو لا يخلف الميعاد. فهذا معنى وجوب قبول التوبة على الله فيما يجب، وهو أيضاً معنى وجوب كلّ ما يجب على الله من الفعل.

من هنا يظهر أن الله سبحانه غير مجبور في قبول التوبة، بل له الملك من غير استثناء، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يقبل ما

يقبل من التوبة على ما وعد ويردّ ما يرّد منها كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إيمانهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَـوْبَتُهُمْ﴾ (آل عمران: ٩٠) ويمكن أن يكون من هذا البـاب قولـه تعـالى: ﴿إنَّ الَّـذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُـنِ اللهُ لِيَغْفِـرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِـيلاً﴾ (النساء: ١٣٧).

الحكمة من تشريع التوبة

إن الملاك الذي شرعت لأجله التوبـة هـو الـتخلّص مـن هـلاك الذنب وبوار المعصية؛ لكونها وسيلة الفلاح ومقدّمـة الفـوز بالـسعادة كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَتُوبُـوا إلَـى اللهِ جَمِيعـاً أَيُّهَـا الْمُؤْمِنُـونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١). ومن فوائدها مـضافة إلـى ذلـك أن فيهـا حفظاً لروح الرجاء من الانخماد والركود، فإن الإنسان لا يستقيم سيره الحيوي إلا بـالخوف والرجـاء المتعـادلين حتـى ينـدفع عمـا يـضرّه وينجذب إلى ما ينفعه، ولولا ذلك لهلك؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَـا عِبَـادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُـسِهِمْ لا تَقْنَطُـوا مِـنْ رَحْمَـةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِـرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣). ولا يـزال الإنـسان على ما نعرف من غريزته على نـشاط مـن الـروح الفعّالـة وجـدّ فـي العزيمة والسعي ما لم تخسر صفقته في متجر الحياة، وإذا بـدا لـه مـا يخسر عمله ويخيب سعيه ويبطل أمنيته استولى عليه اليأس وانـسلّت به أركان عمله، وربما انصرف بوجهه عـن مـسيره آئـساً مـن النجـاح خائباً من الفوز والفلاح، والتوبة هي الدواء الوحيـد الـذي يعـالج داءه ويحيي به قلبه وقد أشرف على الهلكة والردى.

أركان التوبة وشروطها

التوبة هي الإقلاع عن الذنب، ويعتبر في تحقّقها ثلاثة قيود:

- ترك الفعل في الحال.
- الندم على الماضي من الأفعال.
- العزم على الترك في الاستقبال.

جاء في نهج البلاغة أنه قال عليّ عليه السلام لقائل قال بحضرته: «استغفر الله»: **ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العلّيين وهو اسم واقع على ستة معانٍ:**

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: «أستغفر الله»[1].

يشتمل هذا الحديث الشريف الذي نقله السيد الرضي عن إمام

(١) **نهج البلاغة**، الكلمات القصار، رقم: ٤١٧، ضبط نصّه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي الصالح.

الموحّدين علي عليه السلام على ركنين من أركان التوبة هما: الندامة والعزم على ترك العودة، وعلى شرطين مهمين للقبول هما: إرجاع حقوق المخلوق لأهلها، وردّ حقوق الخالق لله سبحانه. وأما الأمران الآخران الخامس والسادس، فهما من شروط كمال التوبة، أي أن التوبة الكاملة لا تتحقّق ولا تقبل من دونهما.

توضيح ذلك: إن لكلّ منزل من منازل السالكين مراتب ودرجات تختلف حسب اختلاف حالات قلوبهم، وإن التائب إذا أراد البلوغ إلى مرتبة الكمال فلابدّ من تدارك ما تركه وتدارك الحظوظ أيضاً. يعني لابدّ من تدارك الحظوظ النفسانية التي لحقت به أيّام الآثام والمعاصي، وذلك بالسعي لمحو كلّ الآثار الجسمية والروحية التي حصلت في مملكة جسمه ونفسه من جرّاء الذنوب حتى تعود النفس مصقولة كما كانت في بدء الأمر، وتعود الفطرة إلى روحانيتها الأصيلة وتحصل له الطهارة الكاملة. وذلك لما علمت بأن لكلّ معصية انعكاساً وأثراً في الروح كما قد يحصل أثر من بعض الذنوب واللذائذ في الجسم، فلابد للتائب أن ينتفض ويستأصل تلك الآثار ويقوم بالرياضة البدنية والروحية حتى تزول منهما كلّ تبعات ومضاعفات الخطايا والآثام، كما أمر الإمام عليه السلام.

فطريق ممارسة الرياضة الجسمية من الإمساك عن أكل المقوّيات والمنشّطات والصيام المستحب أو الواجب إذا كان في ذمّته صيام واجب، يذيب اللحوم التي نشأت على جسمه من الحرام أو المعصية.

وعن طريق الرياضة الروحية من العبادات والمناسك يتدارك

الحظوظ الطبيعية، لأن صورة اللذات الطبيعية (المادّية) لا تـزال ماثلـة في ذائقة النفس، وما دامت عالقة بهـا ترغـب إليهـا الـنفس ويعـشقها القلب، ويُخشى من لحظة طغيان النفس وتمرّدها على صاحبها والعياذ بالله. لابدّ على السالك لسبيل الآخرة والتائب عن المعاصـي أن يـذيق الروح ألم الرياضة الروحية ومشقّة العبادة، فإذا سهر ليلة في المعـصية تداركها بليلة في العبادة، وإذا عاش يوماً واحـداً مـع اللذائـذ الطبيعيـة تداركه بالصوم والمستحبات المناسبة حتى تطهر النفس من كـلّ آثـار المعاصي وتبعاتها التـي هـي عبـارة عـن تعلّـق حـبّ الـدنيا بـالنفس ورسوخه فيها وتتطهّر من كلّ ذلك.

فهذان المقامان من المتمّمات والمكمّلات لمنزل التوبة، والإنسان عندما يريد في بدء الأمر أن يدخل مقام التوبة ويتوب إلى الله ينبغي له أن لا يظنّ بأن المطلوب منه المرتبة الأخيرة مـن التوبـة لأنـه سـيجد الطريق صعباً وعملية التوبة شاقّة فينصرف عنها ويتركها.

إن كلّ مقدار يساعد عليه حال السالك في سلوكه لطريق الآخـرة يكون مطلوباً ومرغوباً فيه، وعندما تطأ قدماه الطريق ييسّر الله تعالى له الطريق، فلابدّ أن لا تحجز صعوبة الطريق الإنسان عن الهدف الأصيل، لأنه مهم جدّاً وعظيم جدّاً. وإذا انتبهنـا إلـى عظمـة الهـدف وأهمّيته تذلّلت جميع الصعاب من أجله، وأيّ شيء أعظم من النجـاة الأبديـة والروح والريحان الـدائمين؟ وأيّ بـلاء أعظـم مـن الهـلاك الـدائمي والشقاء السرمدي؟ ومع ترك التوبة، والتـسويف والتأجيـل قـد يبلـغ الإنسان إلى الشقاء الأبدي والعذاب الخالد والهلاك الدائم.

شرائط قبول التوبة

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء: ١٧).

دلّت الآية أن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده بشرطين:

أحدهما: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾. الجهل يقابل العلم بحسب الذات، غير أن الناس لما شاهدوا من أنفسهم أنهم يعملون كلاً من أعمالهم الجارية عن علم وإرادة، وأن الإرادة إنما تكون عن حبّ ما وشوق ما، سواء كان الفعل مما ينبغي أن يفعل بحسب نظر العقلاء في المجتمع أو مما لا ينبغي أن يفعل، لكن من له عقل مميّز في المجتمع عندهم لا يقدم على السيّئة المذمومة عند العقلاء، فأذعنوا بأن من اقترف هذه السيّئات المذمومة لهوى نفساني وداعية شهوية أو غضبية خفي عليه وجه العلم وغاب عنه عقله المميّز الحاكم في الحسن والقبيح والممدوح والمذموم وظهر عليه الهوى. وعندئذ يسمّى حاله في علمه وإرادته جهالة في عرفهم وإن كان بالنظر الدقيق نوعاً من العلم، لكن لمّا لم يؤثّر ما عنده من العلم بوجه قبح الفعل وذمّه في ردعه عن الوقوع في القبح والشناعة أُلحق بالعدم، فكان هو جاهلاً عندهم حتى أنهم يسمّون الإنسان الشاب الحدث السنّ قليل التجربة جاهلاً؛ لغلبة الهوى وظهور العواطف والإحساسات على نفسه، ولذلك أيضاً تراهم لا يسمّون حال مقترف السيّئات إذا لم ينفعل في اقتراف السيّئة عن الهوى والعاطفة جهالة بل يسمّونها عناداً وعمداً وغير ذلك.

فتبيّن بذلك أن الجهالة في باب الأعمال إتيان العمل عن الهوى وظهور الشهوة والغضب من غير عناد مع الحق. ومن خواصّ هذا الفعل الصادر عن جهالة أن إذا سكنتْ ثورة القوى وخمد لهيب الشهوة أو الغضب باقتراف السيّئة أو بحلول مانع أو بمرور زمان أو ضعف القوى بشيب أو مزاج، عاد الإنسان إلى العلم وزالت الجهالة وبانت الندامة، بخلاف الفعل الصادر عن عناد وتعمّد ونحو ذلك فإن سبب صدوره لما لم يكن طغيان شيء من القوى والعواطف والأميال النفسانية بل أمراً يسمّى عندهم بخبث الذات ورداءة الفطرة لا يزول بزوال طغيان القوى والأميال سريعاً أو بطيئاً بل دام نوعاً بدوام الحياة من غير أن يلحقه ندامة من قريب إلا أن يشاء الله.

نعم ربما يتّفق أن يرجع المعاند اللجوج عن عناده ولجاجه واستعلائه على الحقّ فيتواضع للحقّ ويدخل في ذلّ العبودية فيكشف ذلك عندهم عن أن عناده كان عن جهالة، وفي الحقيقة كلّ معصية جهالة من الإنسان، وعلى هذا لا يبقى للمعاند مصداق إلا من لا يرجع عن سوء عمله إلى آخر عهده بالحياة والعافية.

ثانيهما: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ وقد أجمعوا على أن المراد من هذا القرب حضور زمان الموت ومعاينة أهواله، والدليل على ذلك قوله تعالى في الآية التالية: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ (النساء: ١٨). ولازم ذلك أن عامل السوء بجهالة لا يقيم عاكفاً على طريقته ملازماً لها مدى حياته من غير رجاء في عدوله إلى التقوى والعمل الصالح كما يدوم عليه المعاند اللجوج، بل يرجع عن عمله من قريب. كلّ معاند لجوج

في عمله إذا شاهد ما يسوؤه من جراء عمله ووبال فعله ألزمته نفسه على الندامة والتبرّي من فعله، لكنه بحسب الحقيقة ليس بنادم عن طبعه وهداية فطرته، بل إنما هي حيلة يحتالها نفسه الشرّيرة للتخلّص من وبال الفعل، والدليل عليه أنه إذا اتّفق تخلّصه من الوبال المخصوص عاد ثانياً إلى ما كان عليه من سيّئات الأعمال؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لما نُهُوا عَنْه وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون﴾ (الأنعام: ٢٨).

ويتبيّن مما مرّ أن الشرطين جميعاً أعني قوله: ﴿بجهالة﴾ وقوله: ﴿مِنْ قَرِيب﴾ احترازيان، يراد بالأول منهما أن لا يعمل السوء عن عناد واستعلاء على الله، وبالثاني منهما أن لا يؤخر الإنسان التوبة إلى حضور موته كسلاً وتوانياً ومماطلة؛ إذ التوبة هي رجوع العبد إلى الله سبحانه بالعبودية فيكون توبته تعالى أيضاً قبول هذا الرجوع، ولا معنى للعبودية إلا مع الحياة الدنيوية التي هي ظرف الاختيار وموطن الطاعة والمعصية، ومع طلوع آية الموت لا اختيار تتمشى معه طاعة أو معصية؛ قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إيمانها خَيْراً﴾ (الأنعام: ١٥٨) وقال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّةَ الله الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾ (غافر: ٨٥).

وبالجملة يعود المعنى إلى أن الله سبحانه إنما يقبل توبة المذنب العاصي إذا لم يقترف المعصية استكباراً على الله بحيث يبطل منه روح الرجوع والتذلّل لله ولم يتساهل ويتسامح في أمر التوبة تساهلاً يؤدي إلى فوت الفرصة بحضور الموت.

• عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته، ثم قال: إن السنة لكثيرة، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته، ثم قال: إن الشهر لكثير، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته، ثم قال: إن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته، ثم قال: إن يوماً لكثير، من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته**»(١). والمراد من المعاينة التي تمنع من قبول التوبة هي مشاهدة آيات الآخرة، لأن الإنسان عند القرب من الموت إذا شاهد أحوالاً وأهوالاً صارت معرفته بالله ضرورية عند مشاهدته تلك الأهوال، ﴿رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة:١٢) ومتى صارت معرفته بالله ضرورية سقط التكليف عنه.

• أخرج ابن جرير عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**إن إبليس لما رأى آدم أجوف قال: وعزّتك لا أخرج من جوفه ما دام فيه الروح، فقال الله تبارك وتعالى: وعزّتي لا أحول بينه وبين التوبة ما دام الروح فيه**»(٢).

• وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة والحاكم وصحّحه والبيهقي في «الشعب» عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(٣).

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٤٤٠، كتاب الإيمان والكفر، باب فيما أعطى الله عزّ وجلّ آدم عليه السلام وقت التوبة، الحديث: ٢.

(٢) **الدر المنثور في التفسير المأثور**: ج ٢ ص ٤٥٩.

(٣) **الدر المنثور في التفسير المأثور**: ج ٢ ص ٤٦٠.

تشريع التوبة والإغراء بالمعصية

قد يقال إن في تشريع التوبة والدعوة إليها إغراء بالمعصية وتحريضاً على ترك الطاعة، فإن الإنسان إذا أيقن أن الله يقبل توبته إذا اقترف أيّ معصية من المعاصي لم يخلّف ذلك في نفسه أثراً دون أن تزيد جرأته على هتك حرمات الله والانغمار في لجج المعاصي والذنوب، فيدقّ باب كلّ معصية قاصداً أن يذنب ثم يتوب.

والجواب: إن ما ذكر من استلزام التوبة أن يقصد الإنسان كلّ معصية بنيّة أن يعصي ثم يتوب فقد فاته أن التوبة بهذا النعت لا يتحقّق معها حقيقة التوبة، فإنها انقلاع عن المعصية ولا انقلاع في هذا الذي يأتي به. والدليل عليه أنه كان عازماً على ذلك قبل المعصية ومع المعصية وبعد المعصية. ولا معنى للندامة أي التوبة قبل تحقّق الفعل، بل مجموع الفعل والتوبة في أمثال هذه المعاصي مأخوذ فعلاً واحداً مقصود بقصد واحد مكراً وخديعة يخدع بها رب العالمين، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

ولا يتنافى ذلك مع قبول التوبة ممن تكرّرت منه المعصية بعد التوبة الصادقة، لأنه لم يكن مصرّاً عليها مستكبراً معانداً فيها، لذا ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: «**يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان**. قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة؟ فقال: **يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟**

قلت: فإن فعل ذلك مراراً، يذنب ثم يتوب ويستغفر الله، فقال: **كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيّئات، فإيّاك أن تقنّط المؤمنين من رحمة الله»**[1].

٤ . شفعاء آخرون

ومن الشفعاء في الدنيا أيضاً القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٦).

ومنهم المؤمنون باستغفارهم لأنفسهم ولإخوانهم المؤمنين؛ قال تعالى حكاية عنهم: ﴿واعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦).

وكذلك الإيمان والعمل الصالح؛ قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: ٩).

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٤٣٤، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، ح: ٦.

ملاحظة: يمكن مراجعة أبحاث هذه الفائدة الأخلاقية في: **الميزان في تفسير القرآن**: ج ٤ ص ٢٣٧- ٢٥٣، **الأربعون حديثاً**، الإمام الخميني: ص ٣٠٧ - ٣١١، **التفسير الكبير أومفاتيح الغيب**: ج ١٠ ص ٤ - ٩، **شرح العالم الرباني ميثم البحراني على المائة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام**: ص ١٩٩ - ٢٠١.

(٢)

شفعاء الشفاعة التشريعية في الآخرة

أشار القرآن الكريم إلى أهمّ الشفعاء في الآخـرة، لكـن لابـدّ مـن الالتفات إلى أن القرآن عادة لا يتعرض إلا إلى الخطوط العامة والكلية للموضوعات التي يتناولها، وأما الأمـور التفـصيلية فهـي موكولـة إلـى بيانات الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل بيته عليهم السلام.

عن أبي بصير قال: قلت للإمام جعفر بـن محمـد الـصادق عليـه السلام: إن الناس يقولون: فما له لم يسمّ عليّاً وأهل بيته عليهم السلام في كتاب الله عزّ وجلّ؟ قال: فقال: قولوا لهـم: إن رسـول الله صـلى الله عليه وآله نزلت عليه الصلاة ولم يسمّ الله لهم ثلاثـاً ولا أربعـاً حتـى كـان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزلت عليه الزكـاة ولم يسمّ لهم من كلّ أربعين درهماً درهمٌ حتى كان رسـول الله صـلى الله عليه وآله الذي فسّر لهم، ونزل الحج فلم يقل لهـم: طوفـوا أسـبوعاً حتـى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم.

ونزلت ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِـي الأَمْـرِ مِـنْكُمْ﴾ فقـال رسول الله صلى الله عليه وآله في علي: من كنـت مـولاه فهـذا علـي مـولاه

وقال صلى الله عليه وآله: أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي، فإني سألت الله عزّ وجلّ أن لا يفرّق بينهما حتى يوردهما عليّ الحوض، فأعطاني ذلك. وقال: لا تعلّموهم فهم أعلم منكم. وقال: إنهم لن يُخرجوكم من باب هدى ولن يُدخلوكم في باب ضلالة.

فلو سكت رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يبيّن مَنْ أهلُ بيته لادّعاها آل فلان وآل فلان، لكن الله عزّ وجلّ أنزل في كتابه تصديقاً لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿إنَّما يُريدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣) فكان علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام فأدخلهم رسول الله صلى الله عليه وآله تحت الكساء في بيت أم سلمة ثم قال: اللهم إن لكلّ نبي أهلاً وثقلاً وهؤلاء أهل بيتي وثقلي...»[(١)].

من هنا يتبيّن لنا مدى أهمّية الرجوع إلى عدل القرآن الكريم من أجل الوقوف على الأفكار والنظريات بصورة تفصيلية. وبحث الشفاعة هو من بين البحوث التي عرض لها القرآن الكريم وفق هذا المنهج حيث تناولها بصورة عامّة وأثبت أصل وجودها في الدنيا والآخرة، ثم جاءت الروايات الشريفة لتفصّل فيها وتذكر الأمور التفصيلية المرتبطة بمصاديقها والتي من أهمّها:

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ١ ص ٢٨٦، كتاب الحجة باب ما نصّ الله عزّ وجلّ ورسوله على الأئمة واحداً فواحداً، الحديث: ١.

يمكن مراجعة روايات حديث الكساء في كتاب **العصمة**: محاضرات السيد كمال الحيدري، بقلم: السيد محمد القاضي.

١. الأنبياء

للأنبياء جميعاً شفاعة في الدنيا على ما سبق ذكره، ولهم شفاعة في الآخرة أيضاً، وهذا ما صرّحت به الروايات الواردة عن الفريقين.

• عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن آبائه عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **ثلاثة يشفعون إلى الله عزّ وجلّ فيشفّعون: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء.** [1]

• عن محمد بن إبراهيم بن كثير قال: دخلنا على أبي نواس الحسن بن هاني نعوده في مرضه الذي مات فيه، فقال له عيسى بن موسى الهاشمي: يا أبا علي أنت في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من الآخرة وبينك وبين الله هنات (أي خصلات شر) فتب إلى الله عزّ وجلّ؛ قال أبو نواس: سنّدوني. فلما استوى جالساً قال: إياي تخوّفني بالله؟ وقد حدّثني حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لكلّ نبي شفاعة وأنا خبّأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي يوم القيامة**»، أفترى لا أكون منهم. [2]

---

(١) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**: ج ٨ ص ٣٤، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، الحديث: ٢.

(٢) **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٤٠، الحديث: ٢١.

• وقال صلى الله عليه وآله: «فإذا فرغ الله عزّ وجلّ من القضاء بين خلقه وأخرج من النار من يريد أن يخرج، أمر الله الملائكة والرسل أن تشفع فيعرفون بعلاماتهم، إن النار تأكل كلّ شيء من ابن آدم إلا موضع السجود»[١].

• وقال أيضاً: «فيؤذن للملائكة والنبيّين والشهداء أن يشفعوا فيشفعون ويخرجون من كان في قلبه ما يزن ذرّة من إيمان»[٢].

---

(١) **سنن ابن ماجة**: ج ٢ ص ١٤٤٣، نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ص ٢٩٢، الحديث: ٢١.

(٢) **سنن النسائي**: ج ٢ ص ١٨١، نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**، ص ٢٩٢.

٢ . شفاعة النبيّ الأكرم

استعرضت الروايات المتظافرة عن الفريقين كثيراً من التفاصيل المتعلّقة بشفاعة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في يوم القيامة. لكن قبل الدخول في ذلك لابدّ أن نشير إلى القاعدة التي على أساسها يتعاطى الحقّ سبحانه مع عباده سواء على مستوى الطاعة والشكر أو مستوى العصيان والكفر.

فعلى مستوى البعد الإيجابي من هذه العلاقة يشير القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: ﴿فَاذكُرُونِي أذكُرْكُم﴾ (البقرة: ١٥٢) إلى القاعدة التي يتعامل على أساسها الحقّ تعالى مع عباده، حيث تكاثرت الأخبار من طرق الفريقين أن الله سبحانه يعامل العبد بمثل ما يعامل العبد ربّه.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد خرج على أصحابه فقال: **ارتعوا في رياض الجنة.** قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: **مجالس الذكر اغدوا وروحوا واذكروا، ومن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزّل العبد حيث أنزل العبد الله من نفسه، واعلموا أن خير أعمالكم عند مليككم وأزكاها وأرفعها في درجاتكم، وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله تعالى، فإنه أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس من ذكرني، وقال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ اذكروني بالطاعة والعبادة، أذكركم بالنِعم والاحسان والراحة**

والرضوان.[(١)]

وكيفما كان فقد أخذ الله على نفسه أن يؤدّي للمحسن جزاء عمله؛ قال تعالى: ﴿هَلْ جَزاءُ الإحْسانِ إلاَّ الإحْسانُ﴾ (الرحمن: ٦٠) بل جعل للمحسن مزيداً كما أشارت إلى ذلك آيات عديدة؛ قال تعالى: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾ (الأنعام: ١٦٠) وقال: ﴿لَهُمْ ما يَشاءُونَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ (ق: ٣٥).

وأما في البعد السلبي فليس من الضروري أن يقابل سبحانه فعل العبد بالمثل، فقد يقابله بالمثل إذا كان مشركاً أو منافقاً، وذلك هو الجزاء الوفاق الذي أشير إليه في قوله تعالى: ﴿إنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً * لِلطَّاغِينَ مَآباً * لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً * لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً * إلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزاءً وِفاقاً﴾ (النبأ: ٢١- ٢٦) أي أن الجزاء يأتي وفق العمل ولا يتجاوزه، لكنه سبحانه في غير ذلك قد يعاقب وقد يعفو ويرفع يده عن الوعيد كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٨) وقوله: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ الله إمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ١٠٦).

في ضوء هذه الحقيقة أشار القرآن الكريم إلى أن الله سبحانه امتنّ على رسوله صلى الله عليه وآله بوعد اختصّ به لم يعد بمثله أحداً من خلقه قط فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾ (الضحى: ٥) حيث اشتمل الوعد على عطاء يتبعه رضى.

---

(١) **عدة الداعي** نقلاً عن: **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ٣٤٠.

أما الإعطاء فهو مطلق لم يقيَّد بشيء، «وقد وعد الله ما يشابه ذلك فريقاً من عباده في الجنة فقال تعالى: ﴿لَهُمْ ما يَشاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (الشورى: ٢٢) وقال: ﴿لَهُمْ ما يَشاءُونَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ﴾ (ق: ٣٥) فأفاد أن لهم هناك ما هو فوق مشيّتهم، والمشيّة تتعلق بكلّ ما يخطر ببال الإنسان من السعادة والخير، فهناك ما لا يخطر على قلب بشر كما قال تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٧) فإذا كان هذا قدر ما أعطاه الله لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو أمر فوق القدر كما عرفت ذلك، فما يعطيه لرسوله صلى الله عليه وآله في مقام الامتنان أوسع من ذلك وأعظم.

وأما رضى رسول الله صلى الله عليه وآله فمن المعلوم أن هذا الرضا ليس هو الرضا بما قسم الله الذي هو زميل لأمر الله، فإن الله هو المالك الغني على الإطلاق وليس للعبد إلا الفقر والحاجة، فينبغي أن يرضى بقليل ما يعطيه ربّه وكثيره، وينبغي أن يرضى بما قضاه الله في حقّه، سرّه ذلك أو ساءه. فإذا كان هذا هكذا فرسول الله صلى الله عليه وآله أعلم وأعمل، لا يريد إلا ما يريده الله في حقّه.

لكن هذا الرضا حيث وضع في مقابل الإعطاء يفيد معنىً آخر نظير إغناء الفقير بما يشكو فقده وإرضاء الجائع بإشباعه، فهو الإرضاء بالإعطاء من غير تحديد، وهذا أيضاً مما وعد الله ما يشابهه لفريق من عباده؛ قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ

رَبَّهُ﴾ (البيّنة: ٧ – ٨). وهذا أيضاً لموقع الامتنان والاختصاص يجب أن يكون أمراً فوق ما للمؤمنين وأوسع من ذلك»[١].

إذن فتحصل أن الآية المباركة اشتملت على وعد بالعطاء المطلق الذي يتبعه رضى مطلق. فإذا ضممنا إلى هذه الآية قوله تعالى في حقّ رسوله صلى الله عليه وآله: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) حيث سمّاه تعالى باسمين من أسمائه، يثبت أنه لا يرضى رسول الله صلى الله عليه وآله بأن تطيب نفسه بنعيم الجنة وفريق من المؤمنين متغلغلون في دركات السعير مسجونون تحت أطباق النار وهم معترفون لله بالربوبيّة ولرسوله بالرسالة ولما جاء به بالصدق، وإنما غلبت عليهم الجهالة ولعب بهم الشيطان، فاقترفوا معاصي من غير عناد واستكبار.

والواحد منّا إذا راجع ما أسلفه من عمره ونظر إلى ما قصّر به في الاستكمال والارتقاء يلوم نفسه بالتفريط والتقصير في سعيه وطلبه، ثم يلتفت إلى جهالة الشباب ونقص التجارب فربما خمدت نار غضبه وانكسرت سورة ملامته لرحمة ناقصة أودعها في فطرته، فما ظنّك برحمة رب العالمين في موقف ليس فيه إلا جهالة إنسان ضعيف وكرامة النبيّ الرؤوف الرحيم ورحمة أرحم الراحمين، وقد رأى ما رأى من وبال أمره من لدن نشبت عليه أظفار المنية إلى آخر مواقف القيامة.

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ١٧٧.

من هنا جاءت الروايات من الفريقين أن هذا العطاء الإلهي الذي وعد به رسوله صلى الله عليه وآله إنما هو الشفاعة.

• أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال: قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: أرأيت هذه الشفاعة التي يتحدّث بها أهل العراق أحقٌّ هي؟ قال: **إي والله، حدّثني عمي محمد بن الحنفية عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:** «**أشفع لأمتي حتى يناديني ربّي: أرضيت يا محمد؟ فأقول: نعم يا ربّ رضيت**»[1].

• وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه سُئل عن قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾ قال: **هي الشفاعة**.[2]

• وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «**رضاء جدي أن لا يدخل النار موحّد**»[3].

وقال الرازي في ذيل هذه الآية: «واعلم أن الحمل على الشفاعة متعيّن، ويدلّ عليه وجوه:

أحدها: أنه تعالى أمره في الدنيا بالاستغفار، فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (محمد: ١٩) فأمره بالاستغفار والاستغفار عبارة عن طلب المغفرة، ومن طلب شيئاً فلاشكّ أنه لا

---

(١) الدر المنثور في التفسير المأثور: ج ٨ ص ٥٤٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله والصحابة والتابعين: ج ١٠ ص ٣٤٤٣.

(٣) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ج ٣١ ص ١٩٣.

يريد الرد ولا يرضى به وإنما يرضى بالإجابة، وإذا ثبت أن الذي يرضاه الرسول صلى الله عليه [وآله] وسلم هو الإجابة لا الردّ، ودلّت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه كلّ ما يرتضيه، علمنا أن هذه الآية دالّة على الشفاعة في حقّ المذنبين.

والثاني: الأحاديث الكثيرة الواردة في الشفاعة دالّة على أن رضا الرسول عليه الصلاة والسلام في العفو عن المذنبين. يروى أنه عليه السلام لما نزلت هذه الآية قال: **إذن لا أرضى وواحد من أمّتي في النار**. فتحصّل من مجموع الآية والخبر حصول الشفاعة»[1].

أرجى آية في كتاب الله

لذا عبّر أئمة أهل البيت عليهم السلام عن هذه الآية وهي قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾ أنها أرجى آية في كتاب الله. في تفسير الفرات عن محمد بن القاسم بن عبيد معنعناً عن بشر بن شريح البصري قال: قلت: لمحمد بن علي الباقر عليه السلام: أية آية في كتاب الله أرجى؟ قال: **فما يقول فيها قومك؟** قال: يقولون: ﴿يَا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله﴾ قال: **لكنّا أهل بيت لا نقول ذلك**، قال: قلت: فأي شيء تقولون فيها؟ قال: **نقول: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾ الشفاعة والله الشفاعة والله الشفاعة**»[2].

---

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٣١ ص ١٩٢.

(٢) **تفسير الفرات**، نقلاً عن: **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ١٧٦.

وعن محمد بن علي بن الحنفية قال: يا أهل العراق تزعمون أن أرجى آية في كتاب الله تعالى: ﴿يَا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ وإنا أهل البيت نقول: أرجى آية في كتاب الله عزّ وجلّ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾ هي والله الشفاعة ليعطينّها في أهل لا إله إلا الله حتى يقول ربي رضيت»[1].

ولعلّ مردّ ذلك إلى أن الرحمة التشريعية التي اشتملت عليها آية ﴿ولسوف يعطيك...﴾ هي رحمة عامة مطلقة، بينما قيّدت الرحمة في آية ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا..﴾ - مع كونها عمّمت المغفرة للذنوب جميعاً من غير استثناء - بالتوبة والإسلام والاتباع؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ (الزمر: ٥٣- ٥٥).

ومن الواضح أن رجاء الرحمة المقيّدة التي أمر الله تعالى عباده بالتعلّق بها ليس كرجاء الرحمة المطلقة الناشئة من الإعطاء والإرضاء المطلقين اللذين وعدهما الله لرسوله الذي جعله رحمة للعالمين. والحاصل فإن الجمع بين الآيات الدالّة على أنه صلى الله عليه وآله هو

---

(١) **تفسير الصافي**، تأليف: أستاذ عصره ووحيد دهره المولى محسن الملقب بالفيض الكاشاني:ج ٥ ص ٣٤١، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

مظهر الرحمة والرأفة الإلهية وبين إعطائه حتى يرضى يبيّن مدى سعة الرحمة التي تشتمل عليها آية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾ الأمر الذي جعلها أرجى آية في كتاب الله سبحانه.

موعظة فيها تذكرة

عن أنس بن مالك قال:

جاء جبرئيل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله في ساعة ما كان يأتيه فيها متغيّر اللون.

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: ما لي أراك متغيّر اللون؟

فقال: يا محمد جئتك في الساعة التي أمر الله تعالى بمنافخ النار أن ينفخ فيها، ولا ينبغي لمن يعلم أن جهنّم حقّ أن تقرّ عينه حتى يأمنها.

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: صِف لي النار يا جبرئيل؟

فقال: نعم يا محمد، إن الله تعالى لما خلق جهنم أوقد عليها ألف سنة فاحمرّت، ثم أوقد عليها ألف سنة فابيضّت، ثم أوقد عليها ألف سنة فاسودّت فهي سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا حمرتها. والذي بعثك بالحقّ نبيّاً لو أن رجلاً بالمغرب يعذّب لاحترق الذي بالمشرق من شدة عذابها. حرّها شديد وقعرها بعيد وحليّها حديد وشرابها الحميم والصديد وثيابها مقطّعات النيران ﴿لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (الحجر: ٤٤).

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: أهي كأبوابنا هذه؟

فقال: لا، ولكنّها مفتوحة بعضها أسفل من بعض من باب إلى باب

مسيرة سبعين سنة، كلّ باب منها أشدّ حرّاً من الذي يليه سبعين ضِعفاً، يساق أعداء الله إليها، فإذا انتهوا إلى أبوابها استقبلتهم الزبانية بالأغلال والسلاسل، فتسلك السلسلة في فيه وتخرج من دُبره وتغلّ يده اليُسرى إلى عنقه وتدخل يده اليمنى في فؤاده وتنزع من بين كتفيه ويشدّ بالسلاسل، ويقرن كلّ آدمي مع شيطان في سلسلة ويُسحب على وجهه، فتضربه الملائكة بمقامع من حديد ﴿كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ﴾ (الحج: ٢٢).

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: من سكّان هذه الأبواب؟

قال: فأما الباب الأسفل ففيه المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون واسمها الهاوية، والباب الثاني ففيه المشركون واسمه الجحيم، والباب الثالث ففيه الصابئة واسمه سقر، والباب الرابع ففيه إبليس ومن تبعه من المجوس واسمه لظى، والخامس ففيه اليهود واسمه الحُطمة، والسادس ففيه النصارى واسمه السعير، ثم أمسك جبرئيل عليه السلام.

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: ألا تخبرني من سُكّان الباب السابع؟

قال: يا محمد لا تسألني عنه؟

فقال: بلى يا جبرئيل أخبرني عن الباب السابع.

فقال: فيه أهل الكبائر من أمّتك الذين ماتوا ولم يتوبوا.

فخرّ النبيّ صلى الله عليه وآله مغشيّاً عليه.

فوضع جبرئيل عليه السلام رأسه في حجره حتى أفاق، فلما أفاق قال: يا جبرئيل عظمت مصيبتي واشتد حزني أو يدخل من أمتي النار؟

قال: نعم، أهل الكبائر من أمّتك.

إلى أن تقول الرواية:

فإذا نظر إليهم مالك قال للملائكة: ما هؤلاء؟ فما ورد عليّ من الأشقياء أعجب من هؤلاء لم تسودّ وجوههم ولم توضع السلاسل والأغلال في أعناقهم. فيقول الملائكة: هكذا أُمرنا أن نأتيك بهم على هذه الحال.

فيقول لهم: يا معشر الأشقياء من أنتم؟

فيقولون: نحن ممن أنزل علينا القرآن ونحن ممن نصوم رمضان.

فيقول مالك: ما نزل القرآن إلا على محمد صلى الله عليه وآله.

فإذا سمعوا اسم محمد صاحوا فقالوا: نحن من أمّة محمد.

فيقول لهم مالك: ما كان لكم في القرآن زاجر عن معاصي الله؟

فإذا وقف بهم على شفير جهنم ونظروا إلى النار والزبانية فقالوا: يا مالك ائذن لنا نبكي على أنفسنا فيبكون الدموع حتى لم يبق لهم الدموع فيبكون دماً.

فيقول مالك: ما أحسن هذا لو كان في الدنيا، فلو كان هذا البكاء في الدنيا من خشية الله تعالى ما مسّكم النار اليوم.

فيقول مالك للزبانية: ألقوهم في النار.

فنادوا بأجمعهم: لا إله إلا الله، فترجع عنهم النار.

فيقول مالك: يا نار خذيهم.

فتقول النار: وكيف آخذهم وهم يقولون: لا إله إلا الله.

فيقول مالك: نعم بذلك أمر ربّ العرش. فتأخذهم. فمنهم من تأخذه إلى قدميه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حقويه، ومنهم من تأخذه إلىحلقه. قال: فإذا أهوت النار إلى وجهه قال مالك: لا تحرقي وجوههم فطالما سجدوا للرحمن في الدنيا، ولا تحرقي قلوبهم فطالما عطشوا في شهر رمضان.

فيبقون ما شاء الله فيها فينادُون: يا أرحم الراحمين يا حنّان يا منّان.

فإذا أنفذ الله تعالى حكمه قال: يا جبرئيل ما فعل العاصون من أمّة محمد صلى الله عليه وآله؟

فيقول: إلهي أنت أعلم بهم.

فيقول: انطلق فانظر حالهم، فينطلق جبرئيل إلى مالك - وهو على سرير من نار في وسط جهنم - فإذا نظر مالك إلى جبرئيل عليه السلام قام تعظيماً له فيقول: يا جبرئيل ما أدخلك هذا الموضع؟

فيقول: ما فعلت العصابة العاصية من أمّة محمد صلى الله عليه وآله؟

فيقول: ما أسوأ حالهم وأضيق مكانهم قد أحرقت النار أجسامهم وأكلت لحومهم وبقيت وجوههم وقلوبهم يتلألأ فيها الإيمان.

فيقول جبرئيل: ارفع الطبق عنهم حتى أنظر إليهم.

قال: يأمر مالك الخزنة فيرفعون الطبق، فإذا نظروا إلى جبرئيل وإلى حسن خلقه علموا أنه ليس من ملائكة العذاب فيقولون: مَن هذا العبد الذي لم نر قطّ أحسن وجهاً منه؟

فيقول مالك: هذا جبرئيل الكريم على الله تعالى الذي كان يأتي محمداً صلى الله عليه وآله بالوحي. فإذا سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وآله

صاحوا بأجمعهم وقالوا: يا جبرئيل اقرأ محمّداً منّا السلام وأخبره أن معاصينا فرّقت بيننا وبينه وأخبره بسوء حالنا.

فينطلق جبرئيل حتى يقوم بين يدي الله تعالى فيقول الله عزّ وجلّ: كيف رأيت أمّة محمّد صلى الله عليه وآله؟

فيقول: يا ربّ ما أشدّ حالهم وأضيق مكانهم.

فيقول: هل سألوك شيئاً؟

فيقول: نعم يا ربّ سألوني أن أقرأ على نبيهم السلام وأخبره بسوء حالهم.

فيقول الله جلّ جلاله: انطلق وأبلغه. فيدخل جبرئيل على النبيّ صلى الله عليه وآله وهو في خيمة من درّة بيضاء لها أربعة آلاف باب ولها مصراعان من ذهب. فيقول: يا محمد جئتك من عند العصابة العصاة من أمّتك يعذّبون بالنار وهم يقرئونك السلام ويقولون: ما أسوأ حالنا وأضيق مكاننا.

فيأتي النبيّ صلى الله عليه وآله عند العرش، فيخرّ ساجداً ويثني على الله ثناءً لم يثنه أحد مثله.

فيقول الله عزّ وجلّ: ارفع رأسك واسأل تعط واشفع تشفّع.

فيقول: يا ربّ، الأشقياء من أمّتي قد أنفذت فيهم حكمك.

فيقول الله عزّ وجلّ: قد شفّعتك فيهم، فأتِ النار وأخرِج منها من قال: لا إله إلا الله.

فينطلق النبيّ صلى الله عليه وآله، فإذا نظر مالك إلى محمد صلى الله عليه وآله قام تعظيماً له، فيقول: يا مالك ما حال أمّتي الأشقياء؟

فيقول مالك: ما أسوأ حالهم وأضيق مكانهم.

فيقول النبيّ صلى الله عليه وآله: افتح الباب وارفع الطبق، فإذا نظروا أهل النار إلى محمد صلى الله عليه وآله صاحوا بأجمعهم فيقولون: قد أحرقت النار جلودنا وأحرقت أكبادنا. ويخرجهم جميعاً وقد صاروا فحماً قد أكلتهم النار، فينطلق بهم إلى نهر بباب الجنّة يسمّى الحيوان فيغتسلون فيه فيخرجون منه شباباً جرداً مرداً مكحّلين، وجوههم مثل القمر مكتوب على جباههم (جهنّميون عتقاء الرحمن من النار) فيدخلون الجنة، فإذا رأى أهل النار أن المسلمين قد أخرجوا منها، قالوا: يا ليتنا كنّا مسلمين وكنّا نخرج من النار[1]. وهو قوله تعالى: ﴿رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر: ٢).

الشفاعة والمقام المحمود

قال تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾ (الإسراء: ٧٩) دلّت الآية الكريمة أن هذا المقام سوف يعطى للنبي الأكرم يوم القيامة؛ وذلك بقرينة لفظة «البعث» الذي أطلق في القرآن عموماً على الحشر الأكبر يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٥٦) وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ..﴾ (الحج: ٥) وقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ

---

(١) علم اليقين في أصول الدين: ج ٢ ص ١٠٣٩.

شَهيداً عَلى هؤُلاء﴾ (النحل: ٨٩)، لذا قال الآلوسي في ذيل هـذه الآيـة: «الذي يبلغك إلى كمالك اللائق بك من بعد الموت الأكبر لما انبعثت من الموت الأصغر بالصلاة والعبادة»[1].

وقد وصفت الآية هذا المقام بأنه محمود وأطلقت القول من غير تقييد، وهذا يفيد أنه مقام يحمده عليه جميع الخلائق.

والحمد كما قال الراغب في المفردات: «هو الثناء على الجميل الاختياري وهو أخصّ من المدح، وأعمّ من الشكر، فإن المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يقال منه وفيه بالتسخير، فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه كما يمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، والشكر لا يقال إلا في مقابل نعمة، فكلّ شكر حمد وليس كلّ حمد شكراً، وكلّ حمد مدح وليس كلّ مدح حمداً، ويقال فلان محمود إذا حمد»[2].

ومن المعلوم أن الحمد والثناء إنما هو لله تعالى أولاً وبالذات؛ وذلك: **أولاً**: إن كلّ ما يصدق عليه شيء فهو مخلوق له سبحانه؛ لقوله: ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (غافر: ٦٢).

وثانياً: إن كلّ شيء مخلوق فهو حسن وجميل، فلا خلق إلا وهو جميل ولا حسن إلا وهو مخلوق له منسوب إليه؛ لقوله: ﴿الَّذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَه﴾ (السجدة: ٧).

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: ج ١٥، ص ٢٠٢، المجلّد التاسع.

(٢) **المفردات في غريب القرآن**: ص ١٣١، مادة: حمد.

وثالثاً: إنه لم يخلق ما خلق بقهر قاهر ولا يفعل ما يفعل بإجبار مجبر، بل خلقه عن علم واختيار؛ لقوله: ﴿هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (الزمر: ٤). فكلّ شيء مقهور له ومحتاج إليه، ومن المحال أن يكون المقهور له قاهراً.

والمتحصل من هذه الأمور الثلاثة أن كلّ شيء في هذا العالم فهو فعل اختياري له تعالى، فلا يكون إلا جميلاً، من هنا فما من حمد يحمده حامد لأمر محمود إلا كان له سبحانه حقيقة، وإذا ثبت لغيره كما أشارت الآية فهو لأنه مظهر تلك الحقيقة التي هي المحمود المطلق بالذات.

أما لأيّ فعل يستحقّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله الحمد والثناء من الكل، وقد عرفت أن الثناء لا يكون إلا إذا كان هناك فعل استحسنه الكلّ وانتفع به الجميع؟ هنا اتّفقت كلمة المفسّرين ودلّت الأخبار الصحيحة الواردة من طرق الفريقين أن ذلك لأجل مقام الشفاعة الكبرى له صلى الله عليه وآله. قال الواحدي: «أجمع المفسّرون على أنه مقام الشفاعة» وقال الرازي: «اللفظ مشعر به وذلك لأن الإنسان إنما يصير محموداً إذا حمده حامد، والحمد إنما يكون على الإنعام، فهذا المقام المحمود يجب أن يكون مقاماً أنعم رسول الله فيه على قوم فحمدوه على ذلك الإنعام، وذلك الإنعام لا يجوز أن يكون هو تبليغ وتعليم الشرع لأن ذلك كان حاصلاً في الحال، وقوله: ﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾ تطميع، وتطميع الإنسان في الشيء الذي وعده في الحال محال، فوجب أن يكون ذلك الإنعام

الذي لأجله يصير محموداً إنعاماً سيصل منه حصل له بعد ذلك إلى الناس، وما ذاك إلا شفاعته عند الله. فدلّ هذا على أن لفظ الآية وهو قوله: ﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾ يدلّ على هذا المعنى.

وأيضاً التنكير في قوله مقاماً محموداً يدلّ على أنه يحصل للنبيّ عليه السلام في ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل»[١].

وقال الطبرسي: «وقد أجمع المفسّرون على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة وهو المقام الذي يشفع فيه للناس، وهو المقام الذي يعطى فيه لواء الحمد فيوضع في كفّه ويجتمع تحته الأنبياء والملائكة فيكون صلى الله عليه وآله أول شافع وأول مشفّع»[٢].

روايات المقام المحمود

تضافرت الروايات حول الآية وكلّها تُجمع على أن المراد من المقام المحمود هو مقام الشفاعة الكبرى له صلى الله عليه وآله.

• أخرج البخاري وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم يقول: «**إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم عليه السلام فيقول: لستُ بصاحب ذلك، ثم موسى عليه السلام فيقول: كذلك، ثم محمد صلى الله عليه [وآله] وسلم فيشفع، فيقضي الله بين الخلائق فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة**» فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ج ٢١ ص ٢٦.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن: ج ٤ ص ٨٨.

الجمع كلّهم.[١]

• عن سماعة بن مهران عن أبي إبراهيم عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾ قال: يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعين عاماً وتؤمر الشمس فتركب على رؤوس العباد ويُلجمهم العرق وتؤمر الأرض فلا تقبل من عرقهم شيئاً. فيأتون آدم فيشفعون له فيدلّهم على نوح ويدلّهم نوح على إبراهيم ويدلّهم إبراهيم على موسى ويدلّهم موسى على عيسى ويدلّهم عيسى فيقول: عليكم بمحمد خاتم النبيّين.

فيقول محمد صلى الله عليه وآله: أنا لها فينطلق حتى يأتي باب الجنّة فيدّق فيقال له: من هذا؟ والله أعلم. فيقول: محمد، فيقال: افتحوا له فإذا فتح الباب استقبل ربّه فخرّ ساجداً فلا يرفع رأسه حتى يقال له: تكلّم وسل تُعط واشفع تشفّع. فيرفع رأسه فيستقبل ربّه فيخرّ ساجداً فيقال له مثلها، فيرفع رأسه حتى أنه ليشفع لمن قد أحرق بالنار، فما أحد من الناس يوم القيامة في جميع الأمم أوجه من محمد صلى الله عليه وآله، وهو قول الله تعالى: ﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾.[٢]

• وأخرج الترمذي وحسنه وابن جرير وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه [وآله]

---

(١) الدر المنثور في التفسير المأثور: ج ٥ ص ٣٢٥.

(٢) **تفسير العياشي**: تأليف: الشيخ أبي النضر محمد بن مسعود العياشي، المتوفى ٣٢٠هـ: ج ٣ص ٧٨، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة / قم، الحديث: ٢٥٩٣.

وسلم: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ - آدم فمن سواه - إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشقّ عنه الأرض ولا فخر. فيفزع الناس ثلاث فزعات فيأتون آدم عليه السلام فيقولون: أنت أبونا فاشفع لنا إلى ربك، فيقول: إني أذنبت ذنباً أهبطت منه إلى الأرض، ولكن ائتوا نوحاً، فيأتون نوحاً فيقول: اني دعوت على أهل الأرض دعوة فاهلكوا، ولكن اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقول: ائتوا موسى، فيأتون موسى عليه الصلاة والسلام فيقول: إني قتلت نفساً ولكن ائتوا عيسى، فيأتون عيسى عليه السلام فيقول: إني عُبدت من دون الله ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه [وآله] وسلم.

فيأتون فأنطلق معهم فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها، فيقال: من هذا؟ فأقول: محمد، فيفتحون لي ويقولون: مرحباً. فأخرّ ساجداً، فيلهمني الله عزّ وجلّ من الثناء والحمد والمجد فيقال: ارفع رأسك... سل تُعطَ واشفع تشفّع وقل يُسمع لقولك، فهو المقام المحمود الذي قال الله ﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾»(١).

شفاعته صلى الله عليه وآله لا تختصّ بأمّته

قد عرفتَ في سابق الأبحاث أن له صلى الله عليه وآله شفاعة في أمّته من أهل التوحيد، كقوله صلى الله عليه وآله: «**شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدّق قلبه لسانه ولسانه قلبه**»(٢). لكن هل

---

(١) الدر المنثور في التفسير المأثور: ج ٥ ص ٣٢٦.

(٢) **مسند أحمد**: ج ٢ ص ٣٠٧، ٥١٨، نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ج ٤ ص ٢٩٠.

تختص شفاعته صلى الله عليه وآله بذلك أم تشمل غير أمّته من الخلائق أجمعين من الأولين والآخرين؟

دلّت جملة من الروايات الواردة من طريق الفريقين عن النبيّ صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام، أنه ما من أحد إلا وينتفع بشفاعته صلى الله عليه وآله يوم القيامة.

• أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان من طريق علي بن حسين قال: أخبرني رجل من أهل العلم أن النبيّ صلى الله عليه [وآله] وسلم قال: «**تُمدّ الأرض يوم القيامة مدّ الأديم ولا يكون لبشر من بني آدم فيها إلا موضع قدمه، ثم ادعى أول الناس فأخرّ ساجداً ثم يؤذن لي فأقول: يا ربّ أخبرني هذا لجبريل وجبريل عن يمين الرحمن، وجبريل عليه السلام ساكت لا يتكلم حتى يقول الرب: صدقت..ثم يؤذن لي في الشفاعة فأقول: أي رب عبادك عبدوك في أطراف الأرض فذلك المقام المحمود**»(١).

• عن عبيد بن زرارة قال فسئل أبو عبد الله الصادق عليه السلام عن المؤمن هل له شفاعة؟ قال: نعم. فقال له رجل من القوم: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله؟ قال: **نعم إن للمؤمنين خطايا وذنوباً، وما من أحد إلا ويحتاج إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله يومئذ**»(٢).

---

(١) الدر المنثور في التفسير المأثور: ج ٥ ص ٣٢٥.

(٢) تفسير العياشي: ج ٣ ص ٧٨، الحديث: ٢٥٩٢.

• في تفسير القمي قال: حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار عن أبي العباس المكبّر قال: دخل مولى لامرأة علي بن الحسين عليه السلام على أبي جعفر الباقر عليه السلام يقال له: أبو أيمن، فقال: يا أبا جعفر تغرون الناس وتقولون: شفاعة محمد، شفاعة محمد، فغضب أبو جعفر عليه السلام حتى تربّد وجهه ثم قال: **ويحك ياأبا أيمن! أغرّك أن عفّ بطنك وفرجك، أما لو علمت أفزاع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله، ويلك فهل يشفع إلا لمن وجبت له النار؟**

ثم قال عليه السلام: **ما من أحد من الأولين والآخرين إلا وهو محتاج إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله.** (١)

وهذا المعنى وهو قوله عليه السلام: **ما من أحد من الأولين والآخرين إلا وهو محتاج إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله**، لعله يمكن استفادته أيضاً من وجه قرآني؛ توضيحه: من الحقائق القرآنية التي تكرر ذكرها في كلامه عزّ وجلّ أنه يبعث في يوم القيامة في كلّ أمّة شهيداً عليهم؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (النحل: ٨٤) وقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (النحل: ٨٩) وهؤلاء هم شهداء الأعمال الذين تحمّلوا حقائق أعمال أمتهم في الدنيا وهم يستشهد بهم ويشهدون عليهم يوم القيامة.

وهذه الشهادة وإن كانت يوم القيامة لكن تحمّلها في الدنيا على ما

---

(١) **تفسير القمي**: ج ٢ ص ٢٠٢.

يعطيه قوله سبحانه حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿ما قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ ما أَمَرْتَني بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَني كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: ١١٧) حيث أشارت إلى أن من أهمّ وظائفه عليه السلام هي تحمل الشهادة في هذه النشأة لأدائها في النشأة الأخرى ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ (النساء: ١٥٩).

«ومن الواضح أن هذه الحواس العادية التي فينا والقوى المتعلقة بها منّا لا تتحمّل إلا صور الأفعال والأعمال فقط، وذلك التحمّل أيضاً إنما يكون في شيء يكون موجوداً حاضراً عند الحس لا معدوماً ولا غائباً عنه، وأما حقائق الأعمال والمعاني النفسانية من الكفر والإيمان والفوز والخسران، وبالجملة كلّ خفيّ عن الحس ومستبطن عند الإنسان - وهي التي تكسب القلوب وعليه يدور حساب رب العالمين يوم تبلى السرائر كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢٥) - فهي مما ليس في وسع الإنسان إحصاؤها والإحاطة بها وتشخيصها من الحاضرين فضلاً عن الغائبين إلا رجل يتولّى الله أمره ويكشف ذلك له بيده»[1].

وعلى هذا فمن الواجب أن يكون هذا الشهيد ذا عصمة إلهية يمتنع عليه الكذب والجزاف، وأن يكون عالماً بحقائق الأعمال التي يشهد عليها لا بظاهر صورها وهيئاتها المحسوسة بل بحقيقة ما انعقدت عليه في القلوب وأن يستوي عنده الحاضر والغائب من

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ٣٢٠.

الناس.[١]

وكيفما كان فقد ربط القرآن الشفاعة للشفعاء بكونهم ممن يشهدون بالحقّ؛ قال تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦) حيث أفادت أن الملاك في الشفاعة هي الشهادة، فالشهداء هم الشفعاء المالكون للشفاعة.

فإذا ثبت أن النبيّ صلى الله عليه وآله هو الشهيد على الشهداء كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩) حيث أشارت إلى أنّ لكلّ أمّة شهيداً عليهم من أنفسهم، والمراد من الأمّة جماعة الناس من أهل عصر واحد يشهد أعمالهم شهيد واحد، ويكون المراد بالشهيد الإنسان المبعوث بالعصمة والمشاهدة أي تكون شهادته عن معاينة كما هو ظاهر لفظ الشهيد وظاهر تقييده بقوله ﴿من أنفسهم﴾ في قوله ﴿شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ إذ لولا المشاهدة لم يكن لكونه من أنفسهم وقع، ولا لتعدد الشهداء بتعدّد الأمم وجه، فلكلّ قوم شهيد من أنفسهم سواء كان نبياً لهم أو غير نبيهم فلا ملازمة كما يؤيده قوله: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ﴾ (الزمر: ٦٩).

وعلى هذا يكون المراد بهؤلاء في قوله: ﴿وَجِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ﴾ الشهداء دون ما استظهره البعض وهم أمّته، فالشهداء شهداء

---

(١) **عصمة الأنبياء في القرآن**: ص ١٧٨.

على أممهم والنبيّ صلى الله عليه وآله شهيد على الشهداء.

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام في حديث يصف فيه يوم القيامة: «**يجتمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلائق فلا يتكلم أحد إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، فيقام الرسول فيسأل، فذلك قوله لمحمد:** ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ **وهو الشهيد على الشهداء، والشهداء هم الرسل**»[1]. وظاهر الشهادة على الشهادة تعديله دون الشهادة على عمله، فهو صلى الله عليه وآله شهيد على مقامهم لا على أعمالهم، ولذلك لم يكن من الواجب أن يعاصرهم ويتّحد بهم زماناً.

وفي ضوء هذه الحقيقة القرآنية يتّضح المراد من الأمّة في قوله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاس﴾ (البقرة: ١٤٣) حيث إنها جعلت الأمّة شاهدة على الناس، وقد عرفت أن الشهادة إنما هي بتحمّل حقائق أعمال الناس في الدنيا من سعادة أو شقاء وانقياد أو تمرّد، وأداء ذلك في الآخرة يوم يستشهد الله من كلّ شيء كالملائكة والزمان والمكان والدين والكتاب والجوارح والحواس ونحوها.

ومن المعلوم أن هذه الكرامة ليست تنالها جميع الأمّة؛ إذ ليست إلا كرامة خاصّة للأولياء الطاهرين منهم، لذا قرن الله تعالى الشهداء بالأنبياء والصدّيقين في قوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ

(١) **تفسير العياشي** نقلاً عن: **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ٣٣٢.

وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء: ٦٩) وأما من دونهم من المتوسّطين في السعادة والعدول من أهل الإيمان فليس لهم ذلك فضلاً عن الفراعنة والطواغيت من الأمّة. وهذا ما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في هذه الآية حيث قال لأبي عمرو الزبيري: «**فإن ظننت أن الله عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحّدين، أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟ كلا لم يعن الله مثل هذا من خلقه، يعني الأمّة التي وجبت لها دعوة إبراهيم عليه السلام:** ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠) **وهم الأمّة الوسطى وهم خير أمّة أخرجت للناس**»[(١)].

وعلى هذا يكون المراد بكون الأمّة شهيدة، أن هذه الشهادة فيهم كما أن المراد بكون بني إسرائيل فضّلوا على العالمين أن هذه الفضيلة فيهم من غير أن يتّصف به كلّ واحد منهم، بل نسب وصف البعض إلى الكلّ لكون البعض فيه ومنه، فكون الأمّة شهيدة هو أن فيهم من يشهد على الناس. وقد تضافرت الروايات أن هذا البعض هم أئمة أهل البيت عليهم السلام. عن بُريد بن معاوية العجلي عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قلت له: قوله: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ...﴾ قال: **نحن الأمّة الوسطى ونحن شهداء الله على خلقه وحجته في أرضه**»[(٢)]. وذلك لما ثبت من ضرورة

(١) **تفسير العياشي**: ج ١ ص ١٦١، الحديث: ٢١٩.

(٢) **تفسير العياشي**: ج ١ ص ١٦٠، الحديث: ٢١٥.

عصمة الشاهد على أعمال الخلائق يوم القيامة؛ قال الرازي: «إن كلّ جمع وقرن يحصل في الدنيا فلابدّ وأن يحصل فيهم واحد يكون شهيداً عليهم، أما الشهيد على الذين كانوا في عصر الرسول صلى الله عليه [وآله] وسلم فهو الرسول. وثبت أيضاً أنه لابدّ في كلّ زمان بعد زمان الرسول من الشهيد. فحصل من هذا أن عصراً من الأعصار لا يخلو من شهيد على الناس، وذلك الشهيد لابدّ وأن يكون غير جائز الخطأ وإلا لافتقر إلى شهيد آخر ويمتدّ ذلك إلى غير النهاية وذلك باطل»[1].

نعم هؤلاء الشهداء في هذه الأمّة يكون الرسول شهيداً عليهم؛ لقوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: ١٤٣) فإن ظاهر هذه الآية أن بين النبيّ صلى الله عليه وآله وبين الناس الذين هم عامّة من بُعث إليهم من زمانه إلى يوم القيامة شهداء يشهدون على أعمالهم، وأن الرسول إنما هو شهيد على هؤلاء الشهداء دون سائر الناس إلا بواسطتهم، فتكون حينئذ الأمّة التي بعث إليها النبيّ صلى الله عليه وآله منقسمة إلى أمم كثيرة.

عود على بدء

بعد أن ثبت:

- أن ملاك الشفاعة هي الشهادة.
- وأن الأنبياء شهداء على أممهم.

---

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٢٠ ص ٨٠.

• وأن النبيّ الأكرم هو الشهيد على الشهداء.

يثبت أن النبيّ صلى الله عليه وآله هو شفيع الشفعاء يوم القيامة.

غير أن هذه الشفاعة للشفعاء ليست هي التي أشار إليها الإمام عليه السلام بقوله: «**ويلك فهل يشفع إلا لمن وجبت له النار**» وإنما هي الشفاعة العامة التي لها مصاديق كثيرة.

قال الشيخ ابن عربي: «إنما كان صلى الله عليه [وآله] وسلم صاحب المقام المحمود في الشفاعة يوم القيامة بين يدي الله عزّ وجلّ، لأنه اُوتي جوامع الكلم، فيحمده في ذلك المقام الأولون والآخرون ويرجع إلى مقامه ذلك جميع مقامات الخلائق، وكما كانت بعثته صلى الله عليه [وآله] وسلم عامّة وشريعته جامعة لجميع الشرائع كانت شفاعته كذلك عامة، فكما لا يخرج عن شريعته عمل يصحّ أن يشرع كذا لا يصحّ أن يخرج عن شفاعته أحد»[١].

وقال التهانوي: «معلوم أن الشفاعة تنقسم إلى عدة أنواع، وكلّ أنواع الشفاعة ثابتة للرسول صلى الله عليه [وآله] وسلم، وبعضها خاصّ له وبعضها بالاشتراك. وأول من يفتح له باب الشفاعة هو رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم، فعليه تكون جميع أنواع الشفاعات راجعة إليه وهو صاحب الشفاعة على الإطلاق.

---

(١) **اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر**: ص ٦١٤.

ويمكن مراجعة هذا البحث في: **الفتوحات المكية**، محي الدين بن عربي: ج ١٢ ص ٣٩٣. تحقيق وتقديم: د. عثمان يحيى، تصدير ومراجعة: د. إبراهيم مدكور.

النوع الأول: الشفاعة العظمى وهي عامّة لجميع الخلائق، وهي خاصّة لنبيّنا وليس لأيّ نبي آخر الجرأة أو حقّ التقدّم إليها، وتلك الشفاعة من هول الموقف في العرصات، والتخفيف عن الخلائق بتعجيل الحساب والحكم، وتخليص الناس من محنة الموقف وشدائده.

والنوع الثاني: وهي تتعلّق بإدخال فريق من المؤمنين إلى الجنّة بغير حساب. وثبوت هذا النوع لنبيّنا صلى الله عليه [وآله] وسلم قد وردت به النصوص، وهو عند بعضهم خاصّ به وحده.

والنوع الثالث: وهي متعلّقة بأقوام تساوت حسناتهم وسيّئاتهم فيدخلون الجنّة بشفاعته صلى الله عليه [وآله] وسلم.

والنوع الرابع: وهي تتعلّق بفئة من الناس يستحقّون دخول النار ولكن بشفاعته صلى الله عليه [وآله] لهم يدخلون الجنة.

والنوع الخامس: تتعلّق برفع درجات وزيادة كرامات.

والنوع السادس: تتعلّق بأناس دخلوا جهنّم ثم يخرجون منها بالشفاعة، وهي مشتركة بين سائر الأنبياء والملائكة والعلماء والشهداء.

والنوع السابع: وتتعلّق باستفتاح الجنّة.

والنوع الثامن: وتتعلّق بتخفيف العذاب عن أولئك الذين يستحقّون العذاب الدائم في النار.

والنوع التاسع: وهي لزوّار قبره الشريف والمكثرين من الصلاة عليه صلى الله عليه وآله»[1].

---

(١) موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج ١ ص ١٠٣٤.

روايات أخرى في شفاعته صلى الله عليه وآله

عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال:

قالت فاطمة عليها السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا أبتاه أين ألقاك يوم الموقف الأعظم ويوم الأهوال ويوم الفزع الأكبر؟

قال: يا فاطمة عند باب الجنّة ومعي لواء الحمد وأنا الشفيع لأمّتي إلى ربّي.

قالت: يا أبتاه فإن لم ألقك هناك؟

قال: القيني على الحوض وأنا أسقي أُمّتي.

قالت: يا أبتاه إن لم ألقك هناك؟

قال: القيني على الصراط وأنا قائم أقول: ربي سلّم أُمّتي.

قالت: فإن لم ألقك هناك؟

قال: القيني وأنا عند الميزان أقول: ربّ سلّم أُمّتي.

قالت: فإن لم ألقك هناك؟

قال: القيني على شفير جهنّم أمنع شررها ولهبها عن أُمّتي.

فاستبشرت فاطمة سلام الله عليها بذلك.(١)

- عن الإمام أبي الحسن العسكري عن آبائه عليهم السلام قال:

---

(١) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبارالأئمة الأطهار: ج ٨ ص ٨ كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، الحديث: ٦.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله يقول: **إذا حشر الناس يوم القيامة ناداني مناد: يا رسول الله إن الله جلّ اسمه قد أمكنك من مجازاة محبّيك ومحبّي أهل بيتك الموالين لهم فيك والمعادين لهم فيك فكافهم بما شئت. فأقول: يا ربّ الجنّة فأبوّئهم منها حيث شئت، فذلك المقام المحمود الذي وعدت به»**[1].

• عن الإمام علي بن موسى الرضا عن آبائه عليهم السلام عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذرّيتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي في أُمورهم عندما اضطرّوا إليه، والمحبّ لهم بقلبه ولسانه»** [2].

• أخرج ابن مردويه عن طلق بن حبيب قال: كنت أشدّ الناس تكذيباً بالشفاعة حتى لقيت جابر بن عبد الله فقرأت عليه كلّ آية أقدر عليها يذكر الله فيها خلود أهل النار، فقال: يا طلق أتراك أقرأ لكتاب الله وأعلم لسنّة رسول الله منّي؟ إن الذين قرأت هم أهلها هم المشركون ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوباً فعذّبوا ثم أخرجوا منها، ثم أهوى بيديه إلى أُذنيه فقال: صمّتا إن لم أكن سمعت رسول الله يقول: «**يخرجون من النار بعدما دخلوا**» ونحن نقرأ كما قرأت. [3]

---

(١) **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٣٩، باب الشفاعة، الحديث: ٢٠.

(٢) **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٤٩، باب الشفاعة: الحديث: ٥٣.

(٣) **مفاهيم القرآن**: ج ٤ ص ٢٩٧، الحديث: ٥٠.

تلخيص

الروايات الدالّة على وقوع شفاعة النبيّ صلى الله عليه وآله يوم القيامة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام «وكذا من طرق أهل السنة بالغة حدّ التواتر، وهي من حيث المجموع إنما تدلّ على معنىً واحد وهو الشفاعة على المذنبين من أهل الإيمان إما بالتخليص من دخول النار وإما بالإخراج منها بعد الدخول فيها. والمتيقن منها عدم خلود المذنبين من أهل الإيمان في النار، وقد عرفت أن القرآن أيضاً لا يدلّ على أزيد من ذلك»[1].

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١ ص ١٨٣.

٣ . شفاعة القرآن الكريم

• قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**تعلّموا القرآن فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة**»[(١)].

• وقال رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربّي منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعّني فيه. ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعّني فيه، قال فيشفعان**»[(٢)].

• عن أبي هريرة قال: قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**الشفعاء خمسة: القرآن، والرحم، والأمانة، ونبيّكم، وأهل بيت نبيّكم**»[(٣)].

• وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام في كلام يصف فيه القرآن: «**واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ، والهادي الذي لا يُضلّ، والمحدِّث الذي لا يكذّب، وما جالس هذا القرآن أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى أو نقصان من عمى.**

واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن

---

(١) **مسند أحمد**: ج ٥ ص ٢٥١ نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ج ٤ ص ٢٩٦.

(٢) **مسند أحمد**: ج ٢ ص ١٧٤ نقلاً عن **مفاهيم القرآن**: ج ٤ ص ٢٩٦.

(٣) **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٤٣، باب الشفاعة، الحديث: ٣٩.

من غنى، فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائِكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغيّ والضلال. فأسألوا الله به وتوجّهوا إليه بحبّه، ولا تسألوا به خلْقه، إنه ما توجّه العباد إلى الله بمثله.

واعلموا أنه شافع مشفّع وقائل مصدّق، وأنه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفّع فيه، ومن مَحَلَ به القرآن يوم القيامة صُدّق عليه، فإنه ينادي منادٍ يوم القيامة: ألا إنّ كلّ حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله غير حرثة القرآن. فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلّوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتّهموا عليه آرائكم، واستغشوا فيه أهواءكم»[١].

محلّ الشاهد في هذا النص العلويّ قوله عليه السلام: «**واعلموا أنه شافع مشفّع وقائل مصدّق**» أي يشفع لقرّائه والعاملين به الحاملين له يوم القيامة، فيقبل شفاعته في حقّهم، ويقول ويشهد في حقّ هؤلاء بخير، وفي حقّ التاركين له والنابذين به وراء ظهورهم بشرّ فيصدّق فيهما، كما أشار إليه «**وإنه من شفع له القرآن يوم القيامة شفّع فيه**» أي قبلت شفاعته «**ومن مَحَل به القرآن**» أي سعى به إلى الله وقال في حقّه قولاً يضرّه ويوقعه في المكروه «**يوم القيامة صدّق عليه**».

قال ابن ميثم البحراني: «استعار عليه السلام لفظي الشافع والمشفّع، وجه الاستعارة كون تدبّره والعمل بما فيه ماحياً لما يعرض للنفس من الهيئات الرديّة من المعاصي، وذلك مستلزم لمحو غضب الله كما يمحو الشفيع المشفّع أثر الذنب عن قلب المشفوع إليه، وكذلك لفظ القائل المصدّق، ووجه الاستعارة كونه ذا ألفاظ إذا نطق

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة: ١٧٦.

بها لا يمكن تكذيبها كالقائل المصدّق، ثم أعاد معنى كونه شافعاً مشفّعاً يوم القيامة، ثم استعار لفظ المَحَل للقرآن، ووجه الاستعارة أن لسان حال القرآن شاهد في علم الله وحضرة ربوبيّته على من أعرض عنه بعدم اتباعه ومخالفته لما اشتمل عليه، وتلك شهادة لا يجوز عليها الكذب فبالواجب أن يصدّق، فأشبه الساعي إلى السلطان في حقّ غيره بما يضرّه»(١).

«والإنصاف أن حمل الكلام على المجاز مع التمكّن من إرادة الحقيقة لا معنى له، والحمل على الحقيقة هنا ممكن بل متعيّن؛ لدلالة غير واحد من الروايات على أنه (أي القرآن) يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليها الخلق ويشفع في حقّ قرّائه العالمين ويسعى في حقّ المعرضين عنه، وعلى هذا فلا وجه لحمل لفظ الشفاعة والقول والمحل على معناها المجازي»(٢).

وقد أشارت جملة من الروايات إلى هذه الحقيقة:

• عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**تعلّموا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة صاحبه في صورة شابّ جميل فيقول له: أنا الذي أسهرت ليلك وأظمأت هواجرك**

---

(١) **شرح نهج البلاغة**، لكمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني: ج ٢ ص ٣٥٦، عُني بتصحيحه عدة من الأفاضل وقوبل بعدّة نسخ موثوق بها.

(٢) **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، لمؤلفه العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي «قدس سره»: ج ١٠ ص ١٩٩، منشورات دار الهجرة، إيران - قم، الطبعة الرابعة.

وأجففت ريتك وأسلت دمعتك، أؤول معك حيثما أُلت وكلّ تاجر مـن وراء تجارته وأنا اليوم لك من وراء تجارة كلّ تاجر وسيأتيك كرامة من الله عزّ وجلّ فأبشر، فيؤتى بتاج فيوضع على رأسه ويعطى الأمان بيمينه والخُلـد في الجنان بيساره ويكسى حلّتين، ثم يقال له: اقرأ وارقـه فكلّمـا قـرأ آيـة صعد درجة، ويكسى أبواه حلَّتين إن كانا مؤمنين، ثم يقال لهمـا: هـذا لمـا علّمتماه القرآن»[1].

• عن سعد الخفّاف عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه الـسلام قـال: يا سعد تعلّموا القرآن، فإن القرآن يأتي يـوم القيامـة فـي أحـسن صـورة نظر إليها الخلق والناس صفوف... فيأتي على صفّ المسلمين فـي صـورة رجل فيسلّم فينظرون إليه ثم يقولون: لا إله إلا الله الحلـيم الكـريم إن هـذا الرجل من المسلمين، نعرفه بنعته وصفته غير أنه كان أشـد اجتهـاداً منّـا في القرآن فمن هناك أُعطي من البهاء والجمال والنـور مـا لـم نعطـه. ثـم يجاوز حتى يأتي على صفّ الشهداء فينظرون إليه ثـم يقولـون: لا إلـه إلا الله الربّ الرحيم إن هذا الرجل من الشهداء نعرفه بسمته وصفته.

قال: ثم يجاوز حتى يأتي صفّ النبيّين والمرسلين فـي صـورة نبـي مرسل، فينظر النبيّون والمرسلون إليه فيشتدّ لـذلك تعجـبّهم ويقولـون: لا إله إلا الله الحليم الكريم إن هذا لنبي مرسل نعرفه بسمته وصفته غير أنـه أعطي فضلاً كثيـراً، فيجتمعـون فيـأتون رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه فيـسألونه ويقولـون: يـا محمـد مـن هـذا؟ فيقـول لهـم: أو مـا تعرفونـه؟

---

(١) الأصول من الكافي: ج ٢ ص ٦٠٣، كتاب فضل القرآن، باب فضل حامل القرآن، الحديث: ٣.

فيقولون: ما نعرفه، هذا ممن لم يغضب الله عليه، فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله: هذا حجّة الله على خلقه فيسلّم.

ثم يجاوز حتى يأتي على صفّ الملائكة في صورة ملك مقرّب، فتنظر إليه الملائكة فيشتدّ تعجبّهم ويكبر ذلك عليهم لما رأوا من فضله ويقولون: تعالى ربّنا وتقدّس إن هذا العبد من الملائكة نعرفه بسمته وصفته غير أنه كان أقرب الملائكة إلى الله عزّ وجلّ مقاماً، فمن هناك أُلبس من النور والجمال ما لم نلبس.

ثم يجاوز حتى يأتي إلى رب العزّة تبارك وتعالى فيخرّ تحت العرش فيناديه تبارك وتعالى: يا حجّتي في الأرض وكلامي الصادق الناطق ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفّع، فيرفع رأسه فيقول الله تبارك وتعالى: كيف رأيت عبادي؟

فيقول: يا ربّ منهم من صانني وحافظ عليّ ولم يضيّع شيئاً، ومنهم من ضيّعني واستخفّ بحقي وكذّب بي وأنا حجّتك على جميع خلقك. فيقول الله تبارك وتعالى: وعزّتي وجلالي وارتفاع مكاني لأثيبنّ عليك اليوم أحسن الثواب ولأعاقبنّ عليك اليوم أليم العقاب.

ثم يأتي الرجل من شيعتنا الذي كان يعرفه ويجادل به أهل الخلاف فيقوم بين يديه فيقول: ما تعرفني؟ فينظر إليه الرجل فيقول: ما أعرفك يا عبد الله. قال: فيرجع في صورته التي كانت في الخلق الأول ويقول: ما تعرفني؟ فيقول: نعم. فيقول القرآن: أنا الذي أسهرتُ ليلك وأنصبت عيشك، سمعت الأذى وزحمت بالقول فيّ، ألا وإن كلّ تاجر قد استوفى تجارته وأنا وراءك اليوم.

قال: فينطلق به إلى رب العزّة تبارك وتعالى فيقول: يا ربّ يا ربّ عبدك وأنت أعلم به قد كان نصباً بيّ مواظباً عليّ، يعادي بسببي ويحبّ فيّ ويبغض. فيقول الله عزّ وجلّ: ادخلوا عبدي جنّتي واكسوه حلّة من حلل الجنّة وتوّجوه بتاج، فإذا فعل به ذلك عرض على القرآن فيقال له: هل رضيت بما صُنع بوليك؟ فيقول: يا ربّ إني أستقلّ هذا له فزده مزيد الخير كلّه. فيقول: وعزّتي وجلالي وعلّوي وارتفاع مكاني لأنحلنّ له اليوم خمسة أشياء مع المزيد له ولمن كان بمنزلته. ألا أنهم شباب لا يهرمون، وأصحّاء لا يسقمون، وأغنياء لا يفتقرون، وفرحون لا يحزنون، وأحياء لا يموتون، ثم تلا هذه الآية: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إلاَّ المَوْتَةَ الأُولى﴾ (الدخان:٥٦).

قال: قلت: جُعلت فداك يا أبا جعفر، وهل يتكلّم القرآن، فتبسّم ثم قال: نعم يا سعد والصلاة تتكلّم...»[١].

وهذا المعنى الذي ذكرته الرواية في القرآن وأنه يتكلّم ينسجم مع نظرية تجسّم الأعمال.

نظرية تجسّم الأعمال

آمن جملة من المحقّقين أن كلّ قول أو فعل ما دام وجوده في النشأة المادّية الدنيوية فإنه لا حظّ له من الثبات، لأن الدنيا دار التجدّد والزوال، ولكنه يحصل منه أثر في النفس، فإذا تكرّر استحكم الأثر فصار ملكة راسخة. مثاله الحرارة التي تحدث في الفحم فإنها ضعيفة أولاً وإذا اشتدّت تجمّرت ثم استضاءت ثم صارت صورة نارية محرقة

(١) الأصول من الكافي: ج ٢ ص ٥٩٦، كتاب فضل القرآن، الحديث: ١.

لما قارنها مضيئة لما قابلها. وكذلك الأحوال النفسانية إذا تضاعف قوّتها صارت ملكات راسخة وصوراً باطنة تكون مبادئ للآثار المختصة بها. فالنفوس الإنسانية في أوائل الفطرة كصحائف خالية من النقوش والصور تقبل كلّ خلق بسهولة، وإذا استحكمت فيها الأخلاق تعسّر قبولها لأضدادها، ولذلك سهل تعليم الأطفال وتأديبهم وتنقيش نفسهم بكلّ صورة وصفة، ويتعسّر أو يتعذّر تعليم الرجال البالغين وردّهم عن الصفات الحاصلة لهم؛ لاستحكامها ورسوخها.

ثم لا خلاف في أن هذه الملكات وأفعالها اللازمة لها إن كانت فاضلة كانت موجبة للالتذاذ والبهجة وموافقة الملائكة والأخيار، وإن كانت رديّة كانت مقتضية للألم والعذاب ومصاحبة الشياطين والأشرار، وإنما الخلاف في كيفية إيجابها للثواب أو العذاب.

• فمن قال إن الجزاء مغاير للعمل قال: إن كلّ ملكة وفعل يصير منشأً لترتّب ثواب أو عقاب مغاير له بفعل الله سبحانه؛ على التفصيل الوارد في الشريعة.

• ومن قال إن العمل نفس الجزاء قال: إن الهيئات النفسانية اشتدّت وصارت ملكة تصير متمثّلة ومتصوّرة في عالم الباطن والملكوت بصورة يناسبها، إذ كلّ شيء يظهر في كلّ عالم بصورة خاصّة، فإن العلم في عالم اليقظة أمر عَرَضي يدرك بالعقل أو الوهم، وفي عالم النوم يظهر بصورة اللبن، فالظاهر في العالمين شيء واحد وهو العلم لكنه تجلّى في كلّ عالم بصورة، والسرور يظهر في عالم النوم بصورة البكاء.

ومنه يظهر أنه قد يسرّك في عالم ما يسوءك في عالم آخر،

فاللذات الجسمانية التي تسرّك في هذا العالم تظهر في دار الجزاء بصورة تسوءك وتؤذيك، وتركها وتحمّل مشاقّ العبادات والطاعات والصبر على المصائب والبليّات يسرّك في عالم الآخرة مع كونها مؤذية في هذا العالم.

ثم القائل بهذا المذهب قد يطلق على هذه الصورة اسم الملَك إن كانت من فضائل الأخلاق أو فواضل الأعمال، واسم الشيطان إن كانت من أضدادها، وقد يطلق على الأولى اسم الغلمان والحور وأمثالهما وعلى الثانية اسم الحيّات والعقارب وأشباههما، ولا فرق بين الإطلاقين في المعنى وإنما الاختلاف في الاسم.

وهذا المذهب يرجع إلى القول بتجسّد الأعمال وتجسّمها بصورة مأنوسة مفرّحة أو صورة موحشة معذّبة، وقد وردت آيات وروايات كثيرة في ذلك:

فمن الآيات، قوله تعالى: ﴿لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التحريم: ٧) وقوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨١) حيث قال عزّ وجلّ: ﴿مَا كُنْتُم﴾ و﴿مَا كَسَبَتْ﴾ ولم يقل بما كنتم، وهذا معناه: إنّ ما تجزونه هو نفس ما كنتم تعملون، أي أن العذاب الذي تعذّبون به هو نفس عملكم السيّئ الذي عملتموه وقد برز لكم اليوم حقيقته. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (الكهف: ٤٩) ومثله قوله عزّوجلّ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ

مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ (آل عمران: ٣٠) فالحاضر عندهمٍ نفس الأعمال بصورها المناسبة لها لا كتابتها.

ولعمري لو لم يكن في كتاب الله تعالى إلا قوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢) لكان فيه كفاية حيث يتبيّن من الآية:

أولاً: إن معرّف يوم القيامة أنه يوم ينكشف فيه غطاء الغفلة عن الإنسان فيشاهد حقيقة الأمر مشاهدة عيان لا علماً فكرياً.

وثانياً: إن ما يشاهده الإنسان يوم القيامة موجود مهيّأ له وهو في الدنيا، غير أنه في غفلة منه بسبب تعلّق الإنسان وهو في هذه النشأة بالأسباب الظاهرية وركونه إليها، وخاصّةُ يوم القيامة أنه يوم انكشاف الغطاء ومعاينة ما وراءه، ومن الواضح أن الغفلة لا تكون إلا عن معلوم حاضر، وكشف الغطاء لا يستقيم إلا عن مغطّى موجود، فلو لم يكن ما يشاهده الإنسان يوم القيامة موجوداً حاضراً من قبل لما كان يصحّ أن يقال للإنسان إن هذه أمور كانت مغفولة لك مستورة عنك، فهي اليوم مكشوف عنها الغطاء مزالة منها الغفلة.

«لذا خاطبت الآية الإنسان بقوله: ﴿لقد كنت﴾ في الدنيا ﴿في غفلة﴾ أحاطت بك ﴿من هذا﴾ الذي تشاهده وتعاينه وإن كان في الدنيا نصب عينيك لا يغيب، لكن تعلّقك بذيل الأسباب أذهلك وأغفلك عنه ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ اليوم ﴿فبصرك﴾ وهو البصيرة وعين القلب ﴿اليوم﴾ وهو يوم القيامة ﴿حديد﴾ أي نافذ يبصر ما لم

يكن يبصره في الدنيا»[١].

وبذلك يتّضح حقيقة الكتاب الذي يخرج للإنسان يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ (الإسراء: ١٣ - ١٤) حيث دلّت الآية على:

أولاً: «إن الكتاب الذي يخرج له هو كتاب نفسه لا يتعلق بغيره.

وثانياً: إن هذا الكتاب متضمّن لحقائق أعماله التي عملها في الدنيا من غير أن يفقد منها شيئاً كما في قوله ﴿وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلاَّ أَحْصاها﴾ (الكهف: ٤٩).

وثالثاً: إن الأعمال التي أحصاها بادية فيها بحقائقها من سعادة أو شقاء، ظاهرة بنتائجها من خير أو شرّ ظهوراً لا يستتر بستر ولا يقطع بعذر.

وقد عرفت من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ (آل عمران: ٣٠) أن الكتاب يتضمّن نفسَ الأعمال بحقائقها دون الرسوم المخطوطة على حدّ الكتب المعمولة فيما بيننا في الدنيا، فهي نفس الأعمال يطلع الله الإنسان عليها عياناً ولا حجة كالعيان»[٢].

وأما الروايات فهي كثيرة:

منها: ما روى أصحابنا عن قيس بن عاصم عن النبيّ صلى الله عليه

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١٨ ص ٣٥٠.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١٣ ص ٥٥.

وآله أنه قال: «يا قيس، إن مع العزّ ذُلاً، ومع الحياة موتاً، ومع الدنيا آخرة، وإن لكلّ شيء رقيباً وعلى كلّ شيء حسيباً، وإن لكلّ أجل كتاباً وإنه لابدّ لك من قرين يدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك وإن كان لئيماً ألأمك، ثم لا يحشر إلا معك ولا تحشر إلا معه ولا تسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً، فإن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلا منه، وهو فعلك»(١).

ومنها: في المحاسن عن أبي بصير عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ست صور، فيهنّ صورة أحسنهن وجهاً وأبهاهنّ هيئة وأطيبهنّ ريحاً وأنظفهنّ صورة. قال: فتقف صورة عن يمينه وأخرى عن يساره وأخرى بين يديه وأخرى خلفه وأخرى عند رجله، وتقف التي هي أحسنهن فوق رأسه. فإن أتي عن يمينه منعته التي عن يمينه ثم كذلك إلى أن يؤتى من الجهات الست.

قال: فتقول أحسنهن صورة: ومن أنتم جزاكم الله عنّي خيراً، فتقول التي عن يمين العبد: أنا الصلاة، وتقول التي عن يساره: أنا الزكاة، وتقول التي بين يديه: أنا الصيام، وتقول التي خلفه: أنا الحج والعمرة، وتقول التي عند رجليه: أنا برٌّ من وصلت من إخوانك. ثم يقلن: من أنت فأنت أحسننا وجهاً وأطيبنا ريحاً وأبهانا هيئة، فتقول: أنا الولاية لآل محمد صلوات الله عليهم أجمعين»(٢).

---

(١) جامع السعادات: ج ١ ص ٤٩.

(٢) تسلية الفؤاد في بيان الموت والمعاد، تأليف: السيد عبد الله شبر: ص ٩٣، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، الشيخ رضا أستادي، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، سنة١٣٩٣.

٤ . شفاعة أهل البيت عليهم السلام

تضافرت الروايات الواردة في المقام لإثبات الشفاعة لأئمة أهل البيت عليهم السلام، وبالخصوص للإمام علي أمير المؤمنين وبضعة المصطفى الزهراء البتول عليها السلام.

• عن أبي بصير عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فتغشاهم ظلمة شديدة فيضجّون إلى ربّهم ويقولون: يا ربّ اكشف عنّا هذه الظلمة، قال: فيقبل قوم يمشي النور بين أيديهم قد أضاء أرض القيامة، فيقول أهل الجمع: هؤلاء أنبياء الله. فيجيئهم النداء من عند الله: ما هؤلاء بأنبياء، فيقول أهل الجمع: فهؤلاء ملائكة. فيجيئهم النداء من عند الله: ما هؤلاء بملائكة، فيقول أهل الجمع: هؤلاء شهداء. فيجيئهم النداء من عند الله: ما هؤلاء بشهداء. فيقولون: من هم؟

فيجيئهم النداء: يا أهل الجمع، سلوهم: من أنتم؟ فيقول الجمع: من أنتم؟ فيقولون: نحن العلويون، نحن ذرّية محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، نحن أولاد عليّ وليّ الله، نحن المخصوصون بكرامة الله، نحن الآمنون المطمئنون. فيجيئهم النداء من عند الله عزّ وجلّ: اشفعوا في

محبّيكم وأهل مودّتكم وشيعتكم، فيشفعون فيشفّعون.[١]

• وعن معاوية بن وهب قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿لا يَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً﴾ قال: نحن والله المأذون لهم في ذلك اليوم والقائلون صواباً. قلت: جعلت فداك وما تقولون؟ قال: نمجّد ربنا ونصلّي على نبينا ونشفع لشيعتنا، فلا يردّنا ربّنا.[٢]

• وعن محمد بن الفضيل الزرقي عن الإمام أبي عبد الله الصادق عن أبيه عن جدّه عن علي عليهم السلام قال: إن للجنّة ثمانية أبواب، باب يدخل منه النبيّون والصدّيقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبّونا، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: ربّ سلّم شيعتي ومحبّي وأنصاري ومن تولاّني في دار الدنيا، فإذا النداء من بُطنان العرش: قد أجيبت دعوتك وشفّعت في شيعتك... وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن شهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرّة من بغضنا أهل البيت.[٣]

• وعن محمد بن مسلم قال: سمعت الإمام الباقر عليه السلام يقول: لفاطمة وقفة على باب جهنم، فإذا كان يوم القيامة كتب بين عيني كلّ رجل: مؤمن أو كافر، فيؤمر بمحبّ قد كثرت ذنوبه إلى النار فتقرأ بين عينيه محبّاً فتقول: إلهي وسيدي سمّيتني فاطمة وفطمت بي من تولاّني

---

(١) **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٣٦، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، الحديث: ١٠.

(٢) **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٤١، الحديث: ٢٨.

(٣) **الخصال** للشيخ الصدوق: ص٤٠٨، باب الثمانية الحديث: ٦.

وتولّى ذريتي من النار، ووعدك الحقّ وأنت لا تخلف الميعاد. فيقول الله عزّ وجلّ: صدقتِ يا فاطمة إني سمّيتك فاطمة وفطمت بك من أحبّك وتولاّك وأحبّ ذريتك من النار، ووعدي الحقّ وأنا لا أخلف الميعاد، وإنما أمرت بعبدي هذا إلى النار لتشفعي فيه فأشفّعك ليتبيّن لملائكتي وأنبيائي ورسلي وأهل الموقف موقفك مني ومكانتك عندي. فمن قرأتِ بين عينيه مؤمناً فجذبت بيده وأدخلته الجنّة.[1]

وقوله عليه السلام: «سمّيتني فاطمة وفطمت بي...» إشارة إلى ما ورد في روايات عديدة أن سبب هذه التسمية أن الله عزّ وجلّ فطم من أحبّها من النار. فعن الإمام الرضا عن آبائه عن علي عليهم السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **إني سمّيت فاطمة لأن الله فطمها وذرّيتها من النار من لقي منهم بالتوحيد والإيمان بما جئت به.**[2]

---

(١) **علل الشرائع**: ج ١ ص ١٧٩، الحديث: ٦.

(٢) **أمالي الشيخ الطوسي**، تأليف: شيخ الطائفة جعفر بن محمد بن الحسن الطوسي: ج ٢ ص ١٨٣، منشورات مكتبة الداوري، قم – إيران.

٥ . شفعاء آخرون

بالإضافة إلى من تقدّم ذكرهم من الأنبياء وخصوصاً خاتمهم وسيّدهم، والقرآن وأئمة أهل البيت عليهم السلام الذين ثبتت لهم شفاعة عامة، ذكرت الروايات الواردة عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت آخرين يشفعون يوم القيامة أيضاً إلا أن دائرة شفاعتهم محدودة:

• فمنهم: العلماء العاملون بعلمهم المنفقون له؛ عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: **إذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد، فإذا وقفا بين يدي الله عزّ وجلّ قيل للعابد: انطلق إلى الجنّة، وقيل للعالم: قف تشفّع للناس بحسن تأديبك لهم.**(١)

• ومنهم: الشهداء؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يشفع الشهيد في سبعين إنساناً من أهل بيته**»(٢). وقال علي عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **ثلاثة يشفعون إلى الله عزّ وجلّ**

---

(١) **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٥٦، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، الحديث: ٦٦.

(٢) **سنن أبي داود**: ج ٢ ص ١٥، و**سنن الترمذي**: ج ٣ ص ١٠٦ نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ج ٤ ص ٢٩٣.

فيشفّعون: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء[١].

والظاهر أن المراد بالشهيد والشهداء في الروايات هم شهداء معركة القتال كما هو المعروف في لسان الأئمة في الأخبار، لا شهداء الأعمال كما هو مصطلح القرآن.

• ومنهم: متعلّم القرآن والعامل به؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **من تعلّم القرآن** (من قرأ القرآن) **فاستظهره فأحلّ حلاله وحرّم حرامه أدخله الله به الجنّة وشفّعه في عشرة من أهل بيته كلّهم قد وجبت له النار.**[٢]

• ومنهم: المؤمن؛ قال الإمام الباقر عليه السلام: «**... وإن أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع لثلاثين إنساناً، فعند ذلك يقول أهل النار:** ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾»[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن المؤمن ليشفع يوم القيامة لأهل بيته فيشفّع فيهم حتى يبقى خادمه فيقول** - فيرفع سبّابتيه - **يا ربّ خويدمي كان يقيني الحرّ والبرد، فيشفّع فيه**[٤].

وعن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قال: **شيعتنا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحجّون البيت الحرام ويصومون شهر رمضان**

---

(١) **الخصال** للشيخ الصدوق: ج ١ ص١٥٦، باب الثلاثة، الحديث: ١٩٧.

(٢) **سنن الترمذي**: ج ٤ ص ٢٤٥، و**سنن ابن ماجة**: ج ١ ص ٧٨ نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ج ٤ ص ٢٩٣.

(٣) **الفروع من الكافي**: ج ٨ ص ١٠١، حديث أبي بصير مع المرأة، الحديث: ٧٢.

(٤) **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٦١، باب الشفاعة، الحديث: ٨٦ .

ويوالون أهل البيت ويتبرأون من أعدائهم، وإن أحدهم ليشفع في مثل ربيعة ومضر فيشفّعه الله فيهم لكرامته على الله عزّ وجلّ[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: المؤمن مؤمنان: مؤمن وفى الله بشروطه التي اشترطها عليه، فذلك مع النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وذلك ممن يشفع ولا يشفع له، وذلك ممن لا يصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة. ومؤمن زلّت به قدم فذلك كخامة الزرع كيفما كفأته الريح انكفأ،[٢] وذلك ممن يصيبه أهوال الدنيا وأهوال الآخرة ويشفع له وهو على خير[٣].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال: المؤمن مؤمنان، فمؤمن صدّق بعهد الله ووفى بشروطه وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣) فذلك الذي لا تصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة، وذلك ممن يشفع ولا يشفع له، ومؤمن كخامة الزرع تعوجّ أحياناً وتقوم أحياناً، فذلك ممن تصيبه أهوال الدنيا وأهوال الآخرة، وذلك ممن يُشفع له ولا يشفع[٤].

---

(١) صفات الشيعة للشيخ الصدوق: ص ١٦٤، الحديث: ٥ نقلاً عن: مفاهيم القرآن: ج٤ ص ٣١٠.

(٢) قال في الصحاح: الخامة: الغضّة الرطبة من النبات، ويقال: كفأت فلاناً فانكفأ أي صرفته فانصرف ورجع.

(٣) الأصول من الكافي: ج٢ ص٢٤٨، كتاب الإيمان والكفر، باب في أن المؤمن صنفان، الحديث: ٢.

(٤) الأصول من الكافي: ج٢ ص٢٤٨، الحديث: ١.

صفات المؤمن

ذكرت الأخبار الكثيرة صفات المؤمن الذي له درجة الشفاعة لغيره من أهل العصيان:

• عن الإمام الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **ألا أنبئكم بالمؤمن؟ من ائتمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم، ألا أنبئكم بالمسلم؟ من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر السيّئات وترك ما حرّم الله. والمؤمن حرام على المؤمن أن يظلمه أو يغتابه أو يدفعه دفعة** (١).

• وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **من عرف الله وعظّمه منع فاه من الكلام وبطنه من الطعام وعفّى نفسه بالصيام والقيام.** قالوا: بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله، هؤلاء أولياء الله؟ قال: **إن أولياء الله سكتوا فكان سكوتهم ذكراً، ونظروا فكان نظرهم عبرة، ونطقوا فكان نطقهم حكمة، ومشوا فكان مشيهم بين الناس بركة، لولا الآجال التي قد كتبت عليهم لم تقرّ أرواحهم في أجسادهم خوفاً من العذاب وشوقاً إلى الثواب** (٢).

• وعن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: **إن لأهل الإيمان علامات يعرفون بها: صدق الحديث، وأداء الأمانة، ووفاء بالعهد، وصلة الأرحام، ورحمة الضعفاء، وقلّة المراقبة**

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ص ٢٣٥، كتاب الإيمان والكفر، باب المؤمن وعلاماته وصفاته، الحديث: ١٩.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص ٢٣٧، الحديث: ٢٥.

للنساء أو قال: قلّة المواتاة للنساء (أي الموافقة والمطاوعة) وبذل المعروف، وحسن الخلق، وسعة الخلق، واتباع العلم وما يقرّب إلى الله زلفى، طوبى لهم وحسن مآب. ألا ففي هذا فارغبوا، إن المؤمن من نفسه في شغل والناس منه في راحة، إذا جنّ عليه الليل افترش وجهه وسجد لله عزّ وجلّ بمكارم بدنه يناجي الذي خلقه في فكاك رقبته، ألا فهكذا كونوا[1].

• وعن الدلهاث مولى الرضا قال: سمعت الإمام الرضا عليه السلام يقول: لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون فيه ثلاث خصال: سنّة من ربّه وسنّة من نبيّه وسنة من وليّه. فأما السنة من ربّه فكتمان سرّه؛ قال الله عزّ وجلّ: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً * إلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُول﴾ (الجن: ٢٦ - ٢٧) وأَما السنة من نبيّه فمداراة الناس؛ فإن الله عزّ وجلّ أَمر نبيّه صلى الله عليه وآله بمداراة الناس فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بالْعُرْف﴾ (الأعراف: ١٩٩) وأما السنّة من وليّه فالصبر في البأساء والضرّاء[2].

• وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثمان خصال: وقور عند الهزاهز، صبور عند البلاء، شكور عند الرخاء، قانع بما رزقه الله، لا يظلم الأعداء، ولا يتحامل للأصدقاء، بدنه منه في تعب والناس منه في راحة، إن العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والصبر أمير جنوده والرفق أخوه، واللين والده[3].

---

(١) الأصول من الكافي: ج ٢ ص ٢٣٩، الحديث: ٣٠.

(٢) الأصول من الكافي: ج ٢ ص ٢٤١، الحديث: ٣٩.

(٣) الأصول من الكافي: ج ٢ ص ٢٣٠، الحديث: ٢.

الفصل السادس

في جواز

طلب الشفاعة من الشفعاء

اتّضح من الأبحاث السابقة أن الأمّة الإسلامية متّفقة على أن الشفاعة من أركان العقيدة، وهذا ما نطق به الكتاب الكريم وصرّحت به السنة النبوية والأحاديث الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولم يخالف في ذلك أحد من علماء المسلمين. نعم وقع الخلاف في جهات أخرى من البحث أشرنا إليها فيما سبق. ومن الأمور التي وقع الخلاف فيها أيضاً هو: هل يجوز طلب الشفاعة من الشفعاء أم لا؟

ذهب المشهور من علماء المسلمين إلى جواز طلبها من الذين أذن الله لهم في الشفاعة، وخالف في ذلك البعض حيث ذهب إلى عدم جواز ذلك إلا من الله تعالى. قال محمد بن عبد الوهاب: «وثبتت الشفاعة لنبينا محمد يوم القيامة ولسائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حسبما ورد، ونسألها من المالك لها والآذن فيها بأن نقول: اللهم شفّع نبيّنا محمداً فينا يوم القيامة أو اللهم شفّع فينا عبادك الصالحين أو ملائكتك أو نحو ذلك مما يطلب من الله لا منهم». إلى أن قال: «إن الشفاعة حقّ في الآخرة ووجب على كلّ مسلم الإيمان بشفاعته بل وغيره من الشفعاء، إلا أن رجاءها من الله، فالمتعيّن على كلّ مسلم صرف وجهه إلى ربّه فإذا مات استشفع الله فيه نبيّه»[1].

---

(١) **الهدية السنية**، الرسالة الثانية: ص ٤٢، نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ج ٤ ص ١٦٧.

ولعلّ أهمّ مستند لهم في هذه الدعوى ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الزمر: ٤٤) فاللام في (لله) للملك، وقوله ﴿لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾ في مقام التعليل للجملة السابقة. والمعنى أن كلّ شفاعة فهي مملوكة له تعالى خاصّة لا يشاركه فيها أحد كما هو مقتضى البراهين العقلية أيضاً. ولازم ذلك أنه لا يشفع أحد في حقّ أحد إلا بإذنه تعالى للشفيع وارتضائه للمشفوع له. لكن مالكية الشفاعة لله تعالى بالإصالة والاستقلال لا ينافي أن يكون غيره مالكاً للشفاعة بتمليكه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦) حيث دلَّت صراحة أن من شهد بالحقّ يملك الشفاعة ولكن تمليكاً منه سبحانه وفي طول ملكه.

وللآية معنى آخر أدقّ إذا انضمّت إلى مثل قوله تعالى: ﴿ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ﴾ (السجدة: ٤) وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ﴾ (الأنعام: ٥١) وهو أن الشفيع بالحقيقة هو الله سبحانه. فإطلاق الشفيع عليه تعالى ليس لأنه مالك لمقام الشفاعة فقط كما في الوجه السابق، بل بمعنى كونه شفيعاً بنفسه عند نفسه لما عرفت أن أسماءه تعالى الحسنى هي وسائط بينه وبين خلقه في إيصال الفيض إليهم، فهو تعالى يرزقهم مثلاً بما أنه رازق جواد غنيّ رحيم، ويشفي المريض بما أنه شاف معاف رؤوف رحيم، ويهلك الظالمين بما أنه شديد البطش ذو انتقام عزيز وهكذا.

فما من شيء من المخلوقات المركّبة الوجود إلا ويتوسّط لوجوده عدة من الأسماء الحسنى بعضها فوق بعض وبعضها في عَرْض بعض، وكلّ ما هو أخص منها يتوسّط بين الشيء وبين الأعمّ منها، كما أن الشافي يتوسّط بين المريض وبين الرؤوف الرحيم، والرحيم يتوسّط بينه وبين القدير وهكذا. والتوسّط المذكور في الحقيقة تتميم لتأثير السبب فيه، وإن شئت فقل هو تقريب للشيء من السبب لفعلية تأثيره، وينتج منه أنه تعالى شفيع ببعض أسمائه عند بعض، فهو الشفيع ليس من دونه شفيع في الحقيقة.

وبهذا يتبيّن أنه لا إشكال في إطلاق الشفيع عليه تعالى بمعنى أن تكون بعض صفاته تعالى متوسّطة بينه وبين المشفوع له لإصلاح حاله كتوسّط الرحمة والمغفرة بينه وبين عبده المذنب لإنجائه من وبال الذنب وتخليصه من العذاب. وأما كونه تعالى شفيعاً بمعنى شفاعته لشيء عند غيره فهو مما لا يصحّ جزماً.

والفرق بين هذا الوجه وما ذكر في الوجه السابق، أن المالك لا يتّصف بمملوكه في الوجه السابق كما في ملك زيد للدار، بخلاف الملك على هذا الوجه فإن المالك يتصف بمملوكه كملك زيد الشجاع لشجاعته[1].

وعلى هذا فيكون حقيقة طلب الشفاعة من الشفعاء ليست إلا دعاء النبيّ أو الوليّ في أن يدعو الله في حقّ المذنب أن يعامله

---

(١) يمكن مراجعة هذا البحث في: **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١٦ ص ٢٤٥، ج ١٧ ص ٢٧٠.

بمقتضى هذا الاسم دون ذاك، فيرجع ذلك إلى اتّخاذ الوسيلة وابتغائها؛ قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥) ومن الواضح أن ليس المراد بالوسيلة الأسباب الدنيوية الموصلة للإنسان إلى غاياته المادّية، إذ ليس هذا أمراً خفيّاً على الإنسان حتى يحثّه عليه القرآن، كما أنه ليس من الأمور التي يكسل عنها الإنسان حتى يُحضّ عليه، بل المراد التوسّل بالأسباب الموصلة إلى الأمور المعنوية، ومن المعلوم أن أحد الأسباب هو التوسّل بدعاء الأخ المؤمن والوليّ الصالح، وعلى هذا فيرجع طلب الشفاعة إلى طلب الدعاء الذي اتّفق المسلمون قاطبة على جوازه.

وإذا كان هذا هو حقيقة طلب الشفاعة فلا مانع من طلبها من الأولياء والصالحين وعباد الله المقرّبين، لأن غاية هذا الطلب هو طلب الدعاء. فلو قال قائل: «**ياوجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله**» يكون معناه: اُدع لنا عند ربّك.

وحكى النيسابورى في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَمَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها﴾ (النساء: ٨٥) عن مقاتل أنه قال: «الشفاعة إلى الله إنما هي الدعوة لمسلم؛ لما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: **من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له وقال له الملك: ولك مثل ذلك، والدعوة على المسلم بضدّ ذلك**»[1].

---

(١) نقلاً عن: **كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب**، تأليف: السيد محسن الأمين الحسيني العاملي، الطبعة الثالثة، ص ٢٤٢.

وقال الرازي في ذيل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ (غافر: ٧) «وهذا يدلّ على أنهم يستغفرون لكلّ أهل الإيمان، فإذا دلّلنا على أن صاحب الكبيرة مؤمن، وجب دخوله تحت هذه الشفاعة»[١]. ويؤيد ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «**ما من ميت يصلّي عليه أمّة من المسلمين يبلغون مائة كلّهم يشفعون له إلا شفّعوا فيه**»[٢]. وفسّر الشارح قوله: (**يشفعون له**) بقوله: أي يدعون له، كما فسر قوله (**إلا شفعوا فيه**) بقوله: أي قبلت شفاعتهم[٣].

وعن شرح المواقف للزرقاني: «إن الداعي إذا قال: **اللهم إني أستشفع إليك بنبيّك، يا نبيّ الرحمة اشفع لي عند ربك استجيب له**»[٤].

وقد روى الجمهور في أدب الزائر أنه إذا جاء لزيارة النبيّ صلى الله عليه وآله يقول: «**نحن وفدك يا رسول الله وزوّارك جئناك لقضاء حقّك والتبرّك بزيارتك والاستشفاع بك إلى ربك تعالى، فإن الخطايا قد أثقلت ظهورنا وأنت الشافع المشفّع الموعود بالشفاعة العظمى**

---

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: ج ٢٧ ص ٣١.

(٢) **صحيح مسلم**: ج ٣ ص ٥٣، طبعة مصر، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، نقلاً عن: **مفاهيم القرآن**: ج ٤ ص ٢٥٧.

(٣) **مفاهيم القرآن**: ج ٤ ص ٢٥٧.

(٤) **كشف الارتياب**: ص٢٦٥.

والمقام المحمود، وقد جئناك ظالمين لأنفسنا مستغفرين لذنوبنا سائلين منك أن تستغفر لنا إلى ربك، فأنت نبينا وشفعينا، فاشفع لنا إلى ربّك واسأله أن يمتنا على سنّتك ومحبّتك ويحشرنا في زمرتك وأن يوردنا حوضك غير خزايا ولا نادمين»[١].

قال القسطلاني في المواهب اللدنية: وينبغي للزائر له صلى الله عليه وآله أن يكثر من الدعاء والتضرّع والاستغاثة والتشفّع والتوسّل به صلى الله عليه وآله، فجدير بمن استشفع به أن يشفّعه الله فيه[٢].

فظهر أن الشفاعة والدعاء من وادٍ واحد، ولا فرق بينهما إلا في اللفظ، وعلى هذا يكون طلب الشفاعة من النبيّ صلى الله عليه وآله داخلاً فيما ورد من الآيات كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء:٦٤).

نعم للشفاعة معنىً آخر أشرنا إليه وهو التصرّف التكويني في قلوب المذنبين وتصفيتهم، إلا أنه أمر عقليّ لا يتوجّه إليه إلا الأوحديّ من الناس، فكلّ من يطلب الشفاعة من النبيّ أو الوليّ لا يقصد منه إلا المعنى المتعارف الذي وقفتَ عليه.

---

(١) **الغدير في الكتاب والسنة والأدب**، العلامة الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي: ج ٥ ص ٢١٢، تحقيق مركز الغدير للدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى المحققة، سنة ١٩٩٥م.

(٢) **المواهب اللدنية**: ج ٤ ص ٥٩٣، نقلاً عن: **الغدير في الكتاب والسنة والأدب**: ج ٥ ص٢١٢.

شبهات وردود

حاول القائلون بعدم جواز طلب الشفاعة من الشفعاء الذين أذن الله لهم بالشفاعة أن يستدلّوا ببعض الوجوه لإثبات مدّعاهم:

الوجه الأول: طلب الشفاعة من الشفعاء موجب للشرك

بيانه: «إن طلب الشفاعة من النبيّ أو الوليّ عبادة له، وكلّ عبادة لغير الله شرك. أما الثاني فلوجوب توحيد الله في العبادة كما يجب توحيده في الخالقية والرازقية، وأما الأول فلأن شرك الكفار الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله كان بطلبهم الشفاعة من الأصنام؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى الله زُلْفى﴾ (الزمر: ٣) وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُون الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله﴾ (يونس: ١٨) ولأنهم لا ينكرون توحيد الخالقية والرازقية؛ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ (العنكبوت: ٦١)، ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ (يونس: ٣١)، لكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله، يقولون نريد منهم التقرّب إلى الله وشفاعتهم عنده، ولم يفرّق النبيّ صلى الله عليه وآله بين من كان يدعو الملائكة

ليشفعوا له أو رجلاً صالحاً كاللات أو نبيّاً كعيسى أو يدعو غيرهم، فقاتل الكل، فهذا دليل على أن التشفّع بالنبيّ أو الصالح شرك كالتشفّع بغيره»(١).

وعلى هذا فالشفاعة وإن كانت حقاً ثابتاً للشفعاء الحقيقيين إلا أنه لا يجوز طلبها منهم لأنها عبادة لهم. قال محمد بن عبد الوهاب: «إن قال قائل: الصالحون ليس لهم من الأمر شيء ولكن أقصدهم وأرجو من الله شفاعتهم، فالجواب: إن هذا قول الكفّار سواء بسواء واقرأ عليهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى الله زُلْفى﴾ وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله﴾ »(٢).

ويمكن أن يجاب عن هذا الوجه بجوابين:

الجواب الأول

إنه لابدّ من الوقوف على حقيقة العبادة اصطلاحاً، فهل هي مطلق الدعاء والخضوع وطلب الحاجة أم لا؟

لأئمة اللغة العربية تعاريف متقاربة للفظة العبادة، فهم يفسّرونها تارة بالخضوع والتذلّل؛ قال في «لسان العرب»: «وأصل العبودية:

---

(١) **كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب**: ص ٢٤٥.

(٢) **كشف الشبهات**: ص ٨ – ٩، طبعة القاهرة، نقلاً عن: **التوحيد والشرك في القرآن الكريم**، الشيخ جعفر السبحاني: ص ١٦٣ إصدار مؤسسة الفكر الإسلامي، الطبعة الثانية: ١٤٠٦، وكذلك **كشف الارتياب**: ص ٢٣٩.

الخضوع والتذلّل»[١]. وقال في «المفردات»: «العبودية إظهار التذلّل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل»[٢]. ولعلّ منه قوله تعالى: ﴿فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ﴾ (المؤمنون: ٤٧).

وأخرى بالطاعة؛ قال في «لسان العرب»: «ومعنىالعبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع»[٣]. ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (يس: ٦٠).

بيد أن العبادة وإن فسّروها بالطاعة والخضوع والتذلّل أو إظهار نهاية التذلّل، لكن جميع هذه التحديدات ما هي إلا نوع من التعريف بالمعنى الأعم، لأن الطاعة والخضوع وإظهار التذلّل ليست على وجه الإطلاق عبادة، وإلا لزم أن يكون خضوع الولد لوالده والخادم لسيّده والمتعلّم لمعلّمه والجندي أمام قائده عبادة، ولم يقل به أحد من المسلمين. والآيات القرآنية خير شاهد على أن غاية الخضوع والتذلّل فضلاً عن مطلق الخضوع ليست عبادة، فمن ذلك:

• سجود الملائكة لآدم عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ (البقرة:٣٤) حيث دلّت الآية على أن آدم عليه السلام وقع مسجوداً للملائكة، ومن الواضح أن السجود من أعلى مظاهر الخضوع والتذلّل، ومع ذلك لم يُحسب سجودهم شركاً وعبادة لغير الله، وهذا خير دليل على أنه ليس كلّ تعظيم أمام غير الله عبادة له.

---

(١) **لسان العرب**: ج ٩ ص ١٠، مادة: عبد.

(٢) **المفردات في غريب القرآن**: ص ٣١٩، مادة: عبد.

(٣) **لسان العرب**: ج ٩ ص ١٢.

• وكذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا﴾ (يوسف: ١٠٠) ورؤياه التي تشير إليها الآية هي ما جاء في مطلع السورة: ﴿إذ قالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤) وواضح من الآية أن مجرد السجود لأحد بما هو ، مع قطع النظر عن الضمائم والدوافع، ليس عبادة.

• إن جميع المسلمين يطوفون في مناسك الحج بالبيت الذي لا يكون إلا حجراً وطيناً ويسعون بين الصفا والمروة، وقد أمر القرآن الكريم بذلك حيث قال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٩) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما﴾ (البقرة: ١٥٨) فهل يا ترى يكون الطواف بالتراب والحجر والجبل عبادة لها، ولو كان مطلق الخضوع عبادة لزم أن تكون جميع هذه الأعمال ضرباً من الشرك المجاز المسموح به، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

إن مجموع هذه الشواهد القرآنية - وغيرها كثير - تدلّ على أن مطلق الخضوع والتذلّل أو التكريم والاحترام ليس عبادة، وإذا ما رأينا أئمة اللغة فسّروا العبادة بأنها الخضوع والتذلل فهو من التفسير بالمعنى الأوسع، في حين إن العبادة ليست إلا نوعاً خاصّاً من الخضوع والتذلّل كما سيأتي بيانه، قال المحقق الشيخ جعفر كاشف الغطاء: «لا ريب أنه لا يراد بالعبادة - التي لا تكون إلا لله ومن أتى بها لغير الله فقد كفر -

مطلق الخضوع والانقياد كما يظهر من كلام أهل اللغة، وإلا لـزم كفـر العبيد والأجراء وجميع الخدّام للأمراء، بل كفر الأنبياء في خـضوعهم للآباء»[١].

حقيقة العبادة اصطلاحاً

مما لا يرتاب فيه مسلم أن العبـادة بمعنـى التألّـه - أي أن يكـون المعبود إلهاً - تختصّ بالله سبحانه وحده ﴿قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بـِهِ﴾ (الرعد: ٣٦) وإن هذا المعنى هو الذي ينصرف إليه لفظ العبادة حقيقةً عند الإطلاق من دون قرينة. ويمكن تمييز مصاديقها عن مصاديق التعظيم والتكريم بيسر وسهولة. فتقبيل العاشق دار معـشوقته أو تراب قبرها بعد موتها لا يوصف بالعبادة، كما أن ذهاب الناس إلى زيارة من يعنيهم من الشخصيات والوفـود إلـى مقـابرهم أو الوقـوف أمامها احتراماً لا يعدّ عبادة وإن بلغ من الخضوع مـا بلـغ. إلا أنـه مـع ذلك فإننـا بحاجـة إلـى بيـان ضـابطة كليـة لتمييـز مـصاديق العبـادة المصطلحة عن غيرها.

وقد ذُكرت في كلمات الأعلام تعاريف متعددة، نقف عنـد اثنـين منها:

التعريف الأول: العبادة هي: «الخضوع أمام من يعتقد به أنه يملك شأناً من شؤون وجود العابد وحياته وأجله وعاجله.

---

(١) **منهج الرشاد**، الشيخ الأكبر الـشيخ جعفـر كاشـف الغطـاء: ص ٢٤ طبـع فـي ١٣٤٣هـ.

توضيح ذلـك: إن العبوديـة مـن شـؤون المملوكيـة ومقتـضياتها. فعندما يحسّ العابد في نفسه بنوع من المملوكية ويحسّ بالمالكية في الطرف الآخر، يُفرغ إحساسه هـذا فـي الخـارج فـي ألفـاظ وأعمـال خاصّة، وتصير الألفاظ والأعمال تجسيداً لهذا الإحساس، ويكون كـلّ عمل أو لفظ مُظهِراً لهذا الإحساس العميق عبادة.

ولاشكّ أن ليس المقـصود بالمالكيـة مطلـق المالكيـة، فالاعتقـاد بالمالكية القانونية والاعتبارية لا يكون أبداً موجباً لـصيرورة الخـضوع عبادة، وإنما المقصود من المملوكية هنا القائمـة علـى أسـاس الخلـق والتكوين والتسلّط على شأن من شؤون التكوين»[1]. والفارق بينهما أن الملكية الاعتبارية هي نوع خاصّ من الاختـصاص وهـو قيـام شـيء بشيء يوجب صحة التصرّفات فيه، فقولنا العين الفلانية ملكنـا معنـاه: إن لها نوعاً من القيام والاختصاص بنا يصحّ معه تصرفاتنا فيها، ولـولا ذلك لم تصحّ تلك التصرّفات، ولما كانـت هـذه الرابطـة بـين المالـك والمملوك في هذا النوع من الملك بالوضع والاعتبار نرى ما نرى فيـه من جواز التغيّر والتحوّل. فمن الجائز أن ينتقل هذا النوع مـن الملـك من إنسان إلى آخر بالبيع والهبة وسائر أسباب النقل.

وأما الملكية الحقيقية فهي من قبيل قيام أجزاء وجودنا وقوانا بنـا، فإن لنا بصراً وسمعاً ويداً ورجلاً، ومعنى هذا الملك أنها في وجودهـا

---

(١) **الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل**: محاضرات الأستاذ الـشيخ جعفـر السبحاني: ج ١ ص ٤٣٣، بقلم: الشيخ حـسن محمـد مكـي العـاملي، الطبعـة الثانية، المركز العالمي للدراسات الإسلامية.

قائمة بوجودنا غير مستقلّة دوننا، بل مستقلّة باستقلالنا ولنا أن نتصرّف فيها كيف شئنا. والذي يمكن انتسابه إليه تعالى بحسب الحقيقة هي المالكية الحقيقية دون الاعتبارية التي تبطل ببطلان الاعتبار والوضع.

ومنشأ المالكية الحقيقية الثابتة لله تعالى هو كونه سبحانه خالقاً لكلّ شيء؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إلهَ إلاَّ هُوَ﴾ (المؤمن: ٦٢) والملك الحقيقي لا ينفكّ عن التدبير، فإن الشيء إذا افتقر في وجوده إلى شيء فلم يستقلّ عنه في وجوده لم يستقلّ عنه في آثار وجوده، فهو تعالى رب لما سواه لأن الربّ هو المالك المدبّر وهو تعالى كذلك.

وإلى ذلك يرجع ما قد يفسّر العبادة بأنها خضوع أمام من يعتقد بربوبيّته، فمن كان خضوعه العملي أو القولي أمام أحد نابعاً من الاعتقاد بربوبيّته كان بذلك عابداً له، ويدلّ على ذلك أن قسماً من الآيات تعلّل الأمر بحصر العبادة في الله وحده بأنه الربّ، كقوله تعالى: ﴿إنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢) وقوله: ﴿إنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (آل عمران: ٥١) وغير ذلك من الآيات التي تجعل العبادة دائرة مدار الربوبيّة.

وهذا ما أكّده جملة من الأعلام؛ قال السيد الخوئي: «إن حقيقة العبادة خضوع العبد لربّه بما أنه ربّه والقائم بأمره»[1]، وقال السيد

---

(١) **البيان في تفسير القرآن**، للإمام الأكبر زعيم الحوزة العلمية السيد أبي القاسم الموسوي الخوئي: ص ٤٥٩، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الثامنة، ١٩٨١م.

الطباطبائي: «والمعبودية من شؤون الربوبيّة ولواحقها، فإن العبادة نوع تمثيل وترسيم للعبودية والمملوكية وإظهار للحاجة إليه، فمن الواجب أن يكون المعبود مالكاً لعابده مدبّراً أمره أي ربّاً له، وإذ كان تعالى ربّ كلّ شيء لا ربّ سواه فهو المعبود لا معبود سواه»[١].

التعريف الثاني: العبادة هي: «الخضوع اللفظي أو العملي الناشئ عن الاعتقاد بألوهية المخضوع له»[٢].

ويمكن توضيح هذا التعريف من خلال بيان أمرين:

الأول: إن الذين نزل القرآن في أوساطهم وبيئتهم وكذلك كلّ الوثنيّين وعبدة الشمس والكواكب كانوا يعتقدون بألوهية معبوداتهم ويتخذونهم آلهة صغيرة وفوقهم الإله الكبير الذي يسمّى «الله» سبحانه.

الثاني: إن العبادة عبارة عن القول أو العمل الناشئين من الاعتقاد بألوهية المعبود، وإنه ما لم ينشأ الفعل أو القول من هذا الاعتقاد فلا يكون الخضوع أو التعظيم والتكريم عبادة.

أما الأمر الأول: فهناك الكثير من الآيات التي تدلّ على ذلك؛ قال تعالى:

- ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر: ٩٦).
- ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ﴾ (الفرقان: ٦٨).
- ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (مريم: ٨١).

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن:** ج ١٤ ص ١٢٣.

(٢) **معالم التوحيد في القرآن الكريم**، محاضرات العلامة الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني: ص ٤٠٥، بقلم: جعفر الهادي، مطبعة الخيام: قم ١٤٠٠هـ.

- ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى﴾ (الأنعام: ١٩).
- ﴿وَإِذ قالَ إِبْراهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً﴾ (الأنعام: ٧٤).

«فهذه الآيات - وغيرها - تشهد على أن دعوة المشركين كانت مصحوبة بالاعتقاد بألوهية معبوداتهم، وقد فُسّر الشرك في بعض الآيات باتّخاذ الإله مع الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الحجر: ٩٤ - ٩٦) وكذلك قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الطور: ٤٣) حيث جعلت الاعتقاد بألوهية غير الله هو الملاك للشرك، والمراد هنا الشرك في العبادة.

وبمراجعة هذه الآيات ونظائرها التي تعرّضت لموضوع الشرك وبالأخص شرك الوثنيّين، تتجلّى هذه الحقيقة بوضوح تامّ، أن عبادتهم كانت مصحوبة مع الاعتقاد بألوهيتها، بل يمكن استظهار أن شركهم كان لأجل اعتقادهم بألوهية معبوداتهم، ولأجل ذاك الاعتقاد كانوا يعبدونهم ويقدّمون لهم النذور والقرابين وغيرها من التقاليد والسنن العبادية»[1].

ولما كانت كلمة التوحيد تهدم عقيدتهم بألوهية غيره سبحانه، كانوا يستكبرون عند سماعها كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كانُوا إذا قِيلَ لَهُمْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الصافات: ٣٥) ولأجل تلك العقيدة كانوا إذا دُعي الله وحده كفروا به لأنهم لا يحصرون الألوهية به، وإذا أشرك به

---

(١) معالم التوحيد: ص ٤٠٦.

آمنوا لانطباقه على ما يعتقدون كما في قوله سبحانه: ﴿ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ للهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (غافر: ١٢).

وأما الأمر الثاني: فيدلّ عليه الآيات التي تأمر بعبادة الله وتنهى عن عبادة غيره مدلّلة ذلك بأنه لاإله إلا هو كقوله سبحانه ﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف: ٥٩) وقد تكرّر هذا النداء القرآني في مواضع متعددة[١] من القرآن الكريم.

«ومعنى ذلك أن الذي يستحقّ العبادة هو من كان إلهاً وليس هو إلا الله، وعندئذ فكيف تعبدون ما ليس بإله، وكيف تتركون عبادة الله وهو الإله الذي يجب أن يُعبد دون سواه؟

فهذه التعابير التي هي من قبيل تعليق الحكم على الوصف، تفيد أن العبادة هي الخضوع والتذلّل النابعان من الاعتقاد بألوهية المعبود، إذ نلاحظ بجلاء كيف أن القرآن استنكر عبادة المشركين غير الله بأن هذه المعبودات ليست بآلهة وأن العبادة من شؤون الألوهية، فإذا تحقّق وصف الألوهية في موجود جازت عبادته واتّخاذه معبوداً، وحيث إن هذا الوصف لا يوجد إلا في الله سبحانه وجب عبادته دون سواه»[٢].

وإلى هذا المعنى أشار البلاغي في تفسيره، قال: «لا يزال العوامّ والخواصّ يستعملون لفظ العبادة على رِسلهم ومجرى مرتكزاتهم على

---

(١) الأعراف: ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود: ٥٠، ٦١، ٨٤.

(٢) **الإلهيات على هُدى الكتاب والسنة والعقل**: ج ١ ص ٤٣٢.

طرز واحد، كما يفهمون ذلك المعنى بالتبادر ويعرفون بذواتهم مجازه ووجه التجوّز فيه، وإن المحور الذي يدور عليه استعمالهم وتبادرهم هو أن العبادة ما يرونه مُشعراً بالخضوع لمن يتّخذه الخاضع إلهاً ليوفيّه بذلك ما يراه له من حقّ الامتياز بالإلهية أو بعنوان أنه رمز أو مجسّمة لمن يزعمونه إلهاً، تعالى الله عما يشركون».

ثم قال: «وإن لفظ العبادة وما يشتقّ منه كعَبَد ويُعبد لا تجدها مستعملة على وجه الحقيقة إلا فيما ذكرناه من معاملة الإنسان لمن يتّخذه إلهاً معاملة الإله المستحقّ لذلك بمقامه في الإلهية. ولم أجدها في القرآن الكريم مستعملة في غير ذلك إلا في ثلاثة موارد، ولكنها لم تخرج عن النظر إلى مناسبة المعنى الحقيقي المذكور والتجوّز بلفظه وهي: قوله تعالى في سورة مريم: ﴿يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا﴾ (مريم: ٤٤) وفي سورة يس: ﴿أ لَمْ أَعْهَدْ إلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ﴾ (يس: ٦٠) فاستعير اسم العبادة للطاعة العمياء للشيطان على الدوام، كما يلقي المؤمنون قياد طاعتهم لله على بصيرة من أمرهم لأنه إلههم على نحو التجوّز الواقع في قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلهَهُ هَواهُ﴾ (الفرقان: ٤٣) والجاثية: ﴿أفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلهَهُ هَوَاهُ﴾ (الجاثية: ٢٣) فإنهم لم يكونوا يعبدون الشيطان ولم يتخذوا هواهم إلهاً على سبيل الحقيقة. وثالثها قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ﴾ (المؤمنون: ٤٧) أي دائبون على العمل في تسخيرنا كما يدأب المؤمن في طاعة الله وعبادته أو باعتبار أن فرعون كان يدّعي الإلهية فجعلوا التشبيه والتمويه خضوع بني إسرائيل بالقهر والغلبة

عبادة لفرعون هذا»[١].

وقريب مما ذكر ما أشار إليه في تفسير المنار بقوله: «يغلو العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له غلوّاً كبيراً حتى يفنى هواه في هواه وتذوب إرادته في إرادته ومع ذلك لا يسمّى خضوعه هذا عبادة بالحقيقة، ويبالغ كثير من الناس في تعظيم الرؤساء والأمراء، فترى في خضوعهم لهم وتحرّيهم مرضاتهم ما لا تراه من المتحنّثين القانتين - دع سائر العابدين - ولم يكن العرب يسمّون شيئاً من هذا الخضوع عبادة، فما هي العبادة إذاً؟

تدلّ الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصراح على أن العبادة ضرب من الخضوع بالغ حدّ النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها واعتقاده سلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها، وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه. فمن ينتهي إلى أقصى الذلّ لملك من الملوك لا يقال إنه عبده وإن قبّل موطئ أقدامه ما دام سبب الذلّ والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعهود أو الرجاء بكرمه المحدود». إلى أن قال: «للعبادة صور كثيرة في كلّ دين من الأديان شرّعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي الأعلى الذي هو روح العبادة وسرّها»[٢].

وبعد هذه الجولة القصيرة للوقوف على حقيقة العبادة اصطلاحاً يتبين أن طلب الشفاعة إنما يعدّ عبادة للشفيع إذا كان مقروناً بالاعتقاد

---

(١) **آلاء الرحمن في تفسير القرآن**: ج ١ ص ١٢٨.

(٢) **تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار**: ج ١ ص ٥٤.

بألوهيته وربوبيّته وأنه مالك لمقام الشفاعة بنحو الاستقلال يتصرّف فيها كيف يشاء، وأما إذا كان الطلب مقروناً باعتقاد أنه عبد من عباد الله الصالحين يتصرّف بإذنه سبحانه للشفاعة وارتضائه للمشفوع له فلا يعدّ عبادة للمدعوّ، وهذا ما أكّدته الآيات القرآنية كما عرفت سابقاً؛ قال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إذنهِ﴾ (يونس: ٣) ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ﴾ (طه: ١٠٩) ﴿لا تُغْني شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ﴾ (النجم: ٢٦) ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ (الأنبياء: ٢٨).

وعلى هذا، فلا يعدّ طلب الشفاعة من الشفيع عبادة للمدعوّ، بل يكون وزانه وزان سائر الطلبات من المخلوقين التي اتّفقت كلمة علماء المسلمين على جوازه.

الجواب الثاني

إنه ليس في الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله﴾ أية دلالة على ما يدّعون من أن طلب الشفاعة من الشفعاء يشبه عمل عبدة الأصنام في طلبهم للشفاعة من آلهتهم الكاذبة والباطلة؛ وذلك لأن الآية تشير إلى أن هؤلاء المشركين كانوا يقومون بعملين: العبادة وطلب الشفاعة، كما يدلّ عليه ﴿ويعبدون﴾، و﴿يقولون﴾ حيث دلّت الأبحاث التاريخية أن المشركين في الجزيرة العربية كانوا يعبدون الأصنام ليتقرّبوا بعبادتها إلى أربابها وبأربابها إلى ربّ الأرباب وهو الله سبحانه كما عرفنا،

ويقولون: إننا على ما بنا من ألوان البشرية المادّية وقذارات الذنوب والآثام لا سبيل لنا إلى ربّ الأرباب؛ لطهارة ساحته وقدسها، فمن الواجب أن نتقرّب إليه بأحبّ خلائقه إليه وهم أرباب الأصنام الذين فوّض الله إليهم أمر تدبير خلقه، ونتقرّب إليهم بأصنامهم أو تماثيلهم، وإنما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند الله لتجلب إلينا الخير وتدفع عنّا الشر، فتقع العبادة للأصنام حقيقة، والشفاعة لأربابها.

ولو كان الاستشفاع بالأصنام عبادة لها في الحقيقة لما كان هناك مبرّر للإتيان بجملة أخرى أعني قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا﴾ بعد قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله﴾ إذ كان حينئذ تكراراً. والشاهد على ذلك عطف الجملة الثانية على الأولى الدالّ على المغايرة بينهما. إذن لا دلالة لهذه الآية على أن الاستشفاع بالأصنام كان عبادة، فضلاً عن كون الاستشفاع بالأولياء المقرّبين عبادة لهم.

نعم ثبت بأدلّة أخرى غير هذه الآية بأن طلب الاستشفاع كان عبادة لهم؛ وذلك لما ثبت أن المشركين كانوا يعتقدون بألوهيتها وربوبيّتها واستقلالها في الأفعال، حيث يمكنها أن تشفع لمن تريد وكيفما تريد، وأين هذا من المسلمين الذين لا يعتقدون بأن أولياءهم يملكون هذا المقام، فهم يتلون آناء الليل وأطراف النهار قوله سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإذنهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥). ومع هذا التفاوت البيّن والفارق الواضح كيف يصحّ قياس هذا بذاك؟

من هنا جاء تأكيد القرآن الكريم أن الأصنام لا تملك الشفاعة؛ قال تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنْ شَهِدَ

بالْحَقِّ﴾ (الزخرف: ٨٦) ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ (مريم: ٨٧) فالشفاعة محضاً هي حقّ مملوك لله سبحانه، وأما المشركون فكانوا يعتقدون أن أصنامهم تملك هذا الحقّ ولذلك كانوا يعبدونها أولاً ويطلبون منها الشفاعة عند الله ثانياً.

«نعم إن الظاهر من قوله ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾ وقوله: ﴿ولا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ هو أن المتخذين للعهد والشاهدين بالحقّ يملكون الشفاعة كما هو مقتضى الاستثناء، لكن المراد من المالكية في هاتين الآيتين هي المأذونية؛ بقرينة سائر الآيات، كقوله ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إلاَّ مِن بَعْدِ إذنِهِ﴾ لا المالكية بمعنى التفويض، وإلا لزم الاختلاف والتعارض بين مفاد الآيات»[1].

وبذلك يظهر ضعف الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلَى الله زُلْفى﴾ إذ حُمل قوله سبحانه ﴿ما نعبدهم﴾ على طلب الشفاعة، مع أنَ الآية المتقدّمة صريحة في مغايرة العبادة لطلب الشفاعة.

قال السيد محسن الأمين في «كشف الارتياب»: «فطلب الشفاعة ليس عبادة للمطلوب منه، وشرك أهل الجاهلية الذي أحلّ دماءهم وأموالهم لم يكن سببه اتّخاذهم الشفعاء كما زعموا، وليس في الآيتين المستشهد بهما أن الموجب لشركهم هو تشفّعهم ولا أن عبادتهم لهم هي تشفّعهم بهم، بل الآيتان صريحتان في أن عبادتهم لهم كانت غير

(١) التوحيد والشرك في القرآن الكريم: ص ١٦٧.

التشفّع، فإنه جعل في الآية الأولى وهي قوله: ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلَى الله زُلْفى﴾ العبادة علّة التقريب الذي هو الشفاعة، والعلّة غير المعلولَ ببديهة العقل، وعطف في الآية الثانية قول ﴿هؤلاء شفعاؤنا﴾ على قوله ﴿ويعبدون﴾ والعطف يقتضي تغاير المعطوف والمعطوف عليه كما قرّر في علم العربية.

مع أن عبادتهم لهم بغير التشفّع من السجود والإهلال بأسمائها وغير ذلك مشاهدة معلومة، وقد ذكرنا مراراً أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله أَوْلِيَاءَ...﴾ وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله...﴾ صريح في أن عبادتَهم لها كانت مع الإعراض عن الله والمخالفة لأَمره. وقوله تعالى: ﴿مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾ إشارة إلى أنهم عبدوا أحجاراً وأشجاراً هي من الجمادات وطلبوا منها النصر والشفاعة ولم يجعل الله لها ذلك ولو كانت على صور قوم صالحين، فلا يقاس بها من جعله الله شافعاً وقادراً على الشفاعة ولا من تشفّع به بمن تشفّع بها. ويجب على قياس قولهم بمنع (يا رسول اللّه اشفع لي) بل يقول (اللهم شفّعه فيّ أو ارزقني شفاعته) أن يمنعوا: (يا فلان ادع لي)، بل يقول (اللهم أجب دعاءه) أو (ارزقني دعاءه لي) مع اعترافهم بجوازه. ومنعه يشبه الأكل من القفا أي إيصال اللقمة إلى الفم من وراء الرقبة»[1].

---

(١) كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب: ص ٢٤٦.

الوجه الثاني: طلب الحاجة من غيره حرام

من الوجوه التي استدلّ بها القائلون بعدم جواز طلب الشفاعة من الشفعاء قولهم: إن ذلك دعاء لغير الله تعالى وهو حرام شرعاً؛ لقوله: ﴿فَلاَ تَدْعُوا مَعَ الله أَحَداً﴾ (الجن: ١٨) وإذا كانت الشفاعة ثابتة لأوليائه وعباده المقرّبين وكان طلب الحاجة من غيره حراماً، فالجمع بين أمرين يتحقّق بانحصار جواز طلبها من الله سبحانه خاصّة.

قال محمد بن عبد الوهاب: «وإن قال: إن النبيّ أعطي الشفاعة وأنا أطلبها ممن أعطاه الله، فالجواب إن الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن طلبها منه، فقال تعالى: ﴿فَلاَ تَدْعُوا مَعَ الله أَحَداً﴾ وأيضاً فإن الشفاعة أعطيها غير النبيّ، فصحّ أن الملائكة يشفعون والأولياء يشفعون. أتقول إن الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم، فإن قلت هذا رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكرها الله في كتابه»[١].

وقال الصنعاني في «تنزيه الاعتقاد»: «وقد سمّى الله الدعاء عبادة بقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠). وفي الهدية السنية عنه صلى الله عليه وآله: **الدعاء مخ العبادة**. رواه الترمذي. وفي رواية: **هو العبادة**، ثم قرأ صلى الله عليه وآله: ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ رواه أحمد وأبو داود والترمذي. ومن هتف باسم نبيّ أو صالح عند الشدائد

---

(١) **كشف الشبهات**: ص ٩، نقلاً عن: **كتاب التوحيد والشرك**: ص ١٦٤.

كقول (يا رسول الله) بدون أن يتبعه بشيء أو قال: (اشفع لي إلى الله في حاجتي) أو (أستشفع بك إلى الله في حاجتي) أو نحو ذلك، أو قال (اقض ديني) أو (اشف مريضي) أو نحو ذلك، فقد دعا ذلك النبيّ والصالح، والدعاء عبادة بل مخّها كما عرفت، فيكون قد عبد غير الله وصار مشركاً؛ إذ لا يتمّ التوحيد إلا بتوحيده تعالى في الإلهية باعتقاد أن لا خالق ولا رزاق غيره، وفي العبادة بعدم عبادة غيره ولو ببعض العبادات، وعبّاد الأصنام إنما أشركوا بعدم توحيد الله في العبادة»[1].

وقد استندوا في ذلك إلى مجموعة من الآيات القرآنية التي نهت عن دعوة غير الله سبحانه كقوله: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ (الرعد: ١٤) وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٧) وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله عِبادٌ أَمْثالُكُمْ﴾ (الأعراف: ١٩٤) وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (فاطر: ١٣) وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ (الإسراء: ٥٦) وقوله: ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ الله ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾ (يونس: ١٠٦) وقوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ﴾ (فاطر: ١٤) وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ الله مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ (الأحقاف: ٥).

---

(١) **تنزيه الاعتقاد للصنعاني**، نقلاً عن: **كشف الارتياب**: ص ٢٧٣.

الجواب

هذا تمام ما ذكروه في هذا الوجه، والمستفاد منه أنهم تصوّروا أن الدعاء والعبادة مترادفين ومشتركين في مفادهما، إلا أن من الواضح أنه لا يمكن قبول هذه الدعوى؛ وذلك لأن لفظ الدعاء يعني في لغة العرب: النداء لطلب الحاجة، فلا يتحقّق مفهوم الدعوة إلا بطلب الحاجة، ولو استعملت في مورد في مطلق النداء ولم يكن معه طلب حاجة فإنما هو لأجل أن المنادي يطلب توجّه المنادى إلى نفسه، قال الراغب في المفردات: «الدعاء كالنداء، إلا أن النداء قد يقال بـ (يا) أو (أيا) ونحو ذلك من غير أن يضمّ إليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم نحو يا فلان، وقد يستعمل كلّ واحد منهما موضع الآخر؛ قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعاءً وَنداءً﴾»[1]، بينما تعني العبادة معنىً آخر وهو الخضوع النابع من الاعتقاد بالألوهية والربوبيّة على ما مرّ بيانه. وهناك شواهد قرآنية كثيرة استعمل فيها لفظ الدعوة والدعاء لا يمكن أن يكون المراد فيها العبادة كقوله: ﴿قالَ رَبِّ إنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً﴾ (نوح: ٥) وقوله حاكياً عن الشيطان: ﴿وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطان إلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (إبراهيم: ٢٢) فهل يحتمل أن يكون المراد من الدعاء فيهما العبادة؟

نعم، النسبة بينهما هي العموم والخصوص من وجه، فقد تصدق العبادة ولا يصدق الدعاء كما في العبادة الفعلية المجرّدة عن الذكر

(١) **المفردات في غريب القرآن**: ص ١٦٩، مادة: دعا.

كالركوع والسجود لأنها تقترن مع الاعتقاد بألوهية المسجود له، ولا يصدق الدعاء لخلوّه عن الذكر اللفظي. وقد يصدق الدعاء ولا تصدق العبادة كما لو دعا أحد ولياً أو نبياً أو رجلاً صالحاً من غير اعتقاد بألوهيته وربوبيّته ونحوهما. وقد يصدق كلا الأمرين معاً كما في أذكار الصلاة لأنها دعوة بالقول ناشئة عن الاعتقاد بألوهية المدعوّ.

الخلاصة

إذا اتّضحت هذه المقدّمة نقول:

أولاً: إن المقصود من الدعاء في مجموع الآيات التي ذكرت في مطلع البحث ليس هو مطلق النداء، بل نداء خاصّ يمكن أن يكون - مآلاً - مرادفاً للفظ العبادة، لأن مجموع هذه الآيات وردت حول الوثنيّين الذين كانوا يعتقدون بأن أصنامهم آلهة صغار قد فوّض إليها بعض شؤون المقام الألوهي ويفترضون في شأنها نوعاً من الاستقلال في التصرّف والفعل.

ومعلوم أن الخضوع والتذلّل أو أيّ نوع من القول والعمل أمام مخلوق باعتقاد أنه إله كبير أو إله صغير لكونه ربّاً ومالكاً لبعض الشؤون الإلهية، يكون عبادة. ولاشكّ أن خضوع الوثنيّين ودعاءهم واستغاثتهم أمام أوثانهم كانت بوصف أن هذه الأصنام آلهة أو أرباباً أو مالكة لحقّ الشفاعة وباعتقاد أنها آلهة مستقلّة في التصرّف، ومن البديهي أن أية دعوة لهذه الموجودات وغيرها بمثل هذا الاعتقاد يعدّ عبادة لا محالة.

وقد دلّت طائفة من الآيات على أن دعوة الوثنيّين كانت مصحوبة بالاعتقاد بألوهية الأصنام أو مالكيتها لمقام الشفاعة والمغفرة؛ قال تعالى: ﴿وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ (هود: ١٠١) حيث دلّت بأنهم كانوا يعبدونها متصوّرين ومعتقدين بأنها تغنيهم من شيء كما يمكن للإله الحقيقي أن يفعل ذلك. وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً * أولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ إنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً﴾ (الإسراء: ٥٦ – ٥٧).

قال الطباطبائي: «والآية تحتجّ على نفي ألوهية آلهتهم من دون الله بأن الربّ المستحقّ للعبادة يجب أن يكون قادراً على إيصال النفع ودفع الضرّ إذ هو لازم ربوبيّة الربّ، على أن المشركين مسلّمون لذلك، وإنما اتّخذوا الآلهة وعبدوهم طمعاً في نفعهم وخوفاً من ضررهم، لكن الذين يدعونهم من دون الله لا يستطيعون ذلك فليسوا بآلهة. وكيف يملكون من عند أنفسهم كشف ضرّ أو تحويله ويستقلّون بقضاء حاجة ورفع فاقة وهم في أنفسهم مخلوقون لله يبتغون إليه الوسيلة، يرجون رحمته ويخافون عذابه باعتراف من المشركين»[١].

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج ١٣ص ١٢٧.

وبهذا يتّضح الفرق بين التوسّل الممدوح (والوسيلة هي التوصّل والتقرّب وربما استعملت بمعنى ما به التوصّل والتقرّب) بل المأمور به كما في قوله تعالى: ﴿ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥) وبين التوسّل والتقرّب المذموم المنهي عنه كما في قوله: ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾ (الزمر: ٣) حيث إن الأول – لأجل أن المدعوّ عبد من عباد الله المكرمين وأنه ذو مقام معنويّ استحقّ به منزلة النبوة أو الإمامة ولأنه وُعد المتوسّلون به بقبول أدعيتهم وإنجاح طلباتهم فيما إذا قصدوا الله عن طريقه، كما ورد في حقّ النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (النساء: ٦٤) – بخلاف الثاني فإنهم كانوا يتوسّلون إلى الله ويتقرّبون بالملائكة الكرام والجن والأولياء من الإنس فيتركون عبادته تعالى ولا يرجونه ولا يخافونه، وإنما يعبدون الوسيلة ويرجون رحمته ويخافون سخطه، ثم يتوسّلون إلى هؤلاء الأرباب والآلهة بالأصنام والتماثيل فيتركونهم ويعبدون الأصنام ويتقرّبون إليهم بالقرابين والذبائح. وبالجملة فهم لا يعبدون إلا الوسيلة مستقلّة بذلك ويرجونها ويخافونها مستقلّة بذلك من دون الله فيشركون بإعطاء الاستقلال لها في الربوبيّة والعبادة.

وثانياً: «يمكن أن يقال إن المراد من الدعاء في هذه الآيات هو القسم الخاصّ منه، أعني ما كان ملازماً للعبادة، لا بمعنى أن الدعاء مستعمل في مفهوم العبادة ابتداءً، بل بمعنى أنها مستعملة في معناها

الحقيقي غير أنها لما كانت في موارد الآيات مقرونة باعتقاد الدعاة بألوهيتهم يكون المنهيّ عنه ذلك القسم من الدعوة لا مطلقاً، وتكون عقيدة الدعاة في عقيدة المدعوين قرينة متصلة على أن المقصود ذلك القسم المعيّن لا جميع أقسامها، ومن المعلوم أن الدعاء مع هذه العقيدة يكون مصداقاً للعبادة.

والدليل على أن المراد من الدعوة والدعاء في هذه الآيات هو القسم الملازم للعبادة، أنه ربما وردت في إحدى الآيتين ذاتيْ مضمون واحد لفظة الدعوة ووردت في الآية الأخرى لفظة الدعاء مثل قوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً﴾ (المائدة: ٧٦) بينما يقول في الآية الأخرى وهي: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا﴾ (الأنعام:٧١) ويقول أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (فاطر: ١٣) والقطمير على ما قاله الراغب في المفردات: «الأثر على رأس النواة وذلك مثل للشيء الطفيف». ونظير ما سبق قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ (العنكبوت: ١٧).

هذا وقد ترد كلتا اللفظتين في آية واحدة وتستعملان في معنى واحد: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ (الأنعام: ٥٦) وقوله: ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ (غافر: ٦٠) والآية وما تقدّمها ظاهرتان في أن المراد من الدعوة العبادة لا مطلق النداء وطلب الحاجة»[1].

(١) **معالم التوحيد**: ص ٥١٤.

ويؤيد ما ذكر ما ورد في دعاء سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام حيث قال: «وقلتَ: ﴿ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ **فسمّيت دعاءك عبادة وتركه استكباراً وتوعّدت على تركه دخول جهنّم داخرين**».

فتلخّص إلى هنا أن قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَدْعُوا مَعَ الله أحَداً﴾ لا يراد به مطلق الدعاء قطعاً بل دعاءً خاصّاً وهو الدعاء المساوي لدعاء الله تعالى باعتقاد أن المدعوّ قادر مختار مساوٍ لله في ذلك، كما كانت اليهود والنصارى تفعل ذلك في بيعها وكنائسها، أو دعاء من نهى الله عن دعائه من الأصنام والأوثان الّتي هي أحجار وأشجار لا تعقل ولا تسمع ولا تضرّ ولا تنفع ولا تسأل ولا تشفع كما كان يفعله المشركون في الكعبة، أو دعاء الملائكة والجن الذين كانوا يعبدونهم ويعتقدون أن لهم تأثيراً في الكون مع الله بأنفسهم أو يشفعون عنده اضطراراً بحيث لا يرد شفاعتهم أو نحو ذلك مما لم يجعله الله لهم.

وكذلك قوله صلى الله عليه وآله: **الدعاء مخّ العبادة** أو **هو العبادة** لا يراد به مطلق الدعاء بل دعاءً خاصّاً كما أُريد بالآية الكريمة، بل لا يبعد أن يراد بالدعاء فيه خصوص دعاء الله تعالى أي أن دعاء الله تعالى مخّ عبادة الله تعالى، وذلك لاشتماله على نهاية الذل والخضوع، والعبادة أقصى نهاية الخضوع والذلّ، فتكون الألف واللام فيها نائبة عن الإضافة فهي عهدية لا جنسية.

إذا عرفت ذلك ظهر لك أن من دعا نبيّاً أو وليّاً واستغاث به، فذلك لا يدخل في الدعاء المنهيّ عنه في الآية، لأن هذا الدعاء

والاستغاثة لا يخرج عن طلبه منه أن يدعو الله له أو يشفع له عنده، الذي هو في معنى الدعاء. فمن طلب ذلك مع اعتقاد أن الأمر فيه لله إن شاء أجاب دعاءه وقبل شفاعته وإن شاء ردّ، لا يدخل في النهي قطعاً، بعدما عرفت أن المنهي عنه ليس مطلق الدعاء، بل دعاء مخصوص، مع أن طلب الدعاء والشفاعة ممن جعل الله له ذلك لا يخرج عن دعاء الله تعالى وعبادته وتعظيم شأنه والتوسّل إليه بأنواع الوسائل، وفي ذلك مبالغة في التضرّع إليه والطلب منه الذي علم أنه يحبّه ويرضاه وأنه مخّ العبادة له.

والمعيّة في قوله ﴿فَلاَ تَدْعُوا مَعَ الله أحَداً﴾ ظاهرة في المساواة وذلك بجعله في رتبته سبحانه، ومن يدعو النبيّ صلى الله عليه وآله ليدعو الله له ويشفع إليه في حاجته لم يدعه مع الله ولم يساوه به، بل في الحقيقة دعا الله الذي أمر بطلب الدعاء من الغير وجعل له الشفاعة. وبعبارة أخرى معنى ﴿مع الله﴾ أن يكون دعاؤه في عرض دعاء الله لا في طوله. والأصنام لو فرض أن دعاءها ليس كذلك فالله نهى عن دعائها بكلّ حالة لأنها جماد ولأن دعاءها خلاف على الله وتكذيب للرسل، وباقي المعبودات كعيسى والملائكة والجن هو مثل دعاء الله قطعاً، فعيسى عليه السلام اتُّخذ شريكاً في الربوبيّة والملائكة والجن اعتُقد أنّ لهم قدرة وتأثيراً مع الله كما مرّ»(١).

---

(١) كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب: ص ٢٨٣.

الفهارس

فهرس الآيات

رقم الآية اسم السورة رقم الصفحة

الحمد

١ : الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢٤

البقرة

٣٤ : وَإذ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ... ٥٨، ٢٠٧، ٣٦٥

٣٧ : فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ ٢٨٩

٤٧ – ٤٨ : ... وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ... ١٣٢، ١٣٨، ١٩٣، ١٩٩، ٢٠٣

٦٣ : خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ ٦٨

٧٠ : إنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا ٢١٨

٨٠ : ... قُلْ أَتَّخَذتُمْ عِنْدَ الله عَهْداً... ٢٠٢، ٢١٢، ٢٦٣

١٠٢ : وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ١٥٦

١٠٩ : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمانِكُمْ... ٢٣٧، ٢٣٨

١١١ – ١١٢ : وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً ... ٢٠١، ٢٠٢

١١٦ : اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ ٢٨٠

١٢٢ – ١٢٣ : يَا بَنِي إسْرائِيلَ اذكُرُوا نعْمَتِيَ... وَاتَّقُوا يَوْماً ... ٢٠٤

١٢٤ : لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِين ٥٨، ٢٠٧

١٢٥ – ١٢٨ : وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ... ٢١٢، ٢٨٩
١٤٣ : وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ... ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩
١٥٢ : فَاذكُرُونِي أذكُرْكُم ٣٠٥
١٥٨ : إنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ الله... ٣٦٦
١٦٥ – ١٦٦ : أنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعاً... وَرَأَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ...٤٥، ٧٨، ١٩٦، ٢٠٠
١٧١ : كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعاءً وَنداءً ٣٨١
١٨٣ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ... ١٦٤
٢١١ : وَمَنْ يُبَدِّلْ نعْمَةَ الله مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقاب ٢٤٠
٢١٧ : وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ... هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١٠٠
٢٢٢ : إن الله يحبّ التوابين ٢٩٠
٢٢٥ : وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ٣٢٥
٢٢٩ : تِلْكَ حُدُودُ الله فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله... ١٥٣
٢٣٧ : وأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ١٤٧
٢٤٩ : إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَر فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي... ١٦٤
٢٥٤ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ...١٣٢، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٧، ١٩٩
٢٥٥ : ... مَنْ ذا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإِذنِهِ... ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٧٢،٧٨، ٨٥،
١١٢، ١٩٣، ٢٠٩، ٢٢٠، ٣٧٦
٢٥٧ : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ... ١٧٠
٢٦١ : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ... ١٠٤
٢٧٠ : وما للظالمين من أنصار ١٣٢
٢٧٥ : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِي... ١٥٦
٢٧٩ : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْب مِنَ الله وَرَسُولِهِ ١٥٦
٢٨١ : ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ ٣٤٢

٢٨٣ : وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ١٥٧
٢٨٦ : واعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنا وارْحَمْنا... ٣٠٠

آل عمران

٧ : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ... ٢١٣، ٢١٧
٩ : إنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ ١٢٥، ٢١٣
١٨ : شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ... ٢٠
١٩ : إنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الإسْلامُ ٩٥
٢٨ : وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه ٢٤٠
٣٠ – ٣١ : يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ... فَاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ... ٥١، ٥٣، ٩٥، ١٠٤
٤٩ : أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... ٦٧
٥١ : إنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ٣٦٩
٦٤ : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ... ٢٨
٧٧ : إنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً... ١٥٦
٩٠ : إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ٢٩١
١١٠ : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس ٣٢٨
١٢٨ : لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ... ٣٠٦
١٣٥ : وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٢٣٤
١٦١ : وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ١٥٦
١٧٩ : ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ... ٦٦

النساء

٥ : وَلا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً وارْزُقُوهُمْ... ٦٦

٩ : وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ ٢٢٤

١٠ : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا... ١٥٦

١٧ – ١٨ : إِنَّمَا التَّوْبَةُ... وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ...... ٢٨٣، ٢٨٨،٢٩٠، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧

٣١ : إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ... ١٥٤، ٢٣٢، ٢٤٢

٤٨ : إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ... ٦٢، ٩٥، ١٢٢، ١٢٣،١٣٠،
١٥٤، ١٥٥، ١٦٧، ١٦٨،١٩٧، ٢٨٤، ٢٨٥

٦٤ : ... وَلَوْ أَنَّهُمْ إذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ... ٨٦، ٨٧، ٩٨، ١٢١، ٢٨١، ٣٦٢، ٣٨٤

٦٩ : وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ... ٣٢٨

٨١ : وَيَقُولُونَ طاعَةٌ فَإذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ... ٦٧

٨٥ : مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها... ١٠٦، ١٠٨، ٣٦٠

٩٣ : وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ... ١٥٥

١٢٣ : مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ... ٩٨، ١٤٦

١٣٧ : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا... ٢٩١

١٣٩ : فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً ٤١، ٦٨، ٧٨

١٤٩ : إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ... ١٤٨

١٥٩ : وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ٣٢٥

١٦٥ : رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ... ٥١

١٧١ : وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ٢١٩

المائدة

٣ : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي... ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٩

٩: وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٣٠٠

١٦ : يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ... ٣٠٠

١٨ : وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ ٢٠١

٢٩ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِـإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ٢٢٥

٣١ : فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ٢٧٣

٣٥ : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ٤٧، ٢٨٢، ٣٦٠، ٣٨٤

٤٨ : لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً ٥١

٥٥ : إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ٦٨

٦٤ : وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ... ١٩٤، ١٩٥

٧٢ : إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِـالله فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ١٥٥

٧٦ : قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعاً ٣٨٥

٩٠ : إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ... ١٥٧

١١٧ : ما قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ ما أَمَرْتَنِي بِـهِ ... ٣٢٥

١١٨ : إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ... ٢٤٥

الأنعام

١٩ : أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ الله آلِهَةً أُخْرَى ٣٧١

٢٨ : وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لما نُهُوا عَنْه وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُون ٢٩٧

٢٩ : وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيا وَمَا نَحْنُ بِـمَبْعُوثِينَ ٢٦

٤٨ : وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ... ٥١

٥١ :... لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ ٥٨، ٣٥٨

٥٦ : قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله ٣٥٨

٦١ : ... وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً... ٦٥، ٢٧٧

٧٠ :... لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ الله وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ... ٥٩

٧١ : قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ الله ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا ٣٨٥

٧٤ : وَإذ قالَ إبْراهِيمُ لأَبِـيهِ آزرَ أتَتَّخِذُ أصْناماً آلِهَةً ٣٧١

٩٤ : وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى... وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ... ٢٠٠

١٠٣ : لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ٢٢٠

١٥٨ : هَلْ يَنْظُرُونَ إلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ... ٢٩٧

١٦٠ : مَنْ جاءَ بِـالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها ١٠٤، ٣٠٦

١٦٤ : وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ٢٢٧

الأعراف

٢٩ - ٣٠ : كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقاً هَدَى... ١١٦

٤٤ - ٥٣ : وَنَادَى أَصْحَابُ النَّار أَصْحَابَ الْجَنَّةِ...٥٦، ٥٧، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٢٧، ٢٤٤

٥٨ : وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِـإذنِ رَبِّهِ ... ١١٦

٥٩ : يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ ٣٧٢

٨٣ : كَانَتْ مِنَ الْغَابِـرِين ٥٨

٩٦ : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ... ١٥٩، ٢٧٤

٩٧ - ٩٩ : أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى ... فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ... ١٥٥، ١٨٩، ١٩٢

١٤٣ : فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً... ٧٥، ٢٩٠

١٥٦ : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ١٢٠

١٥٨ : وَاتَّبِـعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠٢

١٧٥ : فَكَانَ مِنَ الْغَاوِين ٥٨، ٢٠٧

١٩٧ : وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ... ٣٨٠

١٨٠ : وَللهِ الأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِـها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ... ٧٨

١٩٤ : إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ ٣٨٠

١٩٩ : خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْف ٣٥٣

الأنفال

١٥ – ١٦ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً... ١٥٦
٣٣ : وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ... ١٥٩
٣٧ : لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ... ٢٢٤
٤٨ : وَإذ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ... ٦٧
٥٣ : ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا... ٢٤٠
٦٠ : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ٦٨

التوبة

٥ : فَإذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ... ١٥٩
٣٥ : يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِباهُهُمْ ... ١٥٧
٧٤ : وَمَا نَقَمُوا إلاّ أنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِه ٦٨
٨٠ : ... إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ... ٢٨٤
٩٠ – ٩٧ : وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرابِ... ١٦٨، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠
١٠٢ : وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ...٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٦
١٠٣ : وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ١٢١، ٢٨٢
١٠٦ : وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله إمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ... ٣٠٦
١١٣ : ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ... ٢٨٥
١١٤ : وَما كانَ اسْتِغْفارُ إبْراهِيمَ لأَبِيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ... ٢٨٥
١١٧ : لَقَدْ تابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ... ٢٩٠
١١٨ : وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ... ٢٨٨
١٢٨ : لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ... ٣٠٨

يونس

٣ : ... يُدبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إلاَّ مِن بَعْدِ إذنهِ... ٢٣، ٦٩، ١٩٣، ٣٧٥، ٣٧٧

١٨ : ... ويَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا... ٢٦، ٤٤، ٢٠١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٨

٢٠ : وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ... ٦٥

٣٠ : هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ... ٢٠٠

٣١ : قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ... ٦٨، ٣٦٣

٤٤ : إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً... ٢٢٧

٥٢ : هَلْ تُجْزَوْنَ إلاَّ بِـمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ٢٢٣

١٠٦ : وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ الله ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ ٣٨٠

هود

١ : كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ٢١٥

١٦ : وَحَبِـطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٠٠

٥٦ : مَا مِنْ دَابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخِذٌ بِـنَاصِيَتِهَا إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٤٩

٩٠ : واسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ إنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ١٢١

١٠١ : وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ... ٣٨٣

١٠٥ : يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلاَّ بِـإذنِهِ ٦٢

١٠٨ : وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا... ١٩٤، ٢٠٩

يوسف

٤ : إذ قالَ يُوسُفُ لأَبِـيهِ يا أَبَتِ إنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً... ٣٦٦

٣٩ : أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ ٧٣

٨٧ : يَا بَنِيَّ اذهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ... ١٥٥، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢

٩٧ - ٩٨ : قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ... ٨٨، ١٢٠ ، ٢٨٢

١٠٠ : وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ... ٣٦٦

الرعد

٢ : اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِـغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا... ٦٩
٨ : وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِـمِقْدار ١٢٠
١١ : إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ٢٧٢
١٤ : لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ... ٣٨٠
١٦ : اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ٢٤، ٦٧
٢٥ : وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ... ١٥٧
٣٣ : أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْس بِـما كَسَبَتْ ٢٠
٣٦ : قُلْ إنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِـهِ ٣٦٧
٣٩ : يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاء ١٠٥

إبراهيم

٧ : وَإذ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ... ١٦٠
١٨ : أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِـهِ الرِّيحُ... ١٠١
٢٢ : وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطان إلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ... ٣٨١
٢٤ – ٢٧ : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً... ٢٥٨، ٢٥٩
٣٤ : وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ١٦٣

الحجر

٢ : رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ ٣١٧
٢١ : وَما نُنَزِّلُهُ إلاَّ بِـقَدَر مَعْلُوم ١٢٠
٢٩ : فَإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ١٧٠
٤١ – ٤٤ : هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ... ١٤٦، ١٤٩، ١٥٠، ٣١٢

٥٦ : وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلاَّ الضَّالُّونَ ١٩٠
٩٤ - ٩٦ : وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ... ٣٧٠، ٣٧١
٩٩ : وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ٥١

النحل

٢٥ : لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ... ٢٢٥
٥٠ : يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ٢٥
٧٨ : وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً... ٢٨٦
٨٤ : وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا... ٣٢٤
٨٩ : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ... ١٧، ٣١٨، ٣٢٤، ٣٢٦
١١٢ : وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا... ٢٤٠

الإسراء

١١ : وَيَدْعُ الإنْسانُ بِـالشَّرِّ دُعاءَهُ بِـالْخَيْرِ... ٨٤
١٣ - ١٤ : وَكُلَّ إنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ... ١١٥، ٣٤٤
٢٠ : كُلاًّ نُمِدُّ هؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ... ٩٧، ١٦٩
٣٣ : وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِـالْحَقِّ ٢٧٣
٥٦ : قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ ٣٨٠، ٣٨٣
٥٧ : أولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ... ٣٨٣
٧١ - ٧٢ : يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُناسٍ بِـإمامِهِمْ ... وَمَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى... ١١٥، ٢٥٦
٧٩ : وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِـهِ نافِلَةً لَكَ... ١١١، ٣١٧، ٣١٩ - ٣٢١ ، ٣٢٢
١٠٠: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إذاً لأَمْسَكْتُمْ... ٨٤
١٠٦ : وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ... ٢١٦

الكهف

٤٩ : وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ... ٣٤٢، ٣٤٤

مريم

١٢ : يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِـقُوَّةٍ ٦٨

٣٢ : وَبَرًّا بِـوالِدَتِي ولَمْ يَجْعَلْني جَبَّاراً شَقِيًّا ١٥٥

٣٥ : مَا كَانَ لله أَن يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ٢١٩

٤٤ : يا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا ٣٧٣

٥٩ – ٦٠ : فَخَلَفَ ... فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ... ١٥٩

٧٧ : أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِـآيَاتِنا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ٢١٢

٧٨ : أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً ٢١٢

٨١ : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله آلِهَةً... ٦١، ٣٧٠

٨٥ – ٨٧ : يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً... لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَـنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً ٦١، ٨٦، ١٤٦، ٢١١، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٣٧٧

طه

٥ : الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٢١٤، ٢١٩

٨ : اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنى ٧٨

٥٠ : الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى ٥٤

٧٤ – ٧٦ : إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً... ١٤٦، ٢٦٢

١٠٨ – ١٠٩ : يَوْمَئِذٍ يَتَّبِـعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ... ٦٢، ٨٦، ١٢٥، ٢٥٨، ٣٧٥

١١٥ : وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ٢١٢

١١٧ : فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى ٢٨٧

١٢٣ : فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى ٢٦٨
١٢٤ : وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ٢٦٨، ٢٦٩

الأنبياء

٢٢ : لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ ٣٠
٢٣ : لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسأَلُونَ ١٠٤
٢٥ : وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُول إلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إلهَ إلاَّ أَنَا... ٢٨
٢٦ - ٢٨ :... وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضى... ٢٥، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٦، ١٢٥، ١٣٢، ١٤٦، ١٦٨، ١٩٣، ٢٠٩، ٢١٠، ٣٢٥، ٢٤١ - ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٨، ٣٧٥
٩٢ : إنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ٣٦٩

الحج

٥ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِي رَيْب مِنَ الْبَعْثِ.. ٣١٧
٢٢ : كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ... ٣١٣
٢٩ : وَلْيَطَّوَّفُوا بِـالْبَيْتِ الْعَتِيق ٣٦٦
٣٢ : ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإنَّها مِنْ تَقْوى الْقُلُوبِ ٤٧
٤٦ : وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور ٢٧٠
٧٣ - ٧٤ : يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ... ٣٩ - ٤١

المؤمنون

١٤ : فَتَبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ ٦٧
٤٧ : فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِـدُونَ ٣٦٥، ٣٧٣
١٠١ : فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّور فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ... ١٣٨، ١٥٤، ١٦٦، ٢٠٠
١٠٣ : وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ... ١٤٦

النور

٢٣ : إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ... ١٥٦

٣١ : وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩١

٣٩ : كَسَرَابٍ بِــقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ... ٧٤، ١٠١

٥٥ : وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ... ٢٣٥

٦٣ : فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ١٠٤

الفرقان

٣ : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً ... ٤٢، ٢٨٨

٢٣ : وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ١٠٠

٢٧ – ٢٩ : وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ... ١٩٨

٤٣ : أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ٣٧٣

٦٨ – ٦٩ : ... وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ... وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ١٥٦، ٣٧٠

٧٠ : إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ... ٩٨، ٢٢٥

الشعراء

١٠٠ – ١٠٣ : فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ ... فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً... ٥٦، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٠٩، ٣٥٠

النمل

٤ : إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِــالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ٦٧

١٤ : وَجَحَدُوا بِــها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ٣٨

٣٩ : قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِــهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ... ٦٨

٦٥ : قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللهُ.. ٦٥

٨٩ : وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُون ٥٣

القصص

٥٤ : أولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مرَّتَيْنِ ١٠٤

العنكبوت

١٣ : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ ٢٢٥

١٧: إنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ٣٨٥

٤١ : مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُون الله أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ... ٤٢، ٤٤

٤٣ : وَتِلْكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إلاَّ الْعالِمُونَ ٣٨، ١٠١

٤٥ : وَأَقِمِ الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنْكَر ١٦٤

٦١ – ٦٢: ولَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ... ٤٠، ٣٦٣

الروم

١٠ : ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساءُوا السُّوأى... ١٦٨

٣٠ : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّين حَنيفاً فِطْرَةَ الله... ٢٧٥، ٢٨٦

٤١ : ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ... ٢٧٤

٥٦ : لقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ الله إلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ... ٣١٧

لقمان

٢٥ : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ... ٣٧، ٣٨

السجدة

٤ : اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّام... ٢٣، ٦٩، ٣٥٨

٥ : يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنَ السَّمَاء إلَى الأرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إلَيْهِ فِي يَوْمٍ... ٢٤، ٢٧٧

٧ : الَّذي أحْسَنَ كُلَّ شَيْء خَلَقَه ٣١٨

١١ : قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِـكُمْ... ٦٥، ٢٧٧

١٢ : وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ... ٢٨٤، ٢٩٨

١٦ : تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً... ٥٢، ١٣١

١٧ : فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ٣٠٧

٣٠ : إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ... ٢٥٩

الأحزاب

٢١ : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ١٠٤

٢٣ : رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ٣٥١

٣٣ : إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ... ٢٥٨، ٣٠٢

٧٢ : إِنّا عَرَضْنَا الأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبالِ... ٨٤

سبأ

١٥ – ١٧ : لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ ... وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ١٦٠، ٢٧٤

٢٢ – ٢٣ :... وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ... ٢٦

فاطر

١ : الْحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً... ٢٤

١٠ : إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ٢٥٩

١٣ : وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ٣٨٠ ٣٨٥

١٤ : إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ ٣٨٠

١٥ : يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى الله... ١٨، ٦٧، ٨٤، ١٦٣، ٢٨٨

٣٢ : مِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِـقٌ... ٢٥١

٤٢ – ٤٣ : وَأَقْسَمُوا بِـالله... ٧٧، ١٤٩، ٢٧٥

يس

١٢ : وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ٢٢٥

٦٠ – ٦١ : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَني آدَمَ... هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ٢٦٣، ٣٦٥، ٣٧٣

٨٢ : إِنَّما أَمْرُهُ إذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٧٧

الصافات

١ – ٣ : وَالصَّافَّاتِ صَفّاً * فَالزَّاجِراتِ زَجْراً * فَالتَّالِياتِ ذِكْراً ٤٦

٢٤ – ٢٦ : وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ... بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ٢٠١

٢٧ : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ ١٣٨

٣٥ : إِنَّهُمْ كانُوا إذا قِيلَ لَهُمْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ ٣٧١

٨٤ : و إذ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ١٦٥

١٠١ – ١٠٩ : فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ... سَلامٌ عَلَى إِبْراهِيمَ ١٦٥

١٥٩ : سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ ٢١٩

١٧١ – ١٧٣ : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ... ٤٧

ص

٦٥ : وَما مِنْ إلهٍ إلاَّ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ ٧٣

الزمر

٣ : ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إِلَى الله ٣٣، ٤٩، ٦٣، ٣١٩، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٧٧، ٣٧٨

٤ : هُوَ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ ٣١٩

٩ : أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ ساجداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ... ١٣١، ١٩٠

٢٣ : اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشابِهاً مَثَانِيَ... ٢١٥، ٢١٧

٢٧ : وَلَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٣٨

٢٩ : ضَرَبَ اللهُ مَثلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً... ٣٠
٣٨ : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الله... ٣٦، ٣٧
٤٢ : اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها... ٦٥، ٢٧٧
٤٤ : قُلْ لله الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ... ٥٩، ٦٠، ٧٢، ٣٥٨
٥٣، ٥٤ : يَا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا... ١٣١،١٢٢، ١٦٧، ١٧٥، ٢٣٤، ٣١١،٢٩١،٢٨٥
٦٢ : اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ٥٩، ٣٦٩
٦٥ : وَلَقَدْ أُوحيَ إِلَيْكَ وَإِلى الَّذينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ... ١٠٠
٦٩ : وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداء وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ... ٢٢٧، ٣٢٦
٧٠ : وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ٢٢٧

غافر

٣ : قَابِلِ التَّوْب ٢٩٠
٧ : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ... ٦٤، ١٣٣، ٢٢٧، ٢٧٩، ٢٨٠، ٣٦١
١٢ : ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ... ٣٧٢
١٦ : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لله الْوَاحِدِ الْقَهَّار ١٣٧، ٢٠١
١٨ : وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ ... مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ.. ٢٠١، ٢٤٣
٢١ : أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ... ٢٧٥
٣٣ : يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ الله مِنْ عَاصِمٍ ٢٠١
٦٠ : وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ... ٣٧٩، ٣٨٥، ٣٨٦
٦٢ : ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إلهَ إلاَّ هُوَ ٣١٨، ٣٦٩
٦٥ : هُوَ الْحَيُّ لا إلهَ إلاَّ هُوَ ٧٨
٨٥ : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّةَ الله ... ٢٩٧

فصلت

١٧ : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى... ٢٧٤

٢٥ : وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ... ٦٧

٤٦ : وَما رَبُّكَ بِـظَلاَّمٍ لِلْعَبِـيدِ ١٤٦

٥٣ : سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ... ٧٤

الشورى

٥ : وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِـحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ... ٢٨٠

٩ : أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتى... ٦٨

١١ : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ٢١٩

٢٢ : لَهُمْ ما يَشاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ٣٠٧

٢٣ : قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى ٤٧، ١٠٢

٢٥ : وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئاتِ... ١٣٠

٣٠ : وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِـما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ... ١٣١، ١٤٧، ٢٧٠

٣١ : وَما أَنْتُمْ بِـمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ... ٢٧٠

٣٧ : وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الإِثْمِ وَالْفَواحِشَ... ١٥٥

٤٤ : وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ٦٨

الزخرف

٣ – ٤ : إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِـيًّا... وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٢١٥

٩ : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ... ٣٢

٣٢ : نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ٢٦٨

٦٦ – ٦٧ : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ... الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ... ١٩٨، ١٩٩

٨٠ : أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ... ٦٧
٨٦ : وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ...٤٧، ٦٤، ٨٦، ٢١٠، ٣٢٦، ٣٧٧
٨٧ : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ٣٢

الدخان

٤١ : يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ٢٠١
٥٦ : لا يَذُوقُونَ فيهَا المَوْتَ إلاَّ المَوْتَةَ الأُولى ٣٤٠

الجاثية

١٨ : ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الأمْرِ فَاتَّبِعْها... ٥١
٢١ : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا... ١٥٤
٢٣ : أفرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إلهَهُ هَواهُ ٣٧٣
٣٦ – ٣٧ : فَلِلّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السّمَاوَاتِ... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٣٥

الأحقاف

٥ : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ... ٣٨٠
١٣ : إنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ... ٢٥٩

محمد

١٩ : وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِناتِ ٣٠٩
٣٢ – ٣٣ : إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ... ١٠٠

الفتح

١٠ : يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ٢١٤
٢٩ : ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإنْجِيلِ... ٦٦

الحجرات

٢ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِــيِّ ... ١٠٠
١٣ : وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقاكُمْ ٢٥٨

ق

٢٢ : لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ... ٣٤٣
٣٥ : لَهُمْ ما يَشاءُونَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ ٣٠٦، ٣٠٧

الذاريات

٥٦ : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ٥١، ١٢٣
٥٨ : إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ٦٦

الطور

٢١ : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِـإِيمانٍ... ١٠٤، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٥٥
٤٣ : أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣٧١

النجم

١١ – ١٨ : مَا كَذَبَ الْفُؤادُ مَا رَأَى... لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ٢٢٠
٢٦ : وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ... ٦٣، ٦٤، ١٢٥، ١٦٨، ٣٧٥
٣٩ – ٤١ : وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إلاَّ مَا سَعَى... ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٧

القمر

٢٤ : أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِـعُهُ ٢٥٣

الرحمن

٢٩ : يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ١٦٣

٦٠ : هَلْ جَزاءُ الإحْسانِ إلاَّ الإحْسانُ ٣٠٦

الواقعة

٧ – ١١ : وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثلاثَةً... أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٨
٢٧ – ٣٨ : وَأَصْحابُ الْيَمِينِ... ٢٥٤
٤١ – ٥٦ : وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ... ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤
٦١ : وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ١٩٦
٦٣ – ٦٤ : أَفَرَأَيْتُمْ ماتَحْرُثُونَ... ٦٦
٨٨ – ٨٩ : فَأَمَّا إنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ٢٥١

الحديد

١٥ – ١٦ : فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ... فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ... ١٦٨، ١٩٦
٢٠ : وَفِي الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ... ٥٢

الحشر

٢٤ : لَهُ الأسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالأرْضِ ٧٨

الصفّ

٨ – ٩ : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ... ٢٣٧

الجمعة

١١ : قُلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ٦٦

المنافقون

٨ : وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ٦٨

الطلاق

٢ – ٣ : وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ... ١٢٠، ١٥٩

التحريم

٧ : لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٤٢
٨ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً... ١٢١، ١٧٦

الملك

٣ – ٤ : الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا... ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ... ٣١

المعارج

١٩ – ٢١ : إِنَّ الإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً... وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ٨٤

نوح

٥ : قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهاراً ٣٨١
١٠–١٢ : فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً... ١٥٩

الجن

١٨ : فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً ٣٧٩، ٣٨٦، ٣٨٧
٢٦ – ٢٧ : ... فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِـهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضى ... ٦٦، ٣٥٣

المدثر

٣٨ – ٤٨ : كُلُّ نَفْسٍ بِـما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ... فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ ٥٧، ٥٨، ١٣٢، ١٣٦، ١٩٣، ٢٠٥ – ٢٠٧، ٢٥٥، ٢٥٧

القيامة

٢٣ : إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٢٠

المرسلات

١ – ٦ : وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً ... عُذراً أَوْ نُذراً ٤٦ – ٤٧

النبأ

٢١ – ٢٦ : إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً ... جَزاءً وِفاقاً ٣٠٦
٣٨ : لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً ٦٢، ٣٤٧

النازعات

١ – ٥ : وَالنَّازِعاتِ غَرْقاً ... فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً ٢٤، ٤٥، ٤٦، ٦٩، ٧١، ٢٧٧

الانفطار

١٩ : يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ ١٩٦، ٢٠١

المطففين

١٤ : بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِـهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٩٨، ١٦٩، ٢٦٩، ٢٨٧
٢٢ – ٢٨ : إِنَّ الأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ... عَيْناً يَشْرَبُ بِـهَا الْمُقَرَّبُونَ ٢٥١

البروج

٢٠ : وَاللهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ ٢٧٨

الأعلى

٦ – ٧ : سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ١٩٣، ٢٠٩

الفجر

٢٣ : وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِـجَهَنَّمَ ١٧٣
٢٥-٢٦ : فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ * وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ١٧٢

الشمس

٦ – ٩ : وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها... وَقَد خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ٢٧٠، ٢٨٦

الضحى

٥ : وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى ١١١، ٣٠٦، ٣٠٩ – ٣١١، ٣١٢

البينة

٧ – ٨ : إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ... ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ٣٠٨

الزلزلة

٧ – ٨ : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ... شَرًّا يَرَهُ ١١٥ ٢٢٣

العاديات

٦ : إنَّ الإنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٨٤

الكوثر

٣ : إنَّ شانِئَكَ هُوَ الأبْتَر ٢٣٧

فهرس الأحاديث

النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

اتقوا الله معاشر الشيعة فإن الجنّة لن تفوتكم... ١٨٥
آتي تحت العرش فأخرّ ساجداً... ثم يقال: ارفع رأسك وقد تسمع واشفع... ١١٢
أخّرهم إلى السحر لأن دعاء السحر مستجاب ٢٨٢
ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ١٣٦
إذا حشر الناس يوم القيامة ناداني مناد: يا رسول الله ٣٣٣
إذا قُمت المقام المحمود تشَفّعتُ في أصحاب الكبائر... ١٣٤
إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام وقلّت الأنساب... ١٩٩
إذن لا أرضى وواحد من أمّتي في النار ٣١٠
أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة ٣٣٣
ارتعوا في رياض الجنة ٣٠٥
أشفع لأمتي حتى يناديني ربّي: أرضيت يا محمد؟ ٣٠٩
اشفعوا إليّ تؤجروا ١٠٨
ألا أنبئكم بالمؤمن؟ من ائتمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم ٣٥٢
أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ٢٤٩
أما والله ما يحشرون على أقدامهم ولا يساقون سوقاً... ٢٦٢

إن إبليس لما رأى آدم أجوف قال ٢٩٨
إن اثني عشر رجلاً من المنافقين اجتمعوا على أمر من النفاق ٨٧
إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن... ٣٢٠
إن الله عزّ وجلّ قسّم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً ٢٥٧
إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ٢٩٨
إن شئتَ دعوت وإن شئتَ صبرت فهو خيرٌ لك... ٤٩
إن شفاعتي يوم القيامة لأهل الكبائر من أمتي ١٣٣
إن لكلّ نبيّ دعوة مستجابة ... وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمّتي ١٣٣
إن مع العزّ ذلاّ، ومع الحياة موتاً، ومع الدنيا آخرة ٢٢٢، ٣٤٥
إن موسى لما ذهب إلى ربّه استخلف هارون وإني أستخلفك بعدي ٢٤٩
أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأوّل شافع وأول مشفّع ١٣٦
أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ٣٢٢
أنا وأهل بيتي مطهرون منالذنوب ٢٥٨
إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأما المحسنون فما عليهم من سبيل ٢٤٢، ٢٤٣
إنهم ليخرجون من قبورهم وبياض وجوههم كبياض الثلج ٢٦١
إني سألت ربي عزّ وجلّ الشفاعة لأمّتي فأعطانيها... ٢٤٥
أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي، فإني سألت الله عزّ وجلّ أن لا يفرّق بينهما ٣٠٢
أيعجز أحدكم أن يتخذ كلّ صباح ومساء عند الله عهداً؟... ٢٦٣
أيها الناس إنكم في دار هدنة وأنتم على ظهر سفر والسير بكم سريع ١١٨
التائب من الذنب كمن لا ذنب له ٢٨٧
تعلّموا القرآن فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة ٣٣٥
تعلّموا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة صاحبه في صورة شابّ جميل ٣٣٧

تُمدّ الأرض يوم القيامة مدّ الأديم... ٣٢٣
ثلاثة يشفعون إلى الله عزّ وجلّ فيشفّعون: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء٣٠٣، ٣٥٠
ثلاثة يشفعون يوم القيامة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ١١٣
جاء جبرئيل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله في ساعة ما كان يأتيه فيها متغيّر اللون...٣١٢
خمس إن أدركتموهن فتعوّذوا منهن... ، ٢٧٦
خيّرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمّتي الجنّة فاخترت الشفاعة ١٣٤
الدعاء مخ العبادة ٣٧٩، ٣٨٦
الدعاء هو العبادة ٣٧٩
الدعاء يردُّ القضاء وقد اُبرم إبراماً ١٠٦
الدعاء ينفع مما نزل وممّا لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء ١٠٦
الذين ارتضاهم لشهادة أن لا إله إلا الله ٢٤٥
السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ١١٤
سمّيت فاطمة لأن الله فطمها وذرّيتها من النار ٣٤٨
شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ١٣٤
شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدّق قلبه لسانه... ٣٢٢
الشفعاء خمسة: القرآن، والرحم، والأمانة، ونبيّكم، وأهل بيت نبيّكم ٣٣٥
الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ٣٣٥
فإذا فرغ الله عزّ وجلّ من القضاء بين خلقه وأخرج من النار من يريد ٣٠٤
فاطمة بضعة منّي يؤذيني ما يؤذيها ١٠٣
فيؤذن للملائكة والنبيّين والشهداء أن يشفعوا فيشفعون ٣٠٤
كفى بالندم توبة ٢٤٣
لا ألفَينّ أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء... ١١٤

لا تقل إنه من شيعتنا فإنه كذب، إن شيعتنا من شيّعنا وتبعنا في أعمالنا ١٨٤
لا تكلّموهم ولا تجالسوهم فأعرضوا عنهم ٢٥٠
لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار ٢٤٥
لا يردّ القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البرّ ١٦٠، ١٠٥
لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء... ١٠٦
لأقرنّ عينيك بتفسيرها، ولأقرّنّ عين أمّتي... ١٠٥
لعن الله المنافقين والمخالفين ٢٥٠
لكلّ نبي شفاعة وأنا خبّأت شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي يوم القيامة ٣٠٣
اللهم إن لكلّ نبي أهلاً وثقلاً وهؤلاء أهل بيتي وثقلي ٣٠٢
ليجاء يوم القيامة بقوم معهم حسنات مثال جبال تهامة ١٠٢
ليخرجنّ قوم من أمّتي من النار بشفاعتي يسمّون الجهنميين ١٣٤
ما عفا الله عنه فهو أعزّ وأكرم من أن يعود إليه في الآخرة ١٣١
ما من ميت يصلّي عليه أمّة من المسلمين... كلّهم يشفعون له إلا شفّعوا فيه ٣٦١
من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرّني ٢٦٤
من تعلّم القرآن ... أدخله الله به الجنّة وشفّعه في عشرة ... ٣٥٠
من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة... لم ينقص منها شيئاً... ٢٦٤
من حالت شفاعته دون حدّ من حدود الله فقد ضادّ الله ١٠٨
من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له ٣٦٠
من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن ٢٤٣
من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ١٠٧
من عرف الله وعظّمه منع فاه من الكلام... ٣٥٢
من قذر نفسه وواقع المحرّمات... جاء يوم القيامة قذراً طفساً ١٨٦

من كنت مولاه فهذا علي مولاه ٣٠١
من مات على حبّ آل محمد مات شهيداً ١٠٣
هكذا تجتمع الذنوب... إياكم والمحقّرات من الذنوب ٢٣٤
يا أقدر القادرين اغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم... ٢٧٢
يا أيها الناس والله ما من شيء يقرّبكم من الجنّة ويباعدكم من النار... ٥٥
يا علي إن الوفد لا يكون إلا ركباناً، أولئك رجال اتقوا الله ٢٦١
يحشر المرء على ما مات عليه ١١٥
يخرجون من النار بعدما دخلوا ٣٣٣
يشفع الشهيد في سبعين إنساناً من أهل بيته ٣٤٩

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

أفضل ما توسّل به المتوسّلون الإيمان بالله وصدقة السر، فإنها تذهب الخطيئة ١٠٥
أما المطيعون لنا فسيغفر الله ذنوبهم امتناناً إلى إحسانهم ١٨٧
إن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار... ٥٤
إن لأهل الإيمان علامات يعرفون بها: صدق الحديث، وأداء الأمانة ٣٥٢
إن للجنة ثمانية أبواب، باب يدخل منه النبيّون والصدّيقون ١٠٢، ٣٤٧
إنك سألت عن الاستطاعة... فهو المالك لما ملّكك... ١٦، ٧١، ٧٦
ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار ٢٩٢
خلقنا من طينة طيّبة وخلق شيعتنا من طينتنا... ١٨٧
فالحدّ لخلقه مضروب وإلى غيره منسوب ٧٣
... فلا يتكلم أحد إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، فيقام الرسول فيسأل،٣٢٧
قالت فاطمة عليها السلام: يا أبتاه أين ألقاك يوم الموقف الأعظم ٣٣٢
لا شفيع أنجح من التوبة ٩٨، ٢٨٣

لا يشمل بحدّ ولا يحسب بعدّ ٧٣
ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان ١٧١
... من تاب قبل أن يعاين... ٢٩٨
... ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي ٢٤٢
من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه ٧٣
واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ ٣٣٥
واعلموا أنه شافع مشفّع وقائل مصدّق ١١٨، ٣٣٦

الإمام الحسن عليه السلام

لايشفعون الا لمن ارتضى، قول لا إله إلا الله ٢٤٥
(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى) هي الشفاعة ٣٠٩
يا عبد الله إن كنت لنا في أوامرنا وزواجرنا مطيعاً فقد صدقت... ١٨٣

الإمام السجاد عليه السلام

إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيّتك جاحد... ٩٣، ٩٤
إني أكره أن أعبد الله ولا غرض لي إلاّ ثوابه... ٥٤
الذنوب التي تغيّر النعم: البغي على الناس... وترك الشكر ٢٧٢
سيدي أنا الصغير الذي ربّيتَهُ... ٩٣، ٩٤
فسمّيت دعاءك عبادة وتركه استكباراً... ٣٨٦
وإذا رأيت كرمك طمعتُ، فإن عفوتَ فخير راحم... ٩٢
يا حليم يا كريم يا حيّ يا قيّوم يا غافر الذنب... ٩٢

الإمام الباقر عليه السلام

أبلغ شيعتنا أنا لا نغني من الله شيئاً... ١٧٩

أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله.. ٢٩٩
إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ست صور ٣٤٥
الإصرار هو أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدّث نفسه بتوبة ٢٣٤
ألا أدلّك على شيء لم يستثن منه رسول الله صلى الله عليه وآله ١٠٦
أما لو علمت أفزاع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله ٣٢٤
إن العبد يسأل الله الحاجة فيكون من شأنه قضاؤها... ١٧٠
إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما أسري به لم يمرّ بخَلْق من خلْق الله إلا رأى ما يحبّ من البِشر واللُّطف والسرور، حتى مرّ بخلق من خلق الله ١٧٤
أيكتفي من ينتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت؟ ١٨٠
تعلّموا القرآن، فإن القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة ٣٣٨
ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له ٢٩٩
صلة الأرحام تزكّي الأعمال، وتنمي الأموال ١٦٠
العاصي لله ليس بوليّ لنا، ولا تدرك ولايتنا إلا بالعمل ١٨١
فلو سكت رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يبيّن مَنْ أهلُ بيته لادّعاها... ٣٠٢
كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة ٣٠٠
لا تذهب بكم المذاهب فوالله ما شيعتنا إلا من أطاع الله ١٧٩
لفاطمة وقفة على باب جهنم ٣٤٧
لما نزلت هذه الآية ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ سُئل عن ذلك رسول الله... ١٧٣
ليس بين الله وبين أحد قرابة ١٨٠
ما من أحد ... إلا وهو محتاج إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله ٣٢٤
ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة ١٦٩
ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء ٢٨٦

نحن الأمّة الوسطى ونحن شهداء الله على خلقه وحجته في أرضه ٣٢٨
والصلاة تتكلّم ٣٤٠
والله ما شيعتنا إلا من اتّقى الله ١٨٠
والله ما معنا من الله براءة ولا بيننا وبين الله قرابة ١٨٢
وإن أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع لثلاثين إنساناً ٣٥٠
(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى) الشفاعة والله الشفاعة والله الشفاعة ٣١٠
يامعشر الشيعة كونوا النمرقة الوسطى، يرجع إليكم الغالي ١٨٢

الإمام الصادق عليه السلام

أبى الله أن يُجري الأشياء إلا بأسباب، فجعل لكلّ شيء سبباً ١٢٠
إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت ١٧٠
أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته...٣٢٨
إذا كان على بطنها سُلب الإيمان ١٦٩
إذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد، فإذا وقفا بين يدي الله... ٣٤٩
إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ٣٤٦
إذا كان يوم القيامة نشفع في المذنب من شيعتنا، فأمّا المحسنون فقد نجّاهم الله ١٧٨
إذا فشت أربعة ظهرت أربعة: إذا فشا الزنا ظهرت الزلزلة ٢٦٧
أكبر الكبائر الشرك بالله... وقطيعة الرحم ١٥٥
أما أنه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ٢٧١
إن رسول الله صلى الله عليه وآله نزلت عليه الصلاة ولم يسمّ الله لهم... ٣٠١
إن المؤمن ليشفع يوم القيامة لأهل بيته فيشفّع فيهم حتى يبقى خادمه فيقول٣٥٠
إن الناس يعبدون الله عزّ وجلّ على ثلاثة أوجه، فطبقة يعبدونه رغبة ٥٣
بينا رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم قاعداً إذ أتاه جبرئيل وهو كئيب حزين ١٧٢

رضاء جدي أن لا يدخل النار موحّد ٣٠٩
سأل علي عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله عن تفسير قوله: يوم نحشر... ٢٦١
شيعتنا أهل الورع والاجتهاد وأهل الوفاء والأمانة ١٨٨
العبّاد ثلاثة، قوم عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً فتلك عبادة العبيد ٥٣
فثبّتنا من العرش والكرسي ما ثبّته ٢٢٠
فلان ينظر إلى حرم جاره فإن أمكنه مواقعة حرام لم يرعَ منه ١٨٤
كان أبي يقول: إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران ١٩١
كان فيه (وصية لقمان) الأعاجيب وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه ١٩١
لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار ٢٣٤
لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً... ١٩١
ليس من شيعتنا من قال بلسانه وخالفنا في أعمالنا وآثارنا ١٨٨
ما من أحد إلا ويحتاج إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله يومئذ ٣٢٣
المؤمن مؤمنان: مؤمن وفى الله بشروطه التي اشترطها عليه ٣٥١
المؤمن مؤمنان، فمؤمن صدّق بعهد الله ووفى بشروطه ٣٥١
من ترك الصلاة متعمّداً فقد برئ من ذمّة الله وذمّة رسوله ١٥٧
من زنى خرج من الإيمان، ومن شرب الخمر خرج من الإيمان ١٦٩
من همّ بسيّئة فلا يعملها ١٧٠
نحن والله المأذون لهم في ذلك اليوم والقائلون صواباً ٣٤٧
والله ما أنصفونا أن نكون أخذنا بالعمل ووُضع عنهم ١٨٣
ويلك فهل يشفع إلا لمن وجبت له النار ٣٣٠
وكذلك هو مستولٍ على العرش باينٌ من خلقه... ٢١٩
هؤلاء يترجّحون في الأماني ١٩٢

ينبغي لمن ادعى هذا الأمر في السرّ أن يأتي عليه ببرهان في العلانية ١٨٥
ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثمان خصال: وقور عند الهزاهز ٣٥٣

الإمام الكاظم عليه السلام

شيعتنا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ٣٥٠
عليكم بالدعاء فإن الدعاء لله والطلب إلى الله يردّ البلاء وقد قضي ١٦٠
لا يُخلِّد الله في النار إلا أهل الكفر... ومن اجتنب الكبائر... ٢٤٢
ما من أحد يرتكب كبيرة من المعاصي وهو يعلم أنه سيعاقب... ٢٤٣
ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلا ساءه ذلك وندم عليه، ومتى ندم... ٢٤٤
يقوم الناس يوم القيامة مقدار أربعين عاماً وتؤمر الشمس فتركب... ٣٢١

الإمام الرضا عليه السلام

إنما شيعة علي أبو ذر وسلمان والمقداد وعمار ومحمد بن أبي بكر ١٨٤
لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه ٢٤٢
لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون فيه ثلاث خصال: سنّة من ربّه ٣٥٣
ليس هو في الخلق ولا الخلق فيه تعالى عن ذلك ٧٦
يكون الرجل يصل رحمه فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين... ١٦٠

فهرس المصادر

١. **إحياء علوم الدين**، تصنيف: الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ١٩٠

٢. **الأربعون حديثاً**، الإمام الخميني، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني قدس سره، الطبعة الثانية: ١٤٢٤ هـ ١٨٥، ٣٠٠

٣. **الأصول العامة للفقه المقارن**، العلاّمة محمد تقي الحكيم، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ٩٦

٤. **الأصول من الكافي**، محمد بن يعقوب الكليني، ٥٣، ٥٥، ١٠٦، ١١٨، ١٢٠، ١٦٠، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٩١، ١٩٢، ٢٣٤ ، ٢٧١، ٢٧٦، ٢٨٧، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٣

٥. **آلاء الرحمن في تفسير القرآن**، الإمام المجاهد الشيخ محمد جواد البلاغي، تحقيق: مؤسسة البعثة – قم، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ،٦، ١١٢، ٣٧٤

٦. **الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل**: محاضرات الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني، بقلم: الشيخ حسن محمد مكي العاملي، الطبعة الثانية، المركز العالمي للدراسات الإسلامية، ٣٦٨، ٣٧٢

٧. **أمالي الشيخ الصدوق**، ١٣٤، ١٧٤

٨. **أمالي الشيخ الطوسي**، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، منشورات مكتبة الداوري. قم – إيران، ١٧٩، ٣٤٨

٩. **أوائل المقالات**، ١٢٨

١٠. **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، العلامة الحجّة الشيخ محمد باقر المجلسي ، مؤسسة الوفاء، بيروت – لبنان، ١٦، ١١١، ١٣٦، ١٧٤، ١٧٨، ١٨٣ – ١٨٨، ٣٠٣،٢٢٠، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٤٧، ٣٤٩ –٣٥٠

١١. **بحوث في الملل والنحل**، دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية، تأليف: جعفر السبحاني، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ ، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٤

١٢. **البرهان في تفسير القرآن**، العلامة المحدّث السيد هاشم البحراني، حقّقه وعلّق عليه لجنة من العلماء، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ ٢٤٤، ٢٥٨، ٢٧٣

١٣. **البيان في تفسير القرآن**، للإمام الأكبر زعيم الحوزة العلمية السيد أبي القاسم الموسوي الخوئي، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الثامنة، ١٩٨١ م، ٣٦٩

١٤. **التبيان في تفسير القران**، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٨٧، ١٣٦، ٢٠٤

١٥. **تحف العقول عن آل الرسول**، الشيخ الثقة ابن شعبة الحرّاني، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، قم – إيران، ٧١، ٧٥، ٧٦

١٦. **تسلية الفؤاد في بيان الموت والمعاد**، السيد عبد الله شبر، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، الشيخ رضا أستادي، منشورات مكتبة بصيرتي، قم، سنة ١٣٩٣، ٣٤٥

١٧. **تسنيم**، تفسير القرآن الكريم، المفسّر الحكيم آية الله جوادي آملي (بالفارسية)، ٥٤

١٨. **تفسير ابن كثير**، ١١٢

١٩. **تفسير الصافي**، تأليف: أستاذ عصره ووحيد دهره المولى محسن الملقب بالفيض الكاشاني، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، ٣١١

٢٠. **تفسير الطبري** المسمّى جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، مركز الكتاب العلمي، القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ ، ٢٠٢،

٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١١، ٢٤٩

٢١. **تفسير العياشي**: الشيخ أبو النضر محمد بن مسعود العياشي (ت: ٣٢٠هـ)، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، مؤسسة البعثة / قم، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٨

٢٢. **تفسير الفرات**، ٣١٠

٢٣. **تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار**، تأليف: الشيخ محمد رشيد رضا، وهي مجموعة الدروس التي أخذها عن أستاذه الشيخ محمد عبده. تعليق وتصحيح: سمير مصطفى رباب. دار إحياء التراث العربي، ١٠٨، ١٥٨، ١٩٣، ٢١٣، ٢١٤، ٣٧٤

٢٤. **تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله والصحابة والتابعين**، تأليف: الإمام الحافظ عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب. المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ، ٢٠٩، ٢٥٠، ٢٥٢، ٣٠٩

٢٥. **تفسير القمي**، ٢٦١، ٣٢٤

٢٦. **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، للإمام فخر الدين الرازي الشافعي، منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م، ٥، ٤٥، ٥٧، ٧١، ٩٩، ١٠٤، ١٠٨، ١١١، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٩- ١٣١، ١٣٤، ١٣٥، ١٩٩، ٢٠٨، ٢١٨، ٢٣٣، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٨٢، ٣٠٠، ٣٠٩، ٣١٠، ٣٢٠، ٣٢٩، ٣٦١

٢٧. **تفسير مقاتل بن سليمان**، دراسة وتحقيق: د. عبد الله محمود شحاته، دارإحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ، ٢٥٠

٢٨. **التقوى في القرآن**، السيد كمال الحيدري، الطبعة الرابعة: ١٤٢٣هـ، دار فراقد، ٢٧٨

٢٩. **تنزيه الاعتقاد** للصنعاني، ٣٨٠

٣٠. **التوحيد والشرك في القرآن الكريم**، الشيخ جعفر السبحاني إصدار مؤسسة الفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤٠٦، ٣٦٤، ٣٧٧
٣١. **التوحيد، بحوث في مراتبه ومعطياته**، السيد كمال الحيدري، تقرير: جواد علي كسار، دار الأضواء، بيروت – لبنان، ٧٠، ٧٣، ٧٧، ٨٥
٣٢. **التوحيد**، للشيخ الجليل الصدوق ، دار المعرفة بيروت – لبنان،٧٥، ٧٦
٣٣. **جامع السعادات**، للشيخ الجليل محمد مهدي النراقي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ٢٢٢، ٣٤٥
٣٤. **الجواهر في تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع المكوّنات وغرائب الآيات الباهرات**، تأليف: الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الرابعة ١٩٩١ م، ١١٦
٣٥. **حاشية العلامة أحمد بن المنير الاسكندري المسمّاة بالانتصاف**،١٣٨
٣٦. **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**، الحكيم الإلهي والفيلسوف الربّاني صدر الدين الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،١٨
٣٧. **الخصال**، للشيخ الجليل الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٠٢، ٣٤٧، ٣٥٠
٣٨. **دائرة معارف القرن العشرين**: محمد فريد وجدي، دار الفكر، ١٦٦
٣٩. **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار الفكر، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٣ م، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦، ١٩٩، ٢٠٩، ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٨٢، ٢٩٨، ٣٠٩، ٣٢١- ٣٢٣
٤٠. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، للعلامة شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، بإشراف هيئة البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، قرأه وصحّحه: محمد حسين العرب، ٤٨، ٤٩، ٦٣، ٨٧، ٢٤٨، ٢٥٠ ٢٥٨، ٢٨٠، ٣١٨

٤١. **سنن ابن ماجة**، ١٣٣، ١٣٤، ٣٠٤، ٣٥٠
٤٢. **سنن أبي داود**، ١٣٤، ٣٤٩
٤٣. **سنن الترمذي**، ١٠٥، ١٣٣، ١٣٤، ٣٥٠
٤٤. **سنن النسائي**، ٣٠٤
٤٥. **شرح العالم الرباني كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني** «قدّس سره» **على المائة كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام**، ويليه شرحان على تلك الكلمات بعينها، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية – قم المقدسة، ٢٨٣، ٣٠٠
٤٦. **شرح تجريد الاعتقاد، لنصير الملة والدين محمد بن محمد الطوسي** تأليف: علاء الدين علي بن محمد القوشجي، الطبعة الحجرية، ١٢٨
٤٧. **شرح جامع للأصول والروضة من الكافي**، تأليف: المولى محمد صالح المازندراني، مع تعاليق علمية للعالم المتبحّر الميرزا أبي الحسن الشعراني. من منشورات المكتبة الإسلامية، طهران، شارع بوذرجمهري، ١٨٣
٤٨. **شرح صحيح مسلم**، ٥، ١١١، ١٣٦
٤٩. **شرح نهج البلاغة**، لمؤلفه العلامة المحقق الحاج ميرزا، ٣٣٧
٥٠. **صحيح البخاري**، ١٣٣
٥١. **صحيح مسلم**، ١٣٣، ٣٦١
٥٢. **صفات الشيعة** للشيخ الصدوق، ٣٥١
٥٣. **عدة الداعي**، ٣٠٦
٥٤. **عصمة الأنبياء في القرآن** (محاضرات: السيد كمال الحيدري) بقلم: محمود نعمة الجياشي، ٢٨٩، ٣٢٦
٥٥. **العصمة**: محاضرات السيد كمال الحيدري، بقلم: السيد محمد القاضي، ٣٠٢
٥٦. **علل الشرائع**، ٣٤٨

٥٧. **علم اليقين في أصول الدين**، تأليف: الحكيم المتألّه محمد بن المرتضى المدعوّ بالمولى محسن الكاشاني، انتشارات بيدار، ١٧٣، ١٧٤، ٣١٧
٥٨. **عيون أخبار الرضا عليه السلام**، ٢٤٢
٥٩. **الغدير في الكتاب والسنة والأدب**، العلامة الشيخ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، تحقيق مركز الغدير للدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى المحققة، سنة ١٩٩٥ م، ٣٦٢
٦٠. **الفتوحات المكية**، محي الدين بن عربي، تحقيق وتقديم: د. عثمان يحيى، تصدير ومراجعة: د. إبراهيم مدكور، ٣٣٠
٦١. **الفروع من الكافي**، ٣٥٠
٦٢. **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، ٤٠، ٤٤
٦٣. **الكافي**، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٥٧، ١٦٠، ١٧١
٦٤. **كتاب التوحيد والشرك**، ٣٧٩
٦٥. **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، وهو تفسير القرآن الكريم، للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ٦٢، ١٠٣، ١٣٨، ١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٨، ٢١١، ٢٥٥، ٢٧٩
٦٦. **كشف الارتياب في اتباع محمد بن عبد الوهاب**، تأليف: السيد محسن الأمين الحسيني العاملي، الطبعة الثالثة، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٤، ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨٧
٦٧. **كشف الشبهات**، طبعة القاهرة، ٣٦٤، ٣٧٩
٦٨. **كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد**، تأليف: العلامة الحلّي، صحّحه وقدّم له وعلّق عليه: الأستاذ حسن حسن زادة الآملي، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران، ١٢٨
٦٩. **لسان العرب** للإمام العلاّمة ابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١١، ٣٦٤، ٣٦٥
٧٠. **مجمع البيان في تفسير القرآن**، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن

الطبرسي، منشورات دار مكتبة الحياة، ٧٢، ١٠٨، ١١١، ١٢٧، ٣٢٠
٧١. **مجموعة الرسائل الكبرى**، ١٣٧، ١٣٨
٧٢. **مرآة العقول في شرح أخبار الرسول**، تأليف: العلامة شيخ الإسلام المولى محمد باقر المجلسي، دار الكتب الإسلامية.، ١٧٩، ١٨١
٧٣. **المستدرك على الصحيحين**، للحاكم النيسابوري، دار الفكر، ١٠٦، ١٦٠
٧٤. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، ١٣٤، ٢٤٥، ٣٢٢، ٣٣٥
٧٥. **معالم التوحيد في القرآن الكريم**، محاضرات العلامة الأستاذ الشيخ جعفر السبحاني، بقلم: جعفر الهادي، مطبعة الخيام: قم ١٤٠٠ هـ ٣٧٠، ٣٧١، ٣٨٥
٧٦. **مفاتيح الجنان**، الحاج الشيخ عباس القمي، تعريب: السيد محمد رضا النوري النجفي، ٩٤، ٢٧٢
٧٧. **مفاهيم القرآن**، ١١٢، ١٢١، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧، ١٧٨، ٢١٢، ٣٠٤، ٣٢٢، ٣٣٣، ٣٣٥، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٧، ٣٦١
٧٨. **المفردات في غريب القرآن** تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت،،١١، ١٠١، ٢١٥، ٢٦٨، ٢٦٩، ٣١٨، ٣٦٥، ٣٨١
٧٩. **من لا يحضره الفقيه**،١٣٤
٨٠. **منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة**، لمؤلفه العلامة المحقق الحاج ميرزا حبيب الله الهاشمي الخوئي «قدس سره»، منشورات دار الهجرة، إيران - قم، الطبعة الرابعة،٣٣٧
٨١. **منهج الرشاد**، الشيخ الأكبر الشيخ جعفر كاشف الغطاء، ١٣٤٣ هـ ، ٣٦٧
٨٢. **المواهب اللدنية**، ٣٦٢
٨٣. **موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، للباحث العلامة محمد علي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم. تحقيق: د. علي دحروج. نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي. الترجمة

الأجنبية: د. جورج زيناتي. مكتبة لبنان – ناشرون، ١٢٦، ٣٣١

٨٤. **موطأ مالك**، ١٣٣

٨٥. **الميزان في تفسير القرآن** للعلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣م، ١٢، ١٧، ١٨، ٢٥، ٢٧، ٤٢، ٥٨، ٦٤، ٧٢، ٨٢، ٨٣، ٩٠، ١٠٧، ١٢٤، ١٥٢، ١٦٦، ١٧٢، ١٧٨، ١٩٠، ١٩٨، ٢١٠، ٢١٦ – ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٠، ٣٠٠، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣١٠، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٣٤، ٣٤٤، ٣٥٩، ٣٧٠، ٣٨٣

٨٦. **نهاية الحكمة**، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم – إيران، ٣١، ٧١

٨٧. **نهج البلاغة**، ضبط نصّه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي الصالح، ٥٤، ٧٣، ٩٨، ١١٩، ٢٩٢، ٣٣٦

٨٨. **الهدية السنية**، ٦، ١١٢، ٣٥٧، ٣٧٩

٨٩. **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، الحر العاملي، مؤسسة آل البيت، قم – إيران، ١٤٠٩ هـ.، ١٠٥

٩٠. **اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر**، تأليف: الشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني المصري الحنفي، طبعة جديدة ومصحّحة ومخرجة الآيات القرآنية الكريمة، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي – بيروت، لبنان، ١٣٧، ٣٣٠

فهرس المحتويات

المقدمة ٥

الفصل الأوّل
الشفاعة لغة واصطلاحاً وبيان أقسامها

الشفاعة لغة ١١
الشفاعة اصطلاحاً ١٢
١. الشفاعة العقلائية ١٣
٢. الشفاعة في اصطلاح القرآن ١٤
(١) الشفاعة في نظام التكوين ١٥
الآيات الدالّة على الشفاعة التكوينية ١٩
المدبّرات أمراً ٢٤
كلام في الآيات النافية للشفاعة ٢٦
الإسلام والوثنيّة ٢٨
وحدة الربوبية والتدبير في وحدة الخالقية ٣٣
الوجه الأول: الربوبية والتدبير مرجعهما إلى الخالقية ٣٣
الوجه الثاني: الربوبية تستلزم الخالقية ٣٥
شواهد قرآنية ٣٦

تمثيل قرآني ٣٨
تلخيص ٤٤
معالجة شبهة ٤٥
جوابها ٤٥
(٢) الشفاعة في مجال التشريع ٥١
المبحث الأول: إثبات الشفاعة التشريعية ٥٦
آيات الشفاعة التشريعية صنفان ٥٨
- الصنف الأول: الشفاعة مختصة بالله تعالى ٥٨
- الصنف الثاني: ثبوت الشفاعة لغيره تعالى ٦١

التعارض بين الصنفين ٦٥
معالجة التعارض ٧٠
المبحث الثاني: حقيقة فعل الشفيع ٧٨
الاسم بين اللفظ والعين ٨٠
صفات العبد ٨٣
ملاحظتان ٨٦
نظريتان في حقيقة فعل الشفيع ٨٩
- النظرية الأولى ٨٩
- النظرية الثانية ٩٤

الشفاعة من مصاديق الحكومة ٩٦
رجوع الشفاعة التشريعية إلى السببية ٩٧
موارد من الحكومة في القرآن ٩٨
الحكومة في نظام التكوين ١٠٥

الشفاعة الحسنة والشفاعة السيّئة ١٠٦

الفصل الثاني: أثر الشفاعة

اتفاق المسلمين على الشفاعة التشريعية ١١١
اتجاهات في تفسير الأثر المترتّب على الشفاعة التشريعية ١١٣
● الاتجاه الأول: إن الشفاعة لدفع العقاب لا لرفعه ١١٣
● الاتجاه الثاني: إن الشفاعة لدفع العقاب ورفعه ١١٩
● الاتجاه الثالث: إن الشفاعة لزيادة الثواب لا لإسقاط العقاب.............. ١٢٦

الفصل الثالث: إشكالات وشبهات حول الشفاعة

عوامل إثارة الشبهات.. ١٤٣
● الإشكال الأول: لزوم الظلم منه تعالى ١٤٦
جواب الإشكال الأول.. ١٤٧
● الإشكال الثاني: تبدّل السنن الإلهية... ١٤٩
جواب الإشكال الثاني... ١٥٠
● الإشكال الثالث: لزوم الترجيح بلا مرجّح.. ١٥٣
الإجابة على الإشكال الثالث... ١٥٣
● الإشكال الرابع: لزوم تغيّر العلم في حقه تعالى ١٥٨
دفع الإشكال الرابع... ١٥٩
● الإشكال الخامس: لزوم التجرّي... ١٦٦
جواب الإشكال الخامس.. ١٦٦
البيان الأول ١٦٧
عظة أخلاقية ١٧٢

البيان الثاني ١٧٤
شفاعة أهل البيت لأتباعهم وشبهة التجرّي ١٧٨
نكتة أخلاقية ١٨١
فائدة ١٨٧
الشفاعة بين الخوف والرجاء ١٨٨
● الإشكال السادس: ليس في القرآن نصّ قطعي في وقوع الشفاعة ١٩٣
جواب الإشكال السادس ١٩٥
● الإشكال السابع: إن آيات الشفاعة من المتشابهات ٢١٣
جواب الإشكال السابع ٢١٥
● الإشكال الثامن: إن الشفاعة تتنافى مع وجوب السعي ٢٢٢
جواب الإشكال الثامن ٢٢٦

الفصل الرابع: شرائط المشفوع لهم

المرضيّ عند الله تعالى ٢٣٥
الرضا بين الاعتقاد والعمل ٢٤٠
إشكال وجواب ٢٤٦
شواهد قرآنية ٢٥١

الفصل الخامس: الشفعاء

مقدمة في آثار الذنوب ٢٦٧
الآثار الفردية للذنوب في الدنيا ٢٦٨
الآثار الاجتماعية للذنوب في الدنيا ٢٧٤
سؤال وجواب ٢٧٦
النتيجة ٢٧٨

(١) شفعاء الشفاعة التشريعية في الدنيا

١ . الملائكة... ٢٧٩
٢ . الأنبياء ٢٨١
٣ .التوبة.. ٢٨٣
فائدة أخلاقية ٢٨٦
توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالى... ٢٨٨
توبة الأنبياء... ٢٨٩
قبول التوبة من الله لعبده فضل منه تعالى.. ٢٩٠
الحكمة من تشريع التوبة.. ٢٩١
أركان التوبة وشروطها.. ٢٩٢
شرائط قبول التوبة ٢٩٥
تشريع التوبة والإغراء بالمعصية ٢٩٩
٤ . شفعاء آخرون ٣٠٠

(٢) شفعاء الشفاعة التشريعية في الآخرة

١. الأنبياء... ٣٠٣
٢ . شفاعة النبيّ الأكرم.. ٣٠٥
أرجى آية في كتاب الله... ٣١٠
موعظة فيها تذكرة.. ٣١٢
الشفاعة والمقام المحمود ٣١٧
روايات المقام المحمود ٣٢٠
شفاعته صلى الله عليه وآله لا تختصّ بأمّته ٣٢٢

عود على بدء ٣٢٩
روايات أخرى في شفاعته صلى الله عليه وآله ٣٣٢
تلخيص ٣٣٤
٣ . شفاعة القرآن الكريم ٣٣٥
نظرية تجسّم الأعمال ٣٤٠
٤ . شفاعة أهل البيت عليهم السلام ٣٤٦
٥ . شفعاء آخرون ٣٤٩
صفات المؤمن ٣٥٢

الفصل السادس: في جواز طلب الشفاعة من الشفعاء

شبهات وردود ٣٦٣
● الوجه الأول: طلب الشفاعة من الشفعاء موجب للشرك ٣٦٣
الجواب الأول ٣٦٤
حقيقة العبادة اصطلاحاً ٣٦٧
الجواب الثاني ٣٧٥
● الوجه الثاني: طلب الحاجة من غيره حرام ٣٧٩
الجواب ٣٨١
الخلاصة ٣٨٢

فهرس الآيات ٣٩١
فهرس الأحاديث ٤١٧
فهرس المصادر ٤٢٧
فهرس المحتويات ٤٣٥